إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء السادس

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت: ٣١٨١٠

الباب الثالث

فى حق المسلم والرحم والجوار والمال وكيفية المعاشرة مع من يدلى بهذه الأسباب

اعلم أن الانسان إما أن يكون وحده، أو مع غيره. وإذا تعذر عيش الإنسان إلا بمخالطة من هو من جنسه، لم يكن له بد من تعلم آداب المخالطة. وكل مخالط ففى مخالطته أدب والأدب على قدر حقه، وحقه على قدر رابطته التى بها وقعت المخالطة. والرابطة إما القرابة وهي أخصها، أو أخوة الإسلام، وهى أعمها، وينطوى فى معنى الأخوة الصداقة والصحبة وإما الجوار، وإما صحبة السفر والمكتب والدرس، وإما الصداقة أو الأخوة

ولكل واحد من هذه الروابط درجات، فالقرابة لها حق، ولكن حق الرحم المحرم آكد. وللمحرم حق. ولكن حق الوالدين آكد. وكذلك حق الجار، ولكن يختلف بحسب قربه من الدار وبعده، ويظهر التفاوت عند النسبة، حتى أن البلدى فى بلاد الغربة يجرى مجرى القريب فى الوطن، لاختصاصه بحق الجوار فى البلد. وكذلك حق المسلم يتأكد بتأكد المعرفة وللمعارف درجات، فليس حق الذى عرف بالمشاهدة كحق الذى عرف بالسماع، بل آكد منه. والمعرفة بعد وقوعها تتأكد بالاختلاط. وكذلك الصحبة تتفاوت درجاتها، فحق الصحبة فى الدرس والمكتب آكد من حق صحبة السفر وكذلك الصداقة تتفاوت، فإنها إذا قويت صارت أخوة، فإن ازدادت صارت محبة، فإن ازدادت صارت خلة، والخليل أقرب من الحبيب، فالمحبة ما تتمكن من حبة القلب، والخلة ما تتخلل سر القلب، فكل خليل حبيب، وليس كل حبيب خليلا. وتفاوت درجات الصداقة لا يخفى بحكم المشاهدة والتجربة. فأما كون الخلة فوق الأخوة، فمعناه أن لفظ الخلة عبارة عن حالة هي أتم من الأخوة. وتعرفه من قوله صلى الله عليه وسلم[1] « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لَا تَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَـكِنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ » إذ الخليل هو الذى يتخلل الحب جميع أجزاء قلبه ظاهرا وباطنا، ويستوعبه. ولم يستوعب قلبه عليه السلام سوى حب الله

(الباب الثالث فى حقوق المسلم والرحم والجوار)

(١) حديث لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبو بكر خليلا ـ الحديث: متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى

وقد منعته الخلة عن الاشتراك فيه ، مع أنه اتخذ عليا رضي الله عنه أخا فقال [١] « عَلِيٌّ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَرُونَ مِنْ مُوسَى إِلاَّ النُّبُوَّةَ » فعدل بعلي عن النبوة ، كما عدل بأبي بكر عن الخلة فشارك أبو بكر عليا رضي الله عنهما في الأخوة ، وزاد عليه بمقاربة الخلة ، وأهليته لها لو كان للشركة في الخلة مجال ، فإنه نبه عليه بقوله « لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً » وكان صلى الله عليه وسلم حبيب الله وخليله وقد روي أنه صعد المنبر يوما مستبشرا فرحا ، فقال [٢] « إِنَّ اللَّهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً فَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَأَنَا خَلِيلُ اللَّهِ تَعَالَى » فإذاً ليس قبل المعرفة رابطة ، ولا بعد الخلة درجة . وما سواهما من الدرجات بينهما . وقد ذكرنا حق الصحبة والأخوة ، ويدخل فيهما ماوراءهما من المحبة والخلة . وإنما تتفاوت الرتب في تلك الحقوق كما سبق بحسب تفاوت المحبة والأخوة ، حتى ينتهي أقصاها إلى أن توجب الإيثار بالنفس والمال ، كما آثر أبو بكر رضي الله عنه نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكما آثره طلحة ببدنه ، إذ جعل نفسه وقاية لشخصه العزيز صلى الله عليه وسلم

فنحن الآن نريد أن نذكر حق أخوة الإسلام ، وحق الرحم ، وحق الوالدين ، وحق الجوار وحق الملك أعني ملك اليمين فإن ملك النكاح قد ذكرنا حقوقه في كتاب آداب النكاح

حقوق المسلم

[٣] هي أن تسلم عليه إذا لقيته ، وتجيبه إذا دعاك ، وتشمته إذا عطس ، وتعوده إذا مرض وتشهد جنازته إذا مات ، وتبر قسمه إذا أقسم عليك وتنصح له إذا استنصحك وتحفظه بظهر

---

(١) حديث على مني بمنزلة هارون من موسى الا النبوة : متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص

(٢) حديث ان الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا ـ الحديث : الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف دون قوله فأنا حبيب الله وانا خليل الله (الاخبار الواردة في حقوق المسلم على المسلم)

(٣) هو أن يسلم عليه اذا لقيه فذكر عشر خصال الشيخان من حديث أبي هريرة حق المسلم على المسلم خمس رد السلام وعيادة المريض واتباع الجنائز واجابة الدعوة وتشميت العاطس وفي رواية لمسلم حق المسلم على المسلم ست إذا لقيته تسلم عليه وزاد وإذا استنصحك فانصح له وللترمذي وابن ماجه من حديث علي للمسلم على المسلم ست فذكر منها ويحب له مايحب لنفسه وقال وينصح له اذا غاب أو شهد ولأحمد من حديث معاذ وأن تحب للناس ماتحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك وفي الصحيحين من حديث البراء أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع فذكر منها وابرار القسم ونصر المظلوم

الغيب إذا غاب عنك ، وتحب له ماتحب لنفسك ، وتكره له ما تكره لنفسك ، وورد جميع ذلك في أخبار وآثار. وقد روى أنس رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه[١] قال «أَرْبَعٌ مِنْ حَقِّ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْكَ أَنْ تُعِينَ مُحْسِنَهُمْ وَأَنْ تَسْتَغْفِرَ لِمُذْنِبِهِمْ وَأَنْ تَدْعُوَ لِمُدْبِرِهِمْ وَأَنْ تُحِبَّ تَائِبَهُمْ» وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، في معنى قوله تعالى (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ[١]) قال يدعو صالحهم لطالحهم ، وطالحهم لصالحهم فإذا نظر الصالح إلى الصالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال : اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبته عليه وانفعنا به وإذا نظر الصالح الى الطالح قال : اللهم اهده وتب عليه ، واغفر له عثرته

ومنها أن يحب للمؤمنين مايحب لنفسه ، ويكره لهم مايكره لنفسه . قال النعمان ابن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] يقول « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى سَائِرُهُ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ » وروى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم[٣] أنه قال «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً»

ومنها أن لا يؤذي أحدا من المسلمين بفعل ولا قول . قال صلى الله عليه وسلم[٤] «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم في حديث طويل يأمر فيه بالفضائل[٥] « فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَدَعِ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقْتَ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ» وقال أيضا[٦] « أَفْضَلُ الْمُسْلِمِينَ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث أنس أربع من حقوق المسلمين عليك أن تعين محسنهم وان تستغفر لمذنبهم وان تدعو لمدبرهم وأن تحب تائبهم: ذكره صاحب الفردوس ولم أجد له اسنادا

(٢) حديث النعمان بن بشير مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد ـ الحديث : متفق عليه

(٣) حديث أبي موسى المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا: متفق عليه

(٤) حديث المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده: متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو

(٥) حديث فان لم تقدر فدع الناس من الشر فانها صدقة تصدقت بها على نفسك: متفق عليه من حديث أبي ذر

(٦) حديث أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده: متفق عليه من حديث أبي موسى

---

(١) الفتح : ٢٩

[١] « أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُسْلِمُ ؟ » فقالوا الله ورسوله أعلم قال « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » قالوا فمن المؤمن ؟ قال « مَنْ أَمِنَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ » قالوا فمن المهاجر ؟ قال « مَنْ هَجَرَ السُّوءَ وَاجْتَنَبَهُ » وقال رجل يارسول الله ماالإسلام ؟ قال « أَنْ يَسْلَمَ قَلْبُكَ لِلَّهِ وَيَسْلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ » وقال مجاهد: يسلط على أهل النار الجرب ، فيحتكون حتى يبدو عظم أحدهم من جلده . فينادى يافلان هل يؤذيك هذا ؟ فيقول نعم . فيقول هذا بما كنت تؤذى المؤمنين . وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا عَنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي الْمُسْلِمِينَ » وقال أبو هريرة رضي الله عنه يارسول الله [٣] علمني شيئا أنتفع به . قال « اعْزِلِ الْأَذَى عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « مَنْ زَحْزَحَ عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً يُؤْذِيهِمْ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهِ حَسَنَةً وَمَنْ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ حَسَنَةً أَوْجَبَ لَهُ بِهَا الْجَنَّةَ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُشِيرَ إِلَى أَخِيهِ بِنَظْرَةٍ تُؤْذِيهِ » وقال « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِماً » وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « إِنَّ اللَّهَ يَكْرَهُ أَذَى الْمُؤْمِنِينَ » وقال الربيع بن خثيم : الناس رجلان ، مؤمن فلا تؤذه ، وجاهل فلا تجاهله

---

(١) حديث أتدرون من المسلم قالوا الله ورسوله أعلم قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده: الطبراني والحاكم وصححه من حديث فضالة بن عبيد ألا أخبركم بالمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب ورواه ابن ماجة مقتصرا على المؤمن والمهاجر وللحاكم من حديث أنس وقال على شرط مسلم والمهاجر من هجر السوء ولأحمد باسناد صحيح من حديث عمرو بن عبسة قال رجل يارسول الله ما الاسلام قال أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك

(٢) حديث لقد رأيت رجلا فى الجنة يتقلب فى شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين: مسلم من حديث أبى هريرة

(٣) حديث أبى هريرة يارسول الله علمنى شيئا أنتفع به قال اعزل الأذى عن طريق المسلمين: مسلم من حديث أبى برزة قال قلت يانبي الله فذكره

(٤) حديث من زحزح عن طريق المسلمين شيئا يؤذيهم كتب الله له بها حسنة ومن كتب له بها حسنة أوجب له بها الجنة: أحمد من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف

(٥) حديث لا يحل لمسلم ان ينظر الى أخيه بنظر يؤذيه: ابن المبارك فى الزهد من رواية حمزة بن عبيد مرسلا بسند ضعيف وفى البر والصلة له من زيادات الحسين المروزى حمزة بن عبد الله بن أبى سمى وهو الصواب

(٦) حديث ان الله تعالى يكره أذى المؤمنين: ابن المبارك فى الزهد من رواية عكرمة بن خالد مرسلا باسناد جيد

ومنها أن يتواضع لكل مسلم ، ولا يتكبر عليه . فإن الله لايحب كل مختال فخور قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ » ثم إن تفاخر عليه غيره فليحتمل . قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ [١]) وعن ابن أبى أوفى ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] يتواضع لكل مسلم ، ولا يأنف ولا يتكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته .

ومنها أن لايسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا يبلغ بعضهم مايسمع من بعض قال صلى الله عليه وسلم [٣] « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ » وقال الخليل بن أحمد : من نم لك نم عليك ، ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غيرك بخبرك

ومنها أن لايزيد فى الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه . قال أبو أيوب الأنصارى ، قال صلى الله عليه وسلم [٤] « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ » وقد قال صلى الله عليه وسلم [٥] « مَنْ أَقَالَ مُسْلِماً عَثْرَتَهُ أَقَالَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » قال عكرمة : قال الله تعالى ليوسف ابن يعقوب : بعفوك عن إخوتك رفعت ذكرك فى الدارين . قالت عائشة رضي الله عنها: ماانتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم [٦] لنفسه قط ، إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم لله . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ماعفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله عزا

(١) حديث ان الله أوحى الي ان تواضعوا حتى لايفخر أحد على أحد: أبو داود وابن ماجه واللفظ له من حديث عياض بن حماز ورجاله رجال الصحيح

(٢) حديث ابن أبى أوفى كان لايأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الارملة والمسكين فيقضى حاجته: النسائى باسناد صحيح والحاكم وقال على شرط الشيخين

(٣) حديث لايدخل الجنة قتات: متفق عليه من حديث حذيفة

(٤) حديث أبى أيوب لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ــ الحديث : متفق عليه

(٥) حديث من أقال مسلما عثرته أقاله الله يوم القيامة : أبوداود والحاكم وقد تقدم

(٦) حديث عائشة ماانتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط الا ان تصاب حرمة الله فينتقم لله: متفق عليه بلفظ الا أن تنتهك

(١) الاعراف : ١٩٩

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ وَمَا زَادَ اللّٰهُ رَجُلاً بِعَفْوٍ إِلَّا عِزّاً وَمَا مِنْ أَحَدٍ تَوَاضَعَ لِلّٰهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللّٰهُ »

ومنها أن يحسن إلى كل من قدر عليه منهم مااستطاع ، لايميز بين الأهل وغير الأهل روى علي بن الحسين ، عن أبيه عن جده رضي الله عنهم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « اصْنَعِ الْمَعْرُوفَ فِي أَهْلِهِ وَفِي غَيْرِ أَهْلِهِ فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ فَهُوَ أَهْلُهُ وَإِنْ لَمْ تُصِبْ أَهْلَهُ فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِهِ » وعنه باسناده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « رَأْسُ الْعَقْلِ بَعْدَ الدِّينِ التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ وَاصْطِنَاعُ الْمَعْرُوفِ إِلَى كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ » قال أبو هريرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] لايأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسله . ولم تكن ترى ركبته عن ركبة جليسه . ولم يكن أحد يكلمه إلا أقبل عليه بوجهه ، ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه .

ومنها أن لايدخل على أحد منهم إلا بإذنه ، بل يستأذن ثلاثا ، فإن لم يؤذن له انصرف قال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] « الْإِسْتِئْذَانُ ثَلَاثٌ فَالْأُولَى يَسْتَنْصِتُونَ وَالثَّانِيَةُ يَسْتَصْلِحُونَ وَالثَّالِثَةُ يَأْذَنُونَ أَوْ يَرُدُّونَ »

---

(١) حديث مانقص مال من صدقة وما زاد الله رجلا بعفو الاعزا وما تواضع أحد لله الا رفعه الله: مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جده اصنع المعروف الى أهله فان لم تصب أهله فأنت أهله: ذكره الدارقطني في العلل وهو ضعيف ورواه القضاعي في مسند الشهاب من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلا بسند ضعيف

(٣) حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جده رأس العقل بعد الايمان التودد الى الناس واصطناع المعروف الى كل بر وفاجر: الطبراني في الاوسط والخطابي في تاريخ الطالبيين وعنه أبو نعيم في الحلية دون قوله واصطناع الى آخره وقال الطبراني التحبب

(٤) حديث أبي هريرة كان لايأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسلها ـ الحديث: الطبراني في الاوسط باسناد حسن ولابي داود والترمذي وابن ماجه نحوه من حديث أنس بسند ضعيف

(٥) حديث أبي هريرة الاستئذان ثلاث فالأولى يستنصتون والثانية يستصلحون والثالثة يأذنون أو يردون الدار قطني في الافراد بسند ضعيف وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الاستئذان ثلاث فان أذن لك والا فارجع

ومنها: أن يخالق الجميع بخلق حسن ، ويعاملهم بحسب طريقته . فإنه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم ، والأمي بالفقه ، والعيي بالبيان ، آذى وتأذى .

ومنها: أن يوقر المشايخ ، ويرحم الصبيان . قال جابر رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا وَلَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ » ومن تمام توقير المشايخ أن لا يتكلم بين أيديهم إلا بالإذن . وقال جابر (٣) قدم وفد جهينة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام غلام ليتكلم ، فقال صلى الله عليه وسلم « مَهْ فَأَيْنَ الْكَبِيرُ ؟ » وفي الخبر (٤) « مَا وَقَّرَ شَابٌّ شَيْخًا إِلَّا قَيَّضَ اللهُ لَهُ فِي سِنِّهِ مَنْ يُوَقِّرُهُ » وهذه بشارة بدوام الحياة ، فليتنبه لها ، فلا يوفق لتوقير المشايخ إلا من قضى الله له بطول العمر . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ الْوَلَدُ غَيْظًا ، وَالْمَطَرُ قَيْظًا ، وَتَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضًا ، وَتَغِيضُ الْكِرَامُ غَيْضًا ، وَيَجْتَرِئُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ ، وَاللَّئِيمُ عَلَى الْكَرِيمِ » (٦) والتلطف بالصبيان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان صلى الله عليه وسلم (٧) يقدم من السفر ، فيتلقاه الصبيان ، فيقف عليهم

---

(١) حديث جابر ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا: الطبراني في الاوسط بسند ضعيف وهو عند أبي داود والبخاري في الادب من حديث عبد الله بن عمرو بسند حسن

(٢) حديث من اجلال الله اكرام ذي الشيبة المسلم: أبو داود من حديث أبي موسى الأشعري بإسناد حسن

(٣) حديث جابر قدم وفد جهينة على النبي صلى الله عليه وسلم فقام غلام ليتكلم فقال صلى الله عليه وسلم مه فأين الكبير: الحاكم وصححه

(٤) حديث ماوقر شاب شيخا لسنه الا قيض الله له في سنه من يوقره: الترمذي من حديث أنس بلفظ ماأكرم ومن يكرمه وقال حديث غريب وفي بعض النسخ حسن وفيه أبو الرحال وهو ضعيف

(٥) حديث لا تقوم الساعة حتى يكون الولد غيظا والمطر قيظا ـ الحديث: الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن مسعود واسنادهما ضعيف

(٦) حديث التلطف بالصبيان: البزار من حديث أنس كان من أفكه الناس مع صبي وقد تقدم في النكاح وفي الصحيحين يا أبا عمير مافعل النغير وغير ذلك

(٧) حديث كان يقدم من السفر فتتلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون اليه ـ الحديث: مسلم من حديث عبد الله بن جعفر كان اذا قدم من سفر تلقي بنا قال فيلقي بي وبالحسن وقال فحمل أحدنا بين يديه والآخر خلفه وفي رواية تلقى بصبيان أهل بيته وانه قدم من سفر فسبق بي اليه فحملني بين يديه ثم جيء بأحد ابني فاطمة فأردفه خلفه وفي الصحيحين أن عبد الله بن جعفر قال لابن الزبير أتذكر اذ تلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأنت وابن عباس قال نعم فحملنا وتركك لفظ مسلم وقال البخاري ان ابن الزبير قال لابن جعفر فالله أعلم

ثم يأمر بهم فيرفعون إليه، فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه، ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم فربما تفاخر الصبيان بعد ذلك، فيقول بعضهم لبعض: حملني رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه، وحملك أنت وراءه. ويقول بعضهم: أمر أصحابه أن يحملوك وراءهم. وكان (١) يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة، وليسميه، فيأخذه فيضعه في حجره، فربما بال الصبي، فيصيح به بعض من يراه، فيقول « لَا تُزْرِمُوا الصَّبِيَّ بَوْلَهُ » فيدعه حتى يقضي بوله، ثم يفرغ من دعائه له وتسميته. ويبلغ سرور أهله فيه، لئلا يروا أنه تأذى ببوله. فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعده

ومنها: أن يكون مع كافة الخلق مستبشرا طلق الوجه رفيقا. قال صلى الله عليه وسلم (٢) « أَتَدْرُونَ عَلَى مَنْ حُرِّمَتِ النَّارُ ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم. قال « عَلَى اللَّيِّنِ الْهَيِّنِ السَّهْلِ الْقَرِيبِ » وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ السَّهْلَ الطَّلْقَ الْوَجْهِ » وقال بعضهم يا رسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة. فقال (٤) « إِنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ الْمَغْفِرَةِ بَذْلَ السَّلَامِ وَحُسْنَ الْكَلَامِ » وقال عبد الله بن عمر

---

(١) حديث كان يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة وبسميه فيأخذه ويضعه في حجره فربما بال الصبي فيصيح به بعض من رآه ـ الحديث: مسلم من حديث عائشة كان يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويحنكهم فأتى بصبي فبال عليه فدعا بماء فأتبعه بوله ولم يغسله وأصله متفق عليه وفي رواية لأحمد فيدعو لهم وفيه صبوا عليه الماء صبا وللدار قطني بال ابن الزبير على النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ به أخذا عنيفا ـ الحديث: وفيه الحجاج ابن ارطأة ضعيف ولأحمد ابن منيع من حديث حسن بن علي عن امرأة منهم بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستلقيا على ظهره يلاعب صبيا إذ بال فقامت لتأخذه وتضربه فقال دعيه ائتوني بكوز من ماء ـ الحديث: واسناده صحيح

(٢) حديث أتدرون على من حرمت النار قالوا الله ورسوله أعلم قال الهين اللين السهل القريب: الترمذي من حديث ابن مسعود ولم يقل اللين وذكرها الخرائطي من رواية محمد بن أبي معيقب عن أمه قال الترمذي حسن غريب

(٣) حديث أبي هريرة ان الله يحب السهل الطلق: البيهقي في شعب الايمان بسند ضعيف ورواه من رواية مورق العجلي مرسلا

(٤) حديث ان من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام: ابن أبي شيبة في مصنفه والطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ والبيهقي في شعب الايمان من حديث هانئ بن يزيد باسناد جيد

إن البر شيء هين ، وجه طليق وكلام لين . وقال صلى الله عليه وسلم [١] « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا » فقال أعرابي لمن هي يارسول الله ؟ قال « لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ » وقال معاذ بن جبل قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ وَصِدْقِ الْحَدِيثِ وَوَفَاءِ الْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَتَرْكِ الْخِيَانَةِ وَحِفْظِ الْجَارِ وَرَحْمَةِ الْيَتِيمِ وَلِينِ الْكَلَامِ وَبَذْلِ السَّلَامِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ » وقال أنس رضي الله عنه : عرضت لنبي الله صلى الله عليه وسلم [٤] امرأة وقالت لي معك حاجة ، وكان معه ناس من أصحابه . فقال « اجْلِسِي فِي أَيِّ نَوَاحِي السِّكَكِ شِئْتِ أَجْلِسْ إِلَيْكِ » ففعلت فجلس إليها حتى قضت حاجتها . وقال وهب بن منبه إن رجلا من بني إسرائيل صام سبعين سنة ، يفطر في كل سبعة أيام ، فسأل الله تعالى أنه يريه كيف يغوى الشيطان الناس . فلما طال عليه ذلك ولم يجب ، قال : لو اطلعت على خطيئتي وذنبي بيني وبين ربي لكان خيرا لي من هذا الأمر الذي طلبته . فأرسل الله إليه ملكا فقال له : إن الله أرسلني إليك ، وهو يقول لك إن كلامك هذا الذي تكلمت به ، أحب إلي مما مضى من عبادتك . وقد فتح الله بصرك فانظر . فنظر فإذا جنود إبليس قد أحاطت بالأرض ، وإذا ليس أحد من الناس إلا والشياطين حوله كالذئاب . فقال أي رب من ينجو من هذا ؟ قال الورع اللين

ومنها : أن لا يعد مسلما بوعد إلا ويفي به . قال صلى الله عليه وسلم « الْعِدَةُ عَطِيَّةٌ » [٥]

---

(١) حديث اتقوا النار ولو بشق تمرة ـ الحديث : متفق عليه من حديث عدي بن حاتم وتقدم في الزكاة

(٢) حديث ان في الجنة غرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ـ الحديث : الترمذي من حديث علي وقال حديث غريب * قلت وهو ضعيف

(٣) حديث معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث : الخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في كتاب الزهد وأبو نعيم في الحلية ولم يقل البيهقي وخفض الجناح واسناده ضعيف

(٤) حديث أنس عرضت لرسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وقالت لي معك حاجة فقال اجلسي في أي نواحي السكك شئت أجلس اليك ـ الحديث : رواه مسلم

(٥) حديث العدة عطية : الطبراني في الاوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف

وقال « الْعِدَةُ دَيْنٌ »[١] وقال[٢] « ثَلَاثٌ فِي الْمُنَافِقِ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ » وقال[٣] « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى » وذكر ذلك

ومنها: أن ينصف الناس من نفسه ، ولا يأتى إليهم إلا بما يحب أن يؤتى إليه . قال صلى الله عليه وسلم[٤] « لَا يَسْتَكْمِلُ الْعَبْدُ الْإِيمَانَ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ الْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ ، وَالْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَبَذْلُ السَّلَامِ » وقال عليه السلام[٥] « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ وَلْيُؤْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ » وقال صلى الله عليه وسلم[٦] « يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ أَحْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُؤْمِناً، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِماً » قال الحسن : أوحى الله تعالى إلى آدم صلى الله عليه وسلم بأربع خصال، وقال فيهن جماع الأمر لك ولولدك . واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة بينى وبينك ، وواحدة بينك وبين الخلق . فأما التى لى ، تعبدنى ولا تشرك بى شيئا . وأما التى لك ، فعملك أجزيك به أفقر ما تكون إليه . وأما التى بينى وبينك ، فعليك الدعاء وعلىّ الإجابة . وأما التى بينك وبين الناس ، فتصحبهم بالذى تحب أن يصحبوك به . وسأل موسى عليه السلام الله تعالى فقال : أى ربّ . أىّ عبادك أعدل ؟ قال من أنصف من نفسه .

---

(١) حديث العدة دين: الطبرانى فى معجميه الأوسط والأصغر من حديث على وابن مسعود بسند فيه جهالة ورواه أبو داود فى المراسيل

(٢) حديث ثلاث فى المنافق إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان : متفق عليه من حديث أبى هريرة نحوه

(٣) حديث ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى : البخارى من حديث أبى هريرة وأصله متفق عليه ولفظ مسلم وان صام وصلى وزعم انه مسلم وهذا ليس فى البخارى

(٤) حديث لا يستكمل العبد الايمان حتى يكون فيه ثلاث خصال الانفاق من الاقتار والانصاف من نفسه وبذل السلام: الخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث عمار بن ياسر ووقفه البخارى عليه

(٥) حديث من سره أن يزحزح عن النار فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وليأت الى الناس ما يحب أن يؤتى اليه : مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص نحوه والخرائطى فى مكارم الأخلاق بلفظه

(٦) حديث يا أبا الدرداء أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمنا وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف والمعروف انه قاله لأبى هريرة وقد تقدم

ومنها أن يزيد فى توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته ، فينزل الناس منازلهم روي أن عائشة رضي الله عنها كانت فى سفر ، فنزلت منزلا ، فوضعت طعامها ، فجاء سائل فقالت عائشة . ناولوا هذا المسكين قرصا ، ثم مر رجل على دابة ، فقالت أدعوه إلى الطعام فقيل لها : تعطين المسكين وتدعين هذا الغني ! فقالت : إن الله تعالى أنزل الناس منازل لابد لنا من أن ننزلهم تلك المنازل . هذا المسكين يرضى بقرص ، وقبيح بنا أن نعطي هذا الغني على هذه الهيئة قرصا . وروي أنه صلى الله عليه وسلم دخل بعض بيوته ، فدخل عليه أصحابه حتى غص المجلس وامتلأ فجاء جرير بن عبد الله البجلي ، فلم يجد مكانا ، فقعد على الباب . فلف رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه ، فألقاه إليه ، وقال له «اجْلِسْ عَلَى هَذَا» فأخذه جرير ووضعه على وجهه ، وجعل يقبله ويبكى ، ثم لفه ورمى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ما كنت لأجلس على ثوبك ، أكرمك الله كما أكرمتنى . فنظر النبي صلى الله عليه وسلم يمينا وشمالا ثم قال[1] « إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ » وكذلك كل من له عليه حق قديم فليكرمه . روي أن ظئر رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] التى أرضعته جاءت إليه . فبسط لها رداءه ، ثم قال لها « مَرْحَباً بِأُمِّى » ثم أجلسها على الرداء ثم قال لها « إِشْفَعِى تُشَفَّعِى وَسَلِى تُعْطَىْ » فقالت قَوْمِى . فقال « أَمَّا حَقِّى وَحَقُّ بَنِى هَاشِمٍ فَهُوَ لَكِ » فقام الناس من كل ناحية وقالوا : وحقنا يارسول الله ثم وصلها بعد ، وأخدمها ووهب لها سهمانه بحنين ، فبيع ذلك من عثمان بن عفان رضي الله عنه بمائة ألف درهم[3] ولربما آتاه من يأتيه وهو على وسادة جالس ، ولا يكون فيها سعة يجلس معه ، فينزعها ويضعها تحت الذى يجلس إليه . فإن أبى عزم عليه حتى يفعل

(١) حديث إذا اتاكم كريم قوم فأكرموه وفى أوله قصة فى قدوم جرير بن عبد الله : الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد وتقدم فى الزكاة مختصرا

(٢) حديث ان ظئر رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أرضعته جاءت اليه فبسط لها رداءه ــ الحديث : ابو داود والحاكم وصححه من حديث أبى الطفيل مختصرا فى بسط ردائه لها دون ما بعده

(٣) حديث نزعه صلى الله عليه وسلم وسادته ووضعها تحت الذى يجلس اليه : احمد من حديث ابن عمرو أنه دخل عليه صلى الله عليه وسلم فألقى اليه وسادة من أدم حشوها ليف ــ الحديث : واسناده صحيح وللطبرانى من حديث سلمان دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متكىء على وسادة فألقاها الي ــ الحديث وسنده ضعيف قال صاحب الميزان هذا خبر ساقط

ومنها:أن يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد إليه سبيلا . قال صلى الله عليه وسلم [١] « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ ؟ » قالوا بلى قال « إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ » وعن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه أنس رضي الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه . فقال عمر رضي الله عنه ، يارسول الله ، بأبي أنت وأمي ما الذى أضحكك ؟ قال « رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي جَثَيَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعِزَّةِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا يَارَبِّ خُذْ لِي مَظْلَمَتِي مِنْ هَذَا فَقَالَ اللهُ تَعَالَى رُدَّ عَلَى أَخِيكَ مَظْلَمَتَهُ فَقَالَ يَارَبِّ لَمْ يَبْقَ لِي مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِلطَّالِبِ كَيْفَ تَصْنَعُ بِأَخِيكَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ ؟ فَقَالَ يَارَبِّ فَلْيَحْمِلْ عَنِّي مِنْ أَوْزَارِي » ثم فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء فقال « إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيمٌ يَوْمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ قَالَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَيْ لِلْمُتَظَلِّمِ ارْفَعْ بَصَرَكَ فَانْظُرْ فِي الْجِنَانِ فَقَالَ يَارَبِّ أَرَى مَدَائِنَ مِنْ فِضَّةٍ وَقُصُوراً مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ لِأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا أَوْ لِأَيِّ صِدِّيقٍ أَوْ لِأَيِّ شَهِيدٍ ؟ قَالَ اللهُ تَعَالَى هَذَا لِمَنْ أَعْطَى الثَّمَنَ قَالَ يَارَبِّ وَمَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ ؟ قَالَ أَنْتَ تَمْلِكُهُ قَالَ بِمَاذَا يَارَبِّ ؟ قَالَ بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ قَالَ يَارَبِّ قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ » ثم قال صلى الله عليه وسلم « اتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُصْلِحُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

---

(١) حديث ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا بلى قال إصلاح ذات البين وفساد ذات البين الحالقة: أبو داود والترمذى وصححه من حديث أبى الدرداء

(٢) حديث أفضل الصدقة إصلاح ذات البين: الطبرانى فى الكبير والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه عبد الرحمن بن زياد الافريقى ضعفه الجمهور

(٣) حديث أنس بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس اذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر يارسول الله بأبى وأمى ما الذى أضحكك قال رجلان من أمتى جثيا بين يدى الله عز وجل فقال أحدهما يارب خذلى مظلمتى من هذا الحديث: الخرائطى فى مكارم الأخلاق والحاكم وقال صحيح الأسناد وكذا أبو يعلى الموصلى خرجه بطول وضعفه البخاري وابن حبان

وقد قال صلى الله عليه وسلم[١] « لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْراً » وهذا يدل على وجوب الإصلاح بين الناس ، لأن ترك الكذب واجب ، ولا يسقط الواجب إلا بواجب آكد منه . قال صلى الله عليه وسلم[٢] « كُلُّ الْكَذِبِ مَكْتُوبٌ إِلَّا أَنْ يَكْذِبَ الرَّجُلُ فِي الْحَرْبِ فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ أَوْ يَكْذِبَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا أَوْ يَكْذِبَ لِامْرَأَتِهِ لِيُرْضِيَهَا »

ومنها : أن تستر عورات المسلمين كلهم . قال صلى الله عليه وسلم[٣] « مَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » وقال[٤] « لَا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْداً إِلَّا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال أبو السعيد الخدري رضي الله عنه ، قال صلى الله عليه وسلم[٥] « لَا يَرَى الْمُؤْمِنُ مِنْ أَخِيهِ عَوْرَةً فَيَسْتُرُهَا عَلَيْهِ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ » وقال صلى الله عليه وسلم[٦] لما عز لما أخبره « لَوْ سَتَرْتَهُ بِثَوْبِكَ كَانَ خَيْراً لَكَ » فإذاً على المسلم أن يستر عورة نفسه فحق اسلامه واجب عليه كحق اسلام غيره . قال أبو بكر رضي الله عنه : لو وجدت شاربا لأحببت أن يستره الله ، ولو وجدت سارقا لأحببت أن يستره الله . وروي أن عمر رضي الله عنه كان يعس بالمدينة ذات ليلة . فرأى رجلا وامرأة على فاحشة . فلما أصبح قال للناس : رأيتم لو أن إماما رأى رجلا وامرأة على فاحشة فأقام عليهما الحد ، ما كنتم فاعلين ؟ قالوا إنما أنت إمام . فقال علي رضي الله عنه : ليس ذلك لك إذاً يقام عليك الحد .

---

(١) حديث ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نمى خيرا : متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط

(٢) حديث كل الكذب مكتوب الا أن يكذب الرجل فى الحرب ـ الحديث : الخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث النواس بن سمعان وفيه انقطاع وضعف ولمسلم نحوه من حديث أم كلثوم بنت عقبة

(٣) حديث من ستر على مسلم ستره الله فى الدنيا والآخرة : مسلم من حديث أبي هريرة وللشيخين من حديث ابن عمر من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة.

(٤) حديث لا يستر عبد عبدا الا ستره الله يوم القيامة : مسلم من حديث أبي هريرة أيضا

(٥) حديث أبي سعيد الخدرى لا يرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة : الطبرانى فى الاوسط والصغير والخرائطى فى مكارم الاخلاق واللفظ له بسند ضعيف

(٦) حديث لو سترته بثوبك كان خيرا لك : أبوداود والنسائى من حديث نعيم بن هزال والحاكم من حديث هزال نفسه وقال صحيح الاسناد ونعيم مختلف فى صحبته

إن الله لم يأمن على هـــذا الأمر أقل من أربعة شهود . ثم تركهم ماشاء الله أن يتركهم ثم سألهم ،فقال القوم مثل مقالتهم الأولى،فقال علي رضي الله عنه مثل مقالته الأولى .وهذا يشير إلى أن عمر رضي الله عنه ، كان مترددا فى أن الوالى هل له أن يقضي بعلمه فى حدود الله، فلذلك راجعهم فى معرض التقدير لا فى معرض الإخبار ، خيفة من أن لا يكون له ذلك ، فيكون قاذفا بإخباره . ومال رأي علي إلى أنه ليس له ذلك

وهذا من أعظم الأدلة على طلب الشرع لستر الفواحش ، فإن أفحشها الزنا ، وقد نيط بأربعة من العدول،يشاهدون ذلك منه فى ذلك منها كالمرود فى المكحلة،وهذا قطلا يتفق وإن علمه القاضى تحقيقا لم يكن له أن يكشف عنه.فانظر إلى الحكمة فى حسم باب الفاحشة بإيجاب الرجم الذى هو أعظم العقوبات ،ثم انظر إلى كثيف ستر الله كيف أسبله على العصاة من خلقه ، بتضييق الطريق فى كشفه . فنرجوا أن لانحرم هذا الكرم يوم تبلى السرائر ففى الحديث[1] «إِنَّ اللهَ إِذَا سَتَرَ عَلَى عَبْدٍ عَوْرَتَهُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَكْشِفَهَا فِي الْآخِرَةِ وَإِنْ كَشَفَهَا فِي الدُّنْيَا فَهُوَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَكْشِفَهَا مَرَّةً أُخْرَى»وعن عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه قال : خرجت مع عمر رضي الله عنه ليلة فى المدينة ، فبينما نحن نمشى إذ ظهر لنا سراج . فانطلقنا نؤمه . فلما دنونا منه ، إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولغط . فأخذ عمر بيدى ، وقال أتدرى بيت من هذا ؟ قلت لا فقال . هذا بيت ربيعة ابن أمية بن خلف ، وهم الآن شرب فما ترى؟ قلت أرى أنا قد أتينا مانهانا الله عنه،قال الله تعالى (وَلَا تَجَسَّسُوا[1])فرجع عمر رضي الله عنه وتركهم.وهذا يدل على وجوب الستر وترك التتبع وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاوية[2]«إِنَّكَ إِنْ تَتَبَّعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ أَوْ كِدْتَ تُفْسِدُهُمْ»

---

(١) حديث ان الله اذا ستر على عبده عورة فى الدنيا فهو أكرم من أن يكشفه فى الآخرة: الحديث الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث على من أذنب ذنبا فى الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه فالله أكرم من أن يرجع فى شىء قد عفا عنه ومن أذنب ذنبا فى الدنيا فعوقب عليه فالله أعدل من أن يثنى العقوبة على عبده لفظ الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين و لمسلم من حديث أبى هريرة لاستر الله على عبد فى الدنيا الا ستره يوم القيامة

(٢) حديث انك ان اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم : قاله لمعاوية أبو داود باسناد صحيح من حديث معاوية

---

(١) الحجرات : ١٢.

وقال صلى الله عليه وسلم [١] «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ كَانَ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لو رأيت أحدا على حد من حدود الله تعالى ما آخذته ولا دعوت له أحدا حتى يكون معي غيري. وقال بعضهم: كنت قاعدا مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، إذ جاءه رجل بآخر، فقال: هذا نشوان. فقال عبد الله بن مسعود: استنكهوه فاستنكهوه فوجده نشوانا، فحبسه حتى ذهب سكره، ثم دعا بسوط فكسر ثمره، ثم قال للجلاد إجلد وارفع يدك، وأعط كل عضو حقه. فجلده وعليه قباء أو مرط. فلما فرغ قال للذي جاء به، ما أنت منه؟ قال عمه. قال عبد الله، ما أدبت فأحسنت الأدب، ولا سترت الحرمة إنه ينبغي للإمام إذا انتهى إليه حد أن يقيمه، وإن الله عفو يحب العفو. ثم قرأ [١] (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا) ثم قال. إني لأذكر أول رجل قطعه النبي صلى الله عليه وسلم [٢] أتى بسارق فقطعه، فكأنما أسف وجهه، فقالوا يارسول الله كأنك كرهت قطعه! فقال «وَمَا يَمْنَعُنِي؟ لَا تَكُونُوا عَوْنًا لِلشَّيَاطِينِ عَلَى أَخِيكُمْ» فقالوا ألا عفوت عنه؟ فقال «إِنَّهُ يَنْبَغِي لِلسُّلْطَانِ إِذَا انْتَهَى إِلَيْهِ حَدٌّ أَنْ يُقِيمَهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ يُحِبُّ الْعَفْوَ» وقرأ ([٢] وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وفي رواية، فكأنما سفي في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رماد لشدة تغيره

وروي أن عمر رضي الله عنه كان يعس بالمدينة من الليل، فسمع صوت رجل في بيت يتغنى. فتسور عليه، فوجد عنده امرأة وعنده خمر. فقال ياعدو الله، أظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته؟ فقال وأنت ياأمير المؤمنين فلا تعجل، فإن كنت قد عصيت الله واحدة

---

(١) حديث يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه لاتغتابوا المسلمين ولاتتبعوا عوراتهم ـ الحديث: أبو داود من حديث أبي برزة باسناد جيد وللترمذي نحوه من حديث ابن عمر وحسنه

(٢) حديث ابن مسعود انى لأذكر أول رجل قطعه النبي صلى الله عليه وسلم أتى بسارق فقطعه فكأنما أسف وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث: رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد وللخرائطي في مكارم الأخلاق فكأنما سفي في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رماد ـ الحديث

(١و٢) النور: ٢٢

فقد عصيت الله في ثلاثا . قال الله تعالى (وَلَا تَجَسَّسُوا [١]) وقد تجسست . وقال الله تعالى (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا [٢]) وقد تسورت علي ؛ وقد قال الله تعالى (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ [٣]) الآية وقد دخلت بيتي بغير إذن ولا سلام . فقال عمر رضي الله عنه . هل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال نعم والله يا أمير المؤمنين لئن عفوت عني لا أعود إلى مثلها أبدا . فعفا عنه وخرج وتركه . وقال رجل لعبد الله بن عمر يا أبا عبد الرحمن ، كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى يوم القيامة قال سمعته يقول [١] « إِنَّ اللهَ لَيُدْنِي مِنْهُ الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ فَيَقُولُ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ يَا رَبِّ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ فَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ لَهُ يَا عَبْدِي إِنِّي لَمْ أَسْتُرْهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْفِرَهَا لَكَ الْيَوْمَ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » وقد قال صلى الله عليه وسلم [٢] « كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ السُّوءَ سِرًّا ثُمَّ يُخْبِرَ بِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَنِ اسْتَمَعَ خَبَرَ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ صُبَّ فِي أُذُنِهِ الْآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

ومنها : أن يتقي مواضع التهم ، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ، ولألسنتهم عن الغيبة . فإنهم إذا عصوا الله بذكره وكان هو السبب فيه ، كان شريكا . قال الله تعالى (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ [٤]) وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « كَيْفَ تَرَوْنَ مَنْ يَسُبُّ أَبَوَيْهِ ؟ فقالوا وهل من أحد يسب أبويه ؟ فقال

---

(١) حديث ابن عمر إن الله عز وجل ليدني المؤمن فيضع عليه كنفه وستره من الناس فيقول أتعرف ذنب كذا ـ الحديث : متفق عليه

(٢) حديث كل أمتي معافى إلا المجاهرين ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث من استمع من قوم هم له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة : البخاري من حديث ابن عباس مرفوعا وموقوفا عليه وعلى أبي هريرة أيضا

(٤) حديث كيف ترون من سب أبويه فقالوا وهل من أحد يسب أبويه ـ الحديث : متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو ونحوه

---

(١) الحجرات : ١٢ (٢) البقرة : ١٨٩ (٣) النور : ٢٧ (٤) الانعام : ١٠٨

نعمْ يَسُبُّ أبَوَيْ غَيْرِهِ فيَسُبُّونَ أبَوَيْهِ » وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ، كلم إحدى نسائه . فمر به رجل فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « يَا فُلَانُ هَذِهِ زَوْجَتِي صَفِيَّةُ » فقال يارسول الله ، من كنت أظن فيه فإني لم أكن أظن فيك ، فقال « إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ » وزاد فى رواية (٢) إِنِّي خَشِيتُ أنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا » وكانا رجلين ، فقال « عَلَى رِسْلِكُمَا إنَّهَا صَفِيَّةُ » الحديث ، وكانت قد زارته فى العشر الأواخر من رمضان . وقال عمر رضي الله عنه من أقام نفسه مقام التهم فلايلو من من أساء به الظن . ومر برجل يكلم امرأة على ظهر الطريق ، فعلاه بالدرة ، فقال ياأمير المؤمنين إنها امرأتي . فقال هلاّ حيث لا يراك أحد من الناس

ومنها : أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين ، إلى من له عنده منزلة ، ويسعى فى قضاء حاجته بما يقدر عليه . قال صلى الله عليه وسلم (٣) « إِنِّي أُوتَى وَأُسْأَلُ وَتُطْلَبُ إِلَيَّ الْحَاجَةُ وَأَنْتُمْ عِنْدِي فَاشْفَعُوا لِتُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللهُ عَلَى يَدَيْ نَبِيِّهِ مَا أَحَبَّ » ، وقال معاوية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) « اشْفَعُوا إِلَيَّ تُؤْجَرُوا إِنِّي أُرِيدُ الأمْرَ وَأُؤَخِّرُهُ كَيْ تَشْفَعُوا إِلَيَّ فَتُؤْجَرُوا » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « مَا مِنْ صَدَقَةٍ أَفْضَلَ مِنْ صَدَقَةِ اللِّسَانِ » . قيل وكيف ذلك ؟ « قال الشَّفَاعَةُ يُحْقَنُ بِهَا الدَّمُ وَتُجَرُّ بِهَا الْمَنْفَعَةُ إِلَى آخَرَ وَيُدْفَعُ بِهَا الْمَكْرُوهُ عَنْ آخَرَ » وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما (٦) أن زوج بريرة كان عبدا يقال له مغيث كأني أنظر إليه خلفها وهو يبكي ودموعه تسيل على لحيته . فقال صلى الله عليه وسلم للعباس

---

(١) حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه فقال يافلان هذه زوجتي فلانة الحديث وفيه إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم : رواه مسلم

(٢) حديث إني خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرا وقال على رسلكما انها صفية : متفق عليه من حديث صفية

(٣) حديث انى أوتى وأسأل وتطلب الى الحاجة وأنتم عندى فاشفعوا لتؤجروا الحديث : متفق عليه من حديث أبي موسى نحوه

(٤) هذا الحديث ساقط عند العراقي وهو من رواية أبي داود والنسائي وابن عساكر من طريق همام ابن منبه عن معاوية كما فى الشارح اهـ مصححه

(٥) حديث مامن صدقة أفضل من صدقة اللسان الحديث الخرائطى فى مكارم الأخلاق واللفظ له والطبرانى فى الكبير من حديث سمرة بن جندب بسند ضعيف

(٦) حديث عكرمة عن ابن عباس ان زوج بريره كان عبدا يقال له مغيث كأنى أنظر اليه خلفها يبكي الحديث : رواه البخاري

ألا تعجب من شدة حب مغيث لبريرة وشدة بغضها له؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم «لَوْ رَاجَعْتِيهِ فَإِنَّهُ أَبُو وَلَدِكِ». فقالت يارسول الله أتأمرني فأفعل؟ فقال «لا إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ»

ومنها: أن يبدأ كل مسلم منهم بالسلام قبل الكلام، ويصافحه عند السلام. قال صلى الله عليه وسلم [1] «مَنْ بَدَأَ بِالْكَلَامِ قَبْلَ السَّلَامِ فَلَا تُجِيبُوهُ حَتَّى يَبْدَأَ بِالسَّلَامِ» وقال بعضهم دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] ولم أسلم، ولم أستأذن، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «ارْجِعْ فَقُلِ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَادْخُلْ» وروى جابر رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] «إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتَكُمْ فَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سَلَّمَ أَحَدُكُمْ لَمْ يَدْخُلْ بَيْتَهُ» وقال أنس رضي الله عنه، خدمت النبي صلى الله عليه وسلم [4] ثمان حجج، فقال لي «يَا أَنَسُ أَسْبِغِ الْوُضُوءَ يُزَدْ فِي عُمْرِكَ وَسَلِّمْ عَلَى مَنْ لَقِيتَهُ مِنْ أُمَّتِي تَكْثُرْ حَسَنَاتُكَ، وَإِذَا دَخَلْتَ مَنْزِلَكَ فَسَلِّمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ يَكْثُرْ خَيْرُ بَيْتِكَ» وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إِذَا الْتَقَى الْمُؤْمِنَانِ فَتَصَافَحَا قُسِمَتْ بَيْنَهُمَا سَبْعُونَ مَغْفِرَةً تِسْعٌ وَسِتُّونَ لِأَحْسَنِهِمَا بِشْرًا» وقال الله تعالى (وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا [1]) وقال عليه السلام [5] «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا

---

(١) حديث من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه الحديث: الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في اليوم والليلة واللفظ له من حديث ابن عمر بسند فيه لين

(٢) حديث دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن فقال صلى الله عليه وسلم ارجع فقل السلام عليكم أأدخل: أبو داود والترمذي وحسنه من حديث كلدة بن الحنبل وهو صاحب القصة

(٣) حديث جابر اذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها فان الشيطان اذا سلم أحدكم لم يدخل بيته: الخرائطي في مكارم الاخلاق وفيه ضعف

(٤) حديث أنس خدمت النبي صلى الله عليه وسلم ثماني حجج فقال لي يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك وسلم على من لقيته من أمتي تكثر حسناتك واذا دخلت بيتك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك: الخرائطي في مكارم الاخلاق واللفظ له والبيهقي في الشعب وإسناده ضعيف وللترمذي وصححه اذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك

(٥) حديث والذي نفسي بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ـ الحديث: مسلم من حديث أبي هريرة

---

(١) النساء: ٨٦

وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ قالوا بلى يارسول الله . قال « أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ » وقال أيضا [١] « إِذَا سَلَّمَ الْمُسْلِمُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَرَدَّ عَلَيْهِ صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ سَبْعِينَ مَرَّةً » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَعْجَبُ مِنَ الْمُسْلِمِ يَمُرُّ عَلَى الْمُسْلِمِ وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ » وقال عليه السلام [٣] « يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي وَإِذَا سَلَّمَ مِنَ الْقَوْمِ وَاحِدٌ أَجْزَأَ عَنْهُمْ » وقال قتادة : كانت تحية من كان قبلكم السجود فأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام ، وهى تحية أهل الجنة . وكان أبو مسلم الخولانى يمر على قوم فلا يسلم عليهم ، ويقول ما يمنعنى إلا أنى أخشى أن لا يردوا فتلعنهم الملائكة

والمصافحة أيضا سنة مع السلام . وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] فقال السلام عليكم فقال عليه السلام « عَشْرُ حَسَنَاتٍ » فجاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله فقال « عِشْرُونَ حَسَنَةً » فجاء آخر فقال . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فقال « ثَلَاثُونَ » وكان أنس رضي الله عنه [٥] يمر على الصبيان فيسلم عليهم ، ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فعل ذلك

وروى عبد الحميد بن بهرام أنه صلى الله عليه وسلم [٦] مر فى المسجد يوما ، وعصبة من الناس

---

(١) حديث اذا سلم المسلم على المسلم فرد عليه صلت عليه الملائكة سبعين مرة : ذكره صاحب الفردوس من حديث أبى هريرة ولم يسنده ولده فى المسند

(٢) حديث الملائكة تعجب من المسلم يمر على المسلم فلا يسلم عليه : لم أقف له على أصل

(٣) حديث يسلم الراكب على الماشى واذا سلم من القوم أحد أجزأ عنهم ومالك فى الموطأ عن زيد ابن أسلم مرسلا ولأبى داود من حديث على يجزى عن الجماعة اذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزى عن الجلوس أن يرد أحدهم وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة يسلم الراكب على الماشى الحديث وسيأتى فى بقية الباب

(٤) حديث جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال سلام عليك فقال صلى الله عليه وسلم عشر حسنات الحديث : أبو داود والترمذى من حديث عمران بن حصين قال الترمذى حسن غريب وقال البيهقى فى الشعب إسناده حسن

(٥) حديث أنس كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ورفعه متفق عليه

(٦) حديث عبد الحميد بن بهرام أنه صلى الله عليه وسلم مر فى المسجد يوما وعصبة من النساء قعود فألوى بيده بالتسليم وأشار عبد الحميد بيده الترمذى من رواية عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وقال حسن وابن ماجه من رواية ابن أبى حسين عن شهر ورواه أبو داود وقال أحمد لا بأس به

قعود فأومأ بيـــده بالسلام ، وأشار عبد الحميد بيده إلى الحكاية . فقال عليه السلام [١] « لَا تَبْدَؤُا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي الطَّرِيقِ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ » وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا تُصَافِحُوا أَهْلَ الذِّمَّةِ وَلَا تَبْدَؤُهُمْ بِالسَّلَامِ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فِي الطَّرِيقِ فَاضْطَرُّوهُمْ إِلَى أَضْيَقِ الطُّرُقِ » قالت عائشة رضي الله عنها [٢] إن رهطا من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا السام عليك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « عَلَيْكُمْ » قالت عائشة رضي الله عنها ، فقلت بل عليكم السام واللعنة . فقال عليه السلام « يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي كُلِّ شَيْءٍ » قالت عائشة ألم تسمع ماقالوا ؟ فقال « فَقَدْ قُلْتُ عَلَيْكُمْ » وقال عليه السلام [٣] « يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ وَالصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ » وقال عليه السلام [٤] « لَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَإِنَّ تَسْلِيمَ الْيَهُودِ بِالْإِشَارَةِ بِالْأَصَابِعِ وَتَسْلِيمَ النَّصَارَى بِالْإِشَارَةِ بِالْأَكُفِّ » قال أبو عيسى إسناده ضعيف . وقال عليه السلام [٥] « إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى مَجْلِسٍ فَلْيُسَلِّمْ فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يَجْلِسَ فَلْيَجْلِسْ ثُمَّ إِذَا قَامَ فَلْيُسَلِّمْ فَلَيْسَتِ الْأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الْأَخِيرَةِ » وقال أنس رضي الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٦] « إِذَا الْتَقَى الْمُؤْمِنَانِ فَتَصَافَحَا قُسِمَتْ بَيْنَهُمَا سَبْعُونَ مَغْفِرَةً تِسْعَةٌ وَسِتُّونَ

---

(١) حديث لاتبدؤا اليهود والنصارى بالسلام ـ الحديث مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث عائشة أن رهطا من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا السام عليك الحديث متفق عليه

(٣) حديث يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير : متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يقل مسلم والصغير على الكبير

(٤) حديث لاتشبهوا باليهود والنصارى فان تسليم اليهود الاشارة بالاصابع وتسليم النصارى الاشارة بالاكف الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال إسناده ضعيف

(٥) اذا انتهي أحدكم إلى مجلس فليسلم فان بدا له أن يجلس فليجلس ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الأخيرة أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة

(٦) حديث أنس إذا التقى المسلمان فتصافحا قسمت بينهما سبعون رحمة ـ الحديث : الخرائطي بسند ضعيف وللطبراني في الاوسط من حديث أبي هريرة مائة رحمة تسعة وتسعون لأبشهما وأطلقهما وأبرهما وأحسنهما مسالة لاخيه وفيه الحسن بن كثير بن يحي بن أبي كثير مجهول

لِأَحْسَنِهِمَا بِشْراً » وقال عمر رضي الله عنه ، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم [١] « إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ وَسَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ وَتَصَافَحَا نَزَلَتْ بَيْنَهُمَا مِائَةُ رَحْمَةٍ لِلْبَادِيءِ تِسْعُونَ وَلِلْمُصَافِحِ عَشْرَةٌ » وقال الحسن ، المصافحة تزيد في الود : وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « تَمَامُ تَحِيَّاتِكُمْ بَيْنَكُمُ الْمُصَافَحَةُ »

وقال عليه السلام [٣] « قُبْلَةُ الْمُسْلِمِ أَخَاهُ الْمُصَافَحَةُ » ولا بأس بقبلة يد المعظم في الدين تبركا به ، وتوقيرا له ، وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال . قبلنا يد النبي صلى الله عليه وسلم [٤] وعن كعب بن مالك قال ، لما نزلت توبتي ، أتيت النبي صلى الله عليه وسلم [٥] فقبلت يده، وروى ان أعرابيا قال يارسول الله [٦] ائذن لي فأقبل رأسك ويدك . قال فأذن له ففعل . ولقي ابو عبيدة عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنهما ، فصافحه وقبل يده، وتنحيا يبكيان. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه ، أنه سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم [٧] وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه ، فرد عليه ، ومد يده إليه فصافحه . فقال يارسول الله ما كنت أرى هذا إلا من أخلاق الأعاجم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْمُسْلِمَيْنِ

---

(١) حديث عمر بن الخطاب اذا التقى المسلمان فسلم كل واحد على صاحبه وتصافحا نزلت بينهما مائة رحمة الحديث البزار في مسنده والخرائطي في مكارم الاخلاق واللفظ له والبيهقي في الشعب وفي أسناده نظر

(٢) حديث أبي هريرة تمام تحياتكم بينكم المصافحة :الخرائطي في مكارم الاخلاق وهو عند الترمذي من حديث أبي أمامة وضعفه

(٣) حديث قبلة المسلم أخاه المصافحة الخرائطي وابن عدى من حديث أنس وقال غير محفوظ

(٤) حديث عمر قبلنا يد رسول الله صلى الله عليه وسلم :أبو داود بسند حسن

(٥) حديث كعب بن مالك لما نزلت توبتي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقبلت يده :أبو بكر بن المقرى في كتاب الرخصة في تقبيل اليد بسند ضعيف

(٦) حديث ان اعرابيا قال يارسول الله ائذن لي فأقبل رأسك ويدك فأذن له ففعل:الحاكم من حديث بريدة الا أنه قال رجليك موضع يدك وقال صحيح الاسناد

(٧) حديث البراء بن عازب أنه سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتي فرغ من وضوئه ومد ميه يده فصافحه الحديث : رواه الخرائطي بسند ضعيف وهو عند أبي داود والترمذي وابن ماجه مختصرا مامن مسلمين يلتقيان فلتصافحان الا غفر لهما قبل أن يتفرقا قال الترمذي حسن غريب من حديث أبي اسحق عن البراء

إذَا الْتَقَيَا فَتَصَافَحَا تَحَاتَّتْ ذُنُوبُهُمَا » وعن النبي صلى الله عليه وسلم [١] قال « إِذَا مَرَّ الرَّجُلُ بِالْقَوْمِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا عَلَيْهِ كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضْلُ دَرَجَةٍ لِأَنَّهُ ذَكَّرَهُمُ السَّلَامَ وَإِنْ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ رَدَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَأَطْيَبُ » أو قال « وَأَفْضَلُ »

والانحناء عند السلام منهي عنه . قال أنس رضي الله عنه ، قلنا يارسول الله [٢] أينحني بعضنا لبعض ؟ قال لا. قال فيقبل بعضنا بعضا؟ قال لا . قال فيصافح بعضنا بعضا ؟ قال نعم [٣] والالتزام والتقبيل قد ورد به الخبر عند القدوم من السفر . وقال أبو ذر رضي الله عنه ما لقيته صلى الله عليه وسلم [٤] إلا صافحني . وطلبني يوما فلم أكن في البيت ، فلما أخبرت جئت وهو على سرير ، فالتزمني . فكانت أجود وأجود

والأخذ بالركاب في توقير العلماء ورد به الأثر . فعل ابن عباس ذلك [٥] بركاب زيد بن ثابت وأخذ عمر بغرز زيد حتى رفعه ، وقال هكذا فافعلوا بزيد وأصحاب زيد .

والقيام مكروه على سبيل الإعظام لا على سبيل الإكرام . قال أنس: ما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم [٦] ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا ، لما يعلمون من كراهيته لذلك . وروى أنه عليه السلام قال مرة [٧] « إِذَا رَأَيْتُمُونِي فَلَا تَقُومُوا كَمَا تَصْنَعُ الْأَعَاجِمُ »

---

(١) حديث اذا مر الرجل بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم السلام وان لم يردوا عليه رد عليه ملأ خير منهم وأطيب: الخرائطي والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود مرفوعا وضعف البيهقي المرفوع ورواه موقوفا عليه بسند صحيح

(٢) حديث أنس قلنا يارسول الله أينحني بعضنا لبعض قال لا ـ الحديث الترمذي وحسنه وابن ماجه وضعفه أحمد والبيهقي

(٣) حديث الالتزام والتقبيل عند القدوم من السفر : الترمذي من حديث عائشة قالت قدم زيد بن حارثة الحديث وفيه فاعتنقه وقبله وقال حسن غريب

(٤) حديث أبي ذر ما لقيته صلى الله عليه وسلم الا صافحني ـ الحديث أبو داود وفيه رجل من عنزة لم يسم وسماه البيهقي في الشعب عبد الله

(٥) حديث أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت تقدم في العلم

(٦) حديث أنس ما كان شخص أحب اليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك الترمذي وقال حسن صحيح

(٧) حديث اذا رأيتموني فلا تقوموا كما يصنع الأعاجم: أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أمامة وقال كما يقوم الاعاجم وفيه أبو العديس مجهول

وقال عليه السلام (١) « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَاماً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » وقال عليه السلام (٢) « لَا يُقِيمِ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ وَلَكِنْ تَوَسَّعُوا وَتَفَسَّحُوا » وكانوا يحترزون عن ذلك لهذا النهي وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « إِذَا أَخَذَ الْقَوْمُ مَجَالِسَهُمْ فَإِنْ دَعَا أَحَدٌ أَخَاهُ فَأَوْسَعَ لَهُ فَلْيَأْتِهِ فَإِنَّمَا هِيَ كَرَامَةٌ أَكْرَمَهُ بِهَا أَخُوهُ فَإِنْ لَمْ يُوَسِّعْ لَهُ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَوْسَعِ مَكَانٍ يَجِدُهُ فَيَجْلِسْ فِيهِ »

وروي أنه سلم رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) وهو يبول ، فلم يجب فيكره السلام على من يقضي حاجته

ويكره أن يقول ابتداء عليك السلام ، فإنه قاله رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام (٥) « إِنَّ عَلَيْكَ السَّلَامُ تَحِيَّةُ الْمَوْتَى » قالها ثلاثا ، ثم قال « إِذَا لَقِيَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَقُلِ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ »

ويستحب للداخل إذا سلم ولم يجد مجلسا أن لا ينصرف ، بل يقعد وراء الصف . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) جالسا في المسجد ، إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلى

---

(١) حديث من سره أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار : أبو داود والترمذي من حديث معاوية وقال حسن

(٢) حديث لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا : متفق عليه من حديث ابن عمر

(٣) حديث إذا أخذ القوم مجالسهم فان دعا رجل أخاه فأوسع يعني له فليجلس فانه كرامة من الله عز وجل الحديث البغوي في معجم الصحابة من حديث ابن شيبة ورجاله ثقات وابن شيبة هذا ذكره أبو موسى المديني في ذيله في الصحابة وقد رواه الطبراني في الكبير من رواية مصعب ابن شيبة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أخصر منه وشيبة بن جبير والد منصور ليست له صحبة

(٤) حديث أن رجلا سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبول فلم يجب : مسلم من حديث ابن عمر بلفظ فلم يرد عليه

(٥) حديث قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليك السلام فقال إن عليك السلام تحية الميت الحديث : أبو داود والترمذي والنسائي في اليوم والليلة من حديث ابن جري الهجيمي وهو صاحب القصة قال الترمذي حسن صحيح

(٦) حديث كان صلى الله عليه وسلم جالسا في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها الحديث متفق عليه من حديث أبي واقد الليثي

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها . وأما الثاني فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبا . فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ وَأَمَّا الثَّانِي فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [١] « مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلاَّ غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَتَفَرَّقَا » [٢] وسلمت أم هانىء على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال « مَنْ هَذِهِ » ؟ فقيل له أم هانىء فقال عليه السلام « مَرْحَباً بِأُمِّ هَانِىءٍ »

ومنها : أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر ، ويرد عنه ويناضل دونه ، وينصره . فإن ذلك يجب عليه بمقتضى أخوة الإسلام . روى أبو الدرداء أن رجلا نال من رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرد عنه رجل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم [٣] « مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ كَانَ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّارِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « مَا مِنِ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ يَرُدُّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ إِلاَّ كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وعن أنس رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم [٥] قال « مَنْ ذُكِرَ عِنْدَهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ وَهُوَ يَسْتَطِيعُ نَصْرَهُ فَلَمْ يَنْصُرْهُ أَدْرَكَهُ اللهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَنْ ذُكِرَ عِنْدَهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ فَنَصَرَهُ نَصَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » وقال عليه السلام [٦] « مَنْ حَمَى عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ فِي الدُّنْيَا بَعَثَ اللهُ تَعَالَى لَهُ مَلَكاً يَحْمِيهِ

---

(١) حديث ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا : أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث البراء بن عازب

(٢) حديث سلمت أم هانىء عليه فقال مرحبا بأم هانىء : مسلم من حديث أم هانىء

(٣) حديث أبي الدرداء من رد عن عرض أخيه كان له حجابا من النار : الترمذي وحسنه

(٤) حديث ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة أحمد من حديث أسماء بنت يزيد بنحوه والخرائطي في مكارم الأخلاق وهو عند الطبراني بهذا اللفظ من حديث أبي الدرداء وفيهما شهر بن حوشب

(٥) حديث أنس من ذكر عنده أخوه المسلم وهو يستطيع نصره فلم ينصره ولو بكلمة أذله الله عز وجل بها في الدنيا والآخرة ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في الصمت مقتصرا على ما ذكر منه وإسناده ضعيف

(٦) حديث من حمى عرض أخيه المسلم في الدنيا بعث الله له ملكا يحميه يوم القيامة من النار : أبو داود من حديث معاذ بن أنس نحوه بسند ضعيف

يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّارِ » وقال جابر وأبو طلحة، سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) يقول « مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَنْصُرُ مُسْلِماً فِي مَوْضِعٍ يُنْتَهَكُ فِيهِ عِرْضُهُ وَيُسْتَحَلُّ حُرْمَتُهُ إِلَّا نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نَصْرَهُ وَمَا مِنِ امْرِئٍ خَذَلَ مُسْلِماً فِي مَوْطِنٍ يُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ إِلَّا خَذَلَهُ اللهُ فِي مَوْضِعٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ »

ومنها : تشميت العاطس .قال عليه السلام (٢) فى العاطس ، يقول الحمد لله على كل حال ويقول الذى يشمته يرحمكم الله . ويرد عليه العاطس فيقول يهديكم الله ويصلح بالكم، وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) يعلمنا يقول «إِذَا عَطِسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ فَلْيَقُلْ مَنْ عِنْدَهُ يَرْحَمُكَ اللهُ فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ فَلْيَقُلْ يَغْفِرُ اللهُ لِي وَلَكُمْ » وشمت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) عاطسا ولم يشمت آخر . فسأله عن ذلك ، فقال « إِنَّهُ حَمِدَ اللهَ وَأَنْتَ سَكَتَّ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « يُشَمَّتُ الْعَاطِسُ الْمُسْلِمُ إِذَا عَطِسَ ثَلَاثاً فَإِنْ زَادَ فَهُوَ زُكَامٌ » وروى أنه (٦) شمت عاطسا ثلاثا ، فعطس أخرى ، فقال «إِنَّكَ مَزْكُومٌ » وقال أبو هريرة ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) إذا عطس غض صوته ، واستتر بثوبه أو يده، وروى خمر وجهه، وقال أبو موسى الأشعرى ، كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) رجاء

---

(١) حديث جابر وأبى طلحة ما من امرىء ينصر مسلما فى موضع ينتهك فيه من عرضه ويستحل حرمته الحديث : أبو داود مع تقديم وتأخير واختلف فى أسناده

(٢) حديث يقول العاطس الحمد لله على كل حال ويقول الذى يشمته يرحمك الله ويقول هو يهديكم الله ويصلح بالكم : البخارى وأبو داود من حديث أبى هريرة ولم يقل البخارى على كل حال

(٣) حديث ابن مسعود اذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله رب العالمين ــ الحديث : النسائى فى اليوم والليلة وقال حديث منكر ورواه أيضا أبو داود والترمذى من حديث سالم بن عبد الله واختلف فى سناده

(٤) حديث شمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاطسا ولم يشمت آخر فسأله عن ذلك فقال انه حمد الله وأنت سكت متفق عليه من حديث أنس

(٥) حديث شمتوا المسلم اذا عطس ثلاثا فان زاد فهو زكام : أبو داود من حديث أبى هريرة شمت أخاك ثلاثا ــ الحديث وأسناده جيد

(٦) حديث أنه شمت عاطسا فعطس أخرى فقال انك مزكوم : مسلم من حديث سلمة بن الأكوع

(٧) حديث أبى هريرة كان اذا عطس غض صوته وستر بثوبه أو يده : أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح وفى رواية لأبى نعيم فى اليوم والليلة خمر وجهه وفاه

(٨) حديث أبى موسى كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول يرحمكم الله فكان يقول يهديكم الله أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح

أن يقول يرحمكم الله، فكان يقول «يَهْدِيكُمُ اللهُ». وروى عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه أن رجلا عطس خلف النبي صلى الله عليه وسلم [1] في الصلاة ، فقال الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يرضى ربنا وبعد مايرضى ، والحمد لله على كل حال . فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ صَاحِبُ الْكَلِمَاتِ؟ » فقال أنا يارسول الله ماأردت بهن إلا خيرا . فقال « رَأَيْتُ اثْنَيْ عَشَرَ مَلَكاً كُلُّهُمْ يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مَنْ عَطَسَ عِنْدَهُ فَسَبَقَ إِلَى الْحَمْدِ لَمْ يَشْتَكِ خَاصِرَتَهُ » وقال عليه السلام [3] « الْعِطَاسُ مِنَ اللهِ وَالتَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَضَعْ يَدَهُ عَلَى فِيهِ فَإِذَا قَالَ هَاهَا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَضْحَكُ مِنْ جَوْفِهِ » وقال ابراهيم النخعي : إذا عطس في قضاء الحاجة فلا بأس بأن يذكر الله . وقال الحسن : يحمد الله في نفسه . وقال كعب : قال موسى عليه السلام ، يارب أقريب أنت فأناجيك ؟ أم بعيد فأناديك ؟ فقال أنا جليس من ذكرني فقال فإنا نكون على حال نجلك أن نذكرك عليها ، كالجنابة والغائط . فقال اذكرني على كل حال

ومنها: أنه إذا بلي بذي شر فينبغي أن يتحمله ويتقيه . قال بعضهم: خالص المؤمن مخالصة وخالق الفاجر مخالقة ، فإن الفاجر يرضى بالخلق الحسن في الظاهر . وقال أبو الدرداء : إنا لنبش في وجوه أقوام ، وإن قلوبنا لتلعنهم . وهذا معنى المداراة وهي مع من يخاف شره قال الله تعالى (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ [1]) قال ابن عباس في معنى قوله (وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ [2]) أي الفحش والأذى بالسلام والمداراة . وقال في قوله تعالى (وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ

---

(١) حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة أن رجلا عطس خلف النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة فقال الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ـ الحديث : أبو داود من حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه وأسناده جيد

(٢) حديث من عطس عنده فسبق إلى الحمد لم يشتك خاصرته : الطبراني في الأوسط وفي الدعاء من حديث علي بسند ضعيف

(٣) حديث العطاس من الله والتثاؤب من الشيطان ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله العطاس من الله فرواه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وقال البخاري إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب ـ الحديث

---

(١) المؤمنون : ٩٦ (٢) الرعد : ٢٢

بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ[1]) قال بالرغبة والرهبة، والحياء والمداراة. وقالت عائشة رضي الله عنها : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال[1] « ائْذَنُوا لَهُ فَبِئْسَ رَجُلُ الْعَشِيرَةِ هُوَ » فلما دخل ألان له القول ، حتى ظننت أن له عنده منزلة . فلما خرج قلت له: لما دخل قلت الذي قلت ثم ألنت له القول ! فقال « يَا عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ » وفي الخبر[2] « مَا وَقَى الرَّجُلُ بِهِ عِرْضَهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ » وفي الأثر: خالطوا الناس بأعمالكم وزايلوهم بالقلوب . وقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه ، ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا ، حتى يجعل الله له منه فرجا .

ومنها: أن يجتنب مخالطة الأغنياء ، ويختلط بالمساكين ، ويحسن إلى الأيتام . كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول[3] « اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ » وقال كعب الأحبار ، كان سليمان عليه السلام في ملكه إذا دخل المسجد فرأى مسكينا جلس إليه ، وقال مسكين جالس مسكينا . وقيل ما كان كلمة تقال لعيسى عليه السلام أحب اليه من أن يقال له يامسكين . وقال كعب الأحبار : ما في القرءان من ياأيها الذين أمنوا فهو في التوراة ياأيها المساكين . وقال عبادة بن الصامت : إن للنار سبعة أبواب ، ثلاثة للأغنياء ، وثلاثة للنساء ، وواحد للفقراء والمساكين . وقال الفضيل : بلغني أن نبيا من الأنبياء قال يارب كيف لي أن أعلم رضاك عني ؟ فقال انظر كيف رضا المساكين عنك. وقال عليه السلام[4] « إِيَّاكُمْ وَمُجَالَسَةَ الْمَوْتَى قِيلَ وَمَنِ الْمَوْتَى يَارَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ الْأَغْنِيَاءُ » وقال موسى :

---

(١) حديث عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة الحديث : متفق عليه

(٢) حديث ماوقى المرء به عرضه فهو له صدقة: أبو يعلى وابن عدى من حديث جابر وضعفه

(٣) حديث اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين : ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد والترمذي من حديث عائشة وقال غريب

(٤) حديث إياكم ومجالسة الموتى قيل وما الموتى قال الأغنياء : الترمذي وضعفه والحاكم وصحح أسناده من حديث عائشة اياك ومجالسة الأغنياء

---

(١) البقرة : ٢٥١

إلهي أين أبغيك؟ قال عند المنكسرة قلوبهم . وقال صلى الله عليه وسلم [١] « لا تَغْبِطَنَّ فَاجِراً بِنِعْمَةٍ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي إِلَى مَا يَصِيرُ بَعْدَ الْمَوْتِ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ طَالِباً حَثِيثاً »

وأما اليتيم: فقال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ ضَمَّ يَتِيماً مِنْ أَبَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ حَتَّى يَسْتَغْنِيَ فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ أَلْبَتَّةَ » وقال عليه السلام [٣] « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ » وهو يشير بأصبعيه وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « مَنْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ يَتِيمٍ تَرَحُّماً كَانَتْ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ تَمُرُّ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « خَيْرُ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ وَشَرُّ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ »

ومنها: النصيحة لكل مسلم، والجهد في إدخال السرور على قلبه . قال صلى الله عليه وسلم [٦] « الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ لِلْمُؤْمِنِ كَمَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٧] « إِنَّ أَحَدَكُمْ مِرْآةُ أَخِيهِ فَإِذَا رَأَى فِيهِ شَيْئاً فَلْيُمِطْهُ عَنْهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٨] « مَنْ قَضَى حَاجَةً لِأَخِيهِ فَكَأَنَّمَا

---

(١) حديث لاتغبطن فاجرا بنعمة ـ الحديث : البخاري في التاريخ والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

(٢) حديث من ضم يتيما من أبوين مسلمين حتى يستغني فقد وجبت له الجنة ألبتة : أحمد والطبراني من حديث مالك بن عمر وفيه علي بن زيد بن جدعان متكلم فيه

(٣) حديث أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة : البخاري من حديث سهل بن سعد ومسلم من حديث أبي هريرة

(٤) حديث من وضع يده على رأس يتيم ترحما كانت له بكل شعرة تمر عليها يده حسنة: أحمد والطبراني باسناد ضعيف من حديث أبي أمامة دون قوله ترحما ولابن حبان في الضعفاء من حديث ابن أبي أوفى من مسح يده على رأس يتيم رحمة له ـ الحديث

(٥) حديث خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن اليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يساء اليه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وفيه ضعف.

(٦) حديث المؤمن يحب للمؤمن مايحب لنفسه تقدم بلفظ لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه ولم اره بهذا اللفظ

(٧) حديث إن أحدكم مرآة أخيه ـ الحديث : رواه أبو داود والترمذي وقد تقدم

(٨) حديث من قضى لأخيه حاجة فكأنما خدم الله عمره : البخاري في التاريخ والطبراني والخرائطي كلاهما في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف مرسلا

خَدَمَ اللهُ عُمْرَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَقَرَّ عَيْنَ مُؤْمِنٍ أَقَرَّ اللهُ عَيْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم [١] « مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ سَاعَةً مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ قَضَاهَا أَوْ لَمْ يَقْضِهَا كَانَ خَيْراً لَهُ مِنِ اعْتِكَافِ شَهْرَيْنِ » و قال عليه السلام [٢] « مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمِنٍ مَغْمُومٍ أَوْ أَعَانَ مَظْلُوماً غَفَرَ اللهُ لَهُ ثَلَاثاً وَسَبْعِينَ مَغْفِرَةً » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً » فقيل كيف ينصره ظالما؟ قال « يَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ » وقال عليه السلام [٤] « إِنَّ مِنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ إِدْخَالَ السُّرُورِ عَلَى قَلْبِ الْمُؤْمِنِ أَوْ أَنْ يُفَرِّجَ عَنْهُ غَمّاً أَوْ يَقْضِيَ عَنْهُ دَيْناً أَوْ يُطْعِمَهُ مِنْ جُوعٍ » وقال صلى الله عليه وسلم مَنْ حَمَى مُؤْمِناً مِنْ مُنَافِقٍ يَعْنِتُهُ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِي لَحْمَهُ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « خَصْلَتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُمَا شَيْءٌ مِنَ الشَّرِّ الشِّرْكُ بِاللهِ وَالضُّرُّ لِعِبَادِ اللهِ . وَخَصْلَتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُمَا شَيْءٌ مِنَ الْبِرِّ الإِيمَانُ بِاللهِ وَالنَّفْعُ لِعِبَادِ اللهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ لِلْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ » وقال معروف الكرخي : من قال كل يوم اللهم ارحم أمة محمد ، كتبه الله من الأبدال وفي رواية أخرى اللهم أصلح أمة محمد ، اللهم فرج عن أمة محمد ، كل يوم ثلاث مرات ، كتبه الله من الأبدال

---

(١) حديث من مشى فى حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أو لم يقضها كان خيرا له من اعتكاف شهرين : الحاكم وصححه من حديث ابن عباس لأن يمشى أحدكم مع أخيه فى قضاء حاجته واشار بأصبعه أفضل من أن يعتكف فى مسجدى هذا شهرين وللطبرانى فى الأوسط من مشى فى حاجة أخيه كان خيرا له من اعتكافه عشر سنين وكلاهما ضعيف

(٢) حديث من فرج عن مغموم أو أعان مظلوما غفر الله له ثلاثا وسبعين مغفرة : الخرائطى فى مكارم الأخلاق وابن حبان فى الضعفاء وابن عدى من حديث أنس بلفظ من أغاث ملهوفا

(٣) حديث انصر أخاك ظالما أو مظلوما ـ الحديث : متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم

(٤) حديث ان من أحب الأعمال إلي الله إدخال السرور على المؤمن ـ الحديث : الطبرانى فى الصغير والأوسط من حديث ابن عمر بسند ضعيف

(٥) حديث خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر الشرك بالله والضر بعباد الله ـ الحديث : ذكره صاحب الفردوس من حديث على ولم يسنده ولده فى مسنده

(٦) حديث من لم يهتم للمسلمين فليس منهم الحاكم من حديث حذيفة والطبرانى فى الأوسط من حديث أبى ذر وكلاهما ضعيف

وبكى علي بن الفضيل يوماً فقيل له ما يبكيك ؟ قال أبكى على من ظلمني إذا وقف غداً بين يدي الله تعالى ، وسئل عن ظلمه ، ولم تكن له حجة

ومنها أن يعود مرضاهم ،فالمعرفة والإسلام كافيان فى إثبات هذا الحق، و نيل فضله. وأدب العائد خفة الجلسة ، وقلة السؤال ، و إظهار الرقة ، والدعاء بالعافية،وغض البصرعن عورات الموضع . وعند الاستئذان لايقابل الباب ، ويدق برفق ، ولا يقول أنا إذا قيل له مَن،ولا يقول ياغلام ، ولكن يحمد ويسبح . وقال صلى الله عليه وسلم « تَمَامُ عِيَادَةِ الْمَرِيضِ أَنْ يَضَعَ أَحَدُكُمْ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ أَوْعَلَى يَدِهِ وَيَسْأَلَهُ كَيْفَ هُوَ؟ وَتَمَامُ تَحِيَّاتِكُمُ الْمُصَافَحَةُ » وقال صلى الله عليه وسلم [١] «مَنْ عَادَ مَرِيضاً قَعَدَ فِي مَخَارِفِ الْجَنَّةِ حَتَّى إِذَا قَامَ وُكِّلَ بِهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى اللَّيْلِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] إِذَا عَادَ الرَّجُلُ الْمَرِيضَ خَاضَ فِي الرَّحْمَةِ فَإِذَا قَعَدَ عِنْدَهُ قَرَّتْ فِيهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « إِذَا عَادَ الْمُسْلِمُ أَخَاهُ أَوْ زَارَهُ قَالَ اللهُ تَعَالَى طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مَنْزِلاً فِي الْجَنَّةِ » وقال عليه السلام « إِذَامَرِضَ الْعَبْدُ بَعَثَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَيْهِ مَلَكَيْنِ فَقَالَ انْظُرَا مَاذَا يَقُولُ لِعُوَّادِهِ فَإِنْ هُوَ إِذَا جَاءُوهُ حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ رَفَعَا ذَلِكَ إِلَى اللهِ وَهُوَ أَعْلَمُ فَيَقُولُ :

---

(١) حديث من عاد مريضا قعد فى الجنة ـ الحديث : أصحاب السنن والحاكم من حديث على من أتى أخاه المسلم عائدا مشى فى خرافة الجنة حتى يجلس فاذا جلس غمرته الرحمة فان كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسى وان كان مساء ـ الحديث : لفظ ابن ماجه وصححه الحاكم وحسنه الترمذي ولمسلم من حديث ثوبان من عاد مريضا لم يزل فى خرفة الجنة

(٢) حديث اذا عاد الرجل المريض خاض فى الرحمة فاذا قعد عنده قرت: الحاكم والبيهقى من حديث جابر وقال انغمس فيها قال الحاكم صحيح على شرط مسلم وكذا صححه ابن عبد البر وذكره مالك فى الموطأ بلاغا بلفظ قرت فيه ورواه الواقدي بلفظ استقر فيها وللطبراني فى الصغير من حديث أنس فاذا قعد عنده غمرته الرحمة وله فى الأوسط من حديث كعب بن مالك وعمرو ابن حزم استنقع فيها

(٣) حديث إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبوأت منزلا فى الجنة: الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة الا أنه قال ناداه مناد قال الترمذى غريب قلت فيه عيسى ابن سنان القسملى ، ضعفه الجمهور

(١) لِعَبْدِي عَلَيَّ إِنْ تَوَفَّيْتُهُ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَإِنْ أَنَا شَفَيْتُهُ أَنْ أُبْدِلَ لَهُ لَحْماً خَيْراً مِنْ لَحْمِهِ وَدَماً خَيْراً مِنْ دَمِهِ وَأَنْ أُكَفِّرَ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ » وقال عثمان رضي الله عنه ، مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) فقال « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أُعِيذُكَ بِاللهِ الْأَحَدِ الصَّمَدِ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ مِنْ شَرِّ مَا تَجِدُ » قالها مرارا

ودخل صلى الله عليه وسلم (٤) على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وهو مريض ، فقال له « قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ تَعْجِيلَ عَافِيَتِكَ أَوْ صَبْراً عَلَى بَلِيَّتِكَ أَوْ خُرُوجاً مِنَ الدُّنْيَا إِلَى رَحْمَتِكَ فَإِنَّكَ سَتُعْطَى إِحْدَاهُنَّ » ويستحب للعليل أيضا أن يقول : أعوذ بعزة الله وقدرته ، من شر ما أجد وأحاذر ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إذا شكا أحدكم بطنه فليسأل امرأته شيئا من صداقها ، ويشتري به عسلا ، ويشرب بماء السماء، فيجتمع له الهنيء والمريء والشفاء والمبارك . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَمْرٍ هُوَ حَقٌّ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ فِي أَوَّلِ مَضْجَعِهِ مِنْ مَرَضِهِ نَجَّاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ ؟ قلت بلى يارسول الله :

---

(١) حديث اذا مرض العبد بعث الله تعالى ملكين فقال انظرا مايقوله لعواده ـ الحديث : مالك فى الموطأ مرسلا من حديث عطاء بن يسار ووصله ابن عبد البر فى التمهيد من روايته عن أبي سعيد الخدرى وفيه عباد بن كثير الثقفى ضعيف ـ الحديث : وللبيهقي من حديث أبي هريرة قال الله تعالى اذا ابتليت عبدى المؤمن فلم يشكني الى عواده أطلقته من أسارى ثم أبدله لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه ثم يستأنف العمل وإسناده جيد

(٢) حديث من يرد الله به خيرا يصب منه : البخارى من حديث أبي هريرة

(٣) حديث عثمان مرضت فعادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بسم الله الرحمن الرحيم أعيذك بالله الأحد الصمد ـ الحديث : ابن السنى فى اليوم والليلة والطبرانى والبيهقى فى الأدعية من حديث عثمان بن عفان باسناد حسن

(٤) حديث دخل على علي وهو مريض فقال قل اللهم انى أسألك تعجيل عافيتك ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فى كتاب المرض من حديث أنس بسند ضعيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على رجل وهو يشتكى ولم يسم عليا وروى البيهقى فى الدعوات من حديث عائشة أن جبريل علمها للنبى صلى الله عليه وسلم وقال ان الله يأمرك أن تدعو بهؤلاء الكلمات

(٥) حديث أبي هريرة ألا أخبرك بأمر هو حق من تكلم به فى أول مضجعه من مرضه نجاه الله من النار : ابن أبي الدنيا فى الدعاء وفى المرض والكفارات

قال « يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْداً كَثِيراً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ . اللهُ أَكْبَرُ كَبِيراً إِنَّ كِبْرِيَاءَ رَبِّنَا وَجَلَالَهُ وَقُدْرَتَهُ بِكُلِّ مَكَانٍ ، اللَّهُمَّ إِنْ أَنْتَ أَمْرَضْتَنِي لِتَقْبِضَ رُوحِي فِي مَرَضِي هَذَا فَاجْعَلْ رُوحِي فِي أَرْوَاحِ مَنْ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْكَ الْحُسْنَى وَبَاعِدْنِي مِنَ النَّارِ كَمَا بَاعَدْتَ أَوْلِيَاءَكَ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْكَ الْحُسْنَى » وروي أنه قال عليه السلام [١] « عِيَادَةُ الْمَرِيضِ بَعْدَ ثَلَاثٍ فُوَاقُ نَاقَةٍ » وقال طاوس : أفضل العيادة أخفها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : عيادة المريض مرة سُنة ، فما ازدادت فنافلة . وقال بعضهم : عيادة المريض بعد ثلاث وقال عليه السلام [٢] « أَغِبُّوا فِي الْعِيَادَةِ وَأَرْبِعُوا فِيهَا »

وجملة أدب المريض حسن الصبر ، وقلة الشكوى والضجر ، والفزع إلى الدعاء ، والتوكل بعد الدواء على خالق الدواء .

ومنها أن يشيع جنائزهم . قال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَنْ شَيَّعَ جَنَازَةً فَلَهُ قِيرَاطٌ مِنَ الْأَجْرِ فَإِنْ وَقَفَ حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ » وفي الخبر [٤] « الْقِيرَاطُ مِثْلُ أُحُدٍ » ولما روى أبو هريرة هذا الحديث ، وسمعه ابن عمر ، قال لقد فرطنا إلى الآن في قراريط كثيرة والقصد من التشييع قضاء حق المسلمين والاعتبار . وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة ، قال اغدوا فإنا رائحون ، موعظة بليغة ، وغفلة سريعة ، يذهب الأول ، والآخر لا عقل له . وخرج مالك بن دينار خلف جنازة أخيه وهو يبكي ويقول : والله لا تقر عيني حتى أعلم إلى ما صرت ولا والله لا أعلم ما دمت حيا . وقال الأعمش . كنا نشهد الجنائز فلا ندري لمن نعزي لحزن القوم كلهم . ونظر إبراهيم الزيات إلى قوم يترحمون على ميت ، فقال لو ترحمون أنفسكم لكان أولى ، إنه نجا من أهوال ثلاث : وجه ملك الموت قد رأى ، ومرارة الموت قد ذاق

---

(١) حديث عيادة المريض فواق ناقة : ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من حديث أنس باسناد فيه جهالة

(٢) حديث أغبوا في العيادة وأربعوا : ابن أبي الدنيا وفيه أبو يعلى من حديث جابر وزاد الا أن يكون مغلوبا وإسناده ضعيف

(٣) حديث من تبع جنازة فله قيراط من الأجر فان وقف حتى تدفن فله قيرطان : الشيخان من حديث أبي هريرة

(٤) حديث القيراط مثل جبل أحد : مسلم من حديث ثوبان وأبي هريرة وأصله متفق عليه

وخوف الخاتمة قد أمن . وقال صلى الله عليه وسلم [١] « يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلاَثٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ »

ومنها أن يزور قبورهم . والمقصود من ذلك الدعاء والاعتبار وترقيق القلب . قال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَا رَأَيْتُ مَنْظَراً إِلاَّ وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ » وقال عمر رضي الله عنه: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] فأتى المقابر ، فجلس إلى قبر ، وكنت أدنى القوم منه فبكى وبكينا. فقال ما يبكيكم؟ قلنا: بكينا لبكائك. قال « هَذَا قَبْرُ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَتِهَا فَأَذِنَ لِي ، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَأَبَى عَلَيَّ ، فَأَدْرَكَنِي مَا يُدْرِكُ الْوَلَدَ مِنَ الرِّقَّةِ » وكان عمر رضي الله عنه ، إذا وقف على قبر بكى حتى تبل لحيته ، ويقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] يقول « إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ صَاحِبُهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ » وقال مجاهد : أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود ، وبيت الوحدة ، وبيت الغربة ، وبيت الظلمة ، فهذا ما أعددت لك فما أعددت لي ؟ وقال أبو ذر : ألا أخبركم بيوم فقري ؟ يوم أوضع في قبري . وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور ، فقيل له في ذلك ، فقال أجلس إلى قوم يذكرونني معادي ، وإن قمت عنهم لم يغتابوني . وقال حاتم الأصم : من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ، ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم . وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « مَا مِنْ لَيْلَةٍ إِلاَّ وَيُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْقُبُورِ مَنْ تَغْبِطُونَ ؟ قَالُوا نَغْبِطُ أَهْلَ الْمَسَاجِدِ لِأَنَّهُمْ يَصُومُونَ وَلَا نَصُومُ وَيُصَلُّونَ وَلَا نُصَلِّي وَيَذْكُرُونَ اللهَ وَلَا نَذْكُرُهُ » وقال سفيان : من أكثر ذكر القبر وجده

---

(١) حديث يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد: مسلم من حديث أنس

(٢) حديث ما رأيت منظرا الا والقبر أفظع منه : الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عثمان وقال صحيح الاسناد وقال الترمذي حسن غريب

(٣) حديث عمر خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى المقابر فجلس الى قبر ـ الحديث: في زيارته قبر أمه. مسلم من حديث أبي هريرة مختصرا وأحمد من حديث بريدة وفيه فقام اليه عمر ففداه بالأب والأم يقول يارسول مالك الحديث

(٤) حديث عثمان بن عفان ان القبر أول منازل الآخرة ـ الحديث : الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصحح اسناده

(٥) حديث ما من ليلة الا ينادى مناد يأهل القبور من تغبطون فيقولون نغبط أهل المساجد ـ الحديث لم أجد له أصلا

روضة من رياض الجنة ، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار . وكان الربيع ابن خثيم قد حفر فى داره قبراً ، فكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع فيه ، ومكث ساعة ، ثم قال(رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ(١)) ، ثم يقول : ياربيع قد أرجعت فاعمل الآن قبل أن لا ترجع . وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور بكى ، وقال يا ميمون ، هـذه قبور آبائى بنى أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم . أما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلات ؟ وأصاب الهوام من أبدانهم ؟ ثم بكى ، وقال : والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور ، وقد أمن من عذاب الله

وآداب المعزى خفض الجناح ، وإظهار الحزن ، وقلة الحديث ، وترك التبسم .

وآداب تشييع الجنازة لزوم الخشوع ، وترك الحديث ، وملاحظة الميت ، والتفكر فى الموت ، والاستعداد له ، وأن يمشي أمام الجنازة بقربها (١) والإسراعُ بالجنازة سُنة

فهذه جمل آداب تنبه على آداب المعاشرة مع عموم الخلق ، والجملة الجامعة فيه ، أن لا تستصغر منهم أحداً حيا كان أو ميتا فتهلك لأنك لا تدرى لعله خير منك ، فإنه وإن كان فاسقا فلعله يختم لك بمثل حاله ويختم له بالصلاح . ولا تنظر إليهم بعين التعظيم لهم فى حال دنياهم ، فإن الدنيا صغيرة عند الله ، صغير ما فيها ، ومهما عظم أهل الدنيا ، فى نفسك فقد عظمت الدنيا ، فتسقط من عين الله . ولا تبذل لهم دينك لتنال من دنياهم ، فتصغر فى أعينهم ، ثم تحرم دنياهم ، فإن لم تحرم كنت قد استبدلت الذى هو أدنى بالذى هو خير . ولا تعادهم بحيث تظهر العداوة ، فيطول الأمر عليك فى المعاداة ، ويذهب دينك ودنياك فيهم ، ويذهب دينهم فيك ، إلا إذا رأيت منكرا فى الدين ، فتعادى أفعالهم القبيحة ، وتنظر إليهم بعين الرحمة لهم ، لتعرضهم لمقت الله وعقوبته بعصيانهم . فحسبهم جهنم يصلونها ، فمالك تحقد عليهم ! ولا تسكن إليهم فى مودتهم لك ، وثنائهم عليك فى وجهك ، وحسن بشرهم لك ، فإنك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد فى المائة إلا واحدا ، وربما لا تجده . ولا تشك إليهم أحوالك ، فيكلك الله إليهم . ولا تطمع أن يكون والك فى الغيب والسر كما فى العلانية ، فذلك طمع كاذب ، وأنَّى تظفر به .

---

(١) حديث الاسراع بالجنازة : متفق عليه من حديث أبى هريرة اسرعوا بالجنازة ـ الحديث :

(١) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠

ولا تطمع فيما فى أيديهم ، فتستعجل الذل ، ولا تنال الغرض . ولا تعل عليهم تكبرا لاستغنائك عنهم ، فإن الله يلجئك إليهم ، عقوبة على التكبر بإظهار الاستغناء . وإذا سألت أخا منهم حاجة فقضاها ، فهو أخ مستفاد . وإن لم يقض فلا تعاتبه ، فيصير عدوا تطول عليك مقاساته . ولا تشتغل بوعظ من لا ترى فيه مخايل القبول ، فلا يسمع منك ويعاديك وليكن وعظك عرضا واسترسالا ، من غير تنصيص على الشخص . ومهما رأيت منهم كرامة وخيرا فاشكر الله الذى سخرهم لك ، واستعذ بالله أن يكلك إليهم . وإذا بلغك عنهم غيبة أو رأيت منهم شرا ، أو أصابك منهم مايسوءك ، فكل أمرهم إلى الله ، واستعذ بالله من شرهم ، ولا تشغل نفسك بالمكافأة ، فيزيد الضرر ، ويضيع العمر بشغله . ولا تقل لهم لم تعرفوا موضعى ، واعتقد أنك لو استحققت ذلك لجعل الله لك موضعا فى قلوبهم ، فالله المحبب والمبغض إلى القلوب، وكن فيهم سميعا لحقهم، أصم عن باطلهم، نطوقا بحقهم، صموتا عن باطلهم

واحذر صحبة أكثر الناس ، فإنهم لا يقيلون عثرة ، ولا يغفرون زلة ، ولا يسترون عورة ، ويحاسبون على النقير والقطمير ، ويحسدون على القليل والكثير ، ينتصفون ولا ينصفون ، ويؤاخذون على الخطأ والنسيان ولا يعفون ، يغرون الإخوان على الإخوان بالنميمة والبهتان ، فصحبة أكثرهم خسران، وقطيعتهم رجحان . إن رضوا فظاهرهم الملق، وإن سخطوا فباطنهم الحنق ، لا يؤمنون فى حنقهم ، ولا يرجون فى ملقهم . ظاهرهم ثياب ، وباطنهم ذئاب . يقطعون بالظنون ، ويتغامزون وراءك بالعيون ، ويتربصون بصديقهم من الحسد ريب المنون . يحصون عليك العثرات فى صحبتهم، ليواجهوك بها فى غضبهم ووحشتهم . ولا تعول على مودة من لم تخبره حق الخبرة، بأن تصحبه مدة فى دار أو موضع واحد ، فتجربه فى عزله وولايته ، وغناه وفقره ، أو تسافر معه ، أو تعامله فى الدنيا والدرهم ، أو تقع فى شدة فتحتاج إليه ، فإن رضيته فى هذه الأحوال ، فاتخذه أبا لك إن كان كبيرا ، أو ابنا لك إن كان صغيرا ، أو أخاك إن كان مثلك . فهذه جملة آداب المعاشرة مع أصناف الخلق

حقوق الجوار

اعلم أن الجوار يقتضى حقا وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام ، فيستحق الجار المسلم

ما يستحقه كل مسلم وزيادة . إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم [١] « الْجِيرَانُ ثَلاثَةٌ جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ وَجَارٌ لَهُ ثَلاثَةُ حُقُوقٍ ، فَالْجَارُ الَّذِى لَهُ ثَلاثَةُ حُقُوقٍ الْجَارُ الْمُسْلِمُ ذُو الرَّحِمِ فَلَهُ حَقُّ الْجِوَارِ وَحَقُّ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الرَّحِمِ ، وَأَمَّا الَّذِى لَهُ حَقَّانِ فَالْجَارُ الْمُسْلِمُ لَهُ حَقُّ الْجِوَارِ وَحَقُّ الْإِسْلَامِ وَأَمَّا الَّذِى لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ فَالْجَارُ الْمُشْرِكُ » فانظر كيف أثبت للمشرك حقا بمجرد الجوار . وقد قال صلى الله عليه وسلم [٢] « أَحْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِماً » وقال النبي صلى الله عليه وسلم [٣] « مَازَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « أَوَّلُ خَصْمَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَارَانِ » وقال عليه السلام [٧] « إِذَا أَنْتَ رَمَيْتَ كَلْبَ جَارِكَ فَقَدْ آذَيْتَهُ » ويروى أن رجلا جاء إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال له : إن لى جارا يؤذيني ويشتمني ويضيق علي ، فقال اذهب ، فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم [٨] إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها . فقال صلى الله عليه وسلم « هِيَ فِي النَّارِ » وجاء رجل إليه عليه السلام [٩] يشكو جاره ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « اصْبِرْ » ثم قال له فى الثالثة أو الرابعة « اطْرَحْ

---

(١) حديث الجيران ثلاثة جار له حق وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق ـ الحديث : الحسن بن سفيان والبزار فى مسنديهما وأبو الشيخ فى كتاب الثواب وابو نعيم فى الحلية من حديث جابر وابن عدى من حديث عبد الله بن عمر وكلاهما ضعيف

(٢) حديث احسن مجاورة من جاورك تكن مسلما: تقدم

(٣) حديث مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه: متفق عليه من حديث عائشة وابن عمر

(٤) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره: متفق عليه من حديث أبى شريح

(٥) حديث لايؤمن عبد حتى يؤمن جاره بوائقه: البخارى من حديث أبى شريح أيضا

(٦) حديث أول خصمين يوم القيامة جاران: أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر بسند ضعيف

(٧) حديث اذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيته: لم أجده أصلا

(٨) حديث ان فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها فقال هى فى النار: أحمد والحاكم من حديث أبى هريرة وقال صحيح الاسناد

(٩) حديث جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو جاره فقال اصبر ثم قال له فى الثالثة أو الرابعة اطرح متاعك على الطريق ـ الحديث : أبو داود وابن حبان والحاكم من حديث أبى هريرة وقال صحيح على شرط مسلم

مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ » قال فجعل الناس يمرون به ويقولون مالك ؟ فيقال آذاه جاره. قال فجعلوا يقولون لعنه الله . فجاءه جاره فقال له رد متاعك ، فوالله لا أعود.

وروى الزهرى أن رجلا أتى النبي عليه السلام ، فجعل يشكو جاره . فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن ينادي على باب المسجد[١] ألا إن أربعين دارا جار . قال الزهرى أربعون هكذا ، وأربعون هكذا ، وأربعون هكذا ، وأربعون هكذا . وأومأ إلى أربع جهات

وقال عليه السلام [٢] « الْيُمْنُ وَالشُّؤْمُ فِي الْمَرْأَةِ وَالْمَسْكَنِ وَالْفَرَسِ فَيُمْنُ الْمَرْأَةِ خِفَّةُ مَهْرِهَا وَيُسْرُ نِكَاحِهَا وَحُسْنُ خُلُقِهَا وَشُؤْمُهَا غَلَاءُ مَهْرِهَا وَعُسْرُ نِكَاحِهَا وَسُوءُ خُلُقِهَا وَيُمْنُ الْمَسْكَنِ سِعَتُهُ وَحُسْنُ جِوَارِ أَهْلِهِ وَشُؤْمُهُ ضِيقُهُ وَسُوءُ جِوَارِ أَهْلِهِ وَيُمْنُ الْفَرَسِ ذُلُّهُ وَحُسْنُ خُلُقِهِ وَشُؤْمُهُ صُعُوبَتُهُ وَسُوءُ خُلُقِهِ »

واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط ، بل احتمال الأذى . فإن الجار أيضا قد كف أذاه ، فليس في ذلك قضاء حق . ولا يكفي احتمال الأذى ، بل لابد من الرفق ، وإسداء الخير والمعروف ، إذ يقال إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة ، فيقول يارب سل هذا لِمَ منعني معروفه ، وسد بابه دوني ؟ وبلغ ابن المقفع أن جارا له يبيع داره في دين ركبه وكان يجلس في ظل داره ، فقال ماقمت إذاً بحرمة ظل داره إن باعها معدما ، فدفع إليه ثمن

---

(١) حديث الزهرى الا ان أربعين داراجار: أبو داود في المراسيل ووصله الطبراني من رواية الزهرى عن ابن كعب بن مالك عن أبيه ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة وقال أربعون ذراعا وكلاهما ضعيف

(٢) حديث اليمن والشؤم في المرأة والمسكن والفرس فيمن المرأة خفة مهرها ـ الحديث : مسلم من حديث ابن عمر الشؤم في الدار والمرأة والفرس وفي رواية له إن يك من الشؤم شيء حقا وله من حديث سهل بن سعد إن كان ففي الفرس والمرأة والمسكن والترمذي من حديث حكيم بن معاوية لاشؤم وقد يكون اليمن في الدار والمرأة والفرس ورواه ابن ماجه فسماه محمد بن معاوية وللطبراني من حديث أسماء بنت عميس قالت يارسول الله ماسوء الدار قال ضيق ساحتها وخبث جيرانها قيل فما سوء الدابة قال منعها ظهرها وسوء خلقها قيل فما سوء المرأة قال عقم رحمها وسوء خلقها وكلاهما ضعيف ورويناه في كتاب الخيل للدمياطي من رواية سالم بن عبد الله مرسلا اذا كان الفرس ضروبا فهو مشؤم وإذا كانت المرأة قد عرفت زوجا قبل زوجها فحنت الى الزوج الاول فهي مشؤمة واذا كانت الدار بعيدة من المسجد لايسمع فيها الأذان والاقامة فهي مشؤمة واسناده ضعيف ووصله صاحب مسند الفردوس بذكر ابن عمر فيه

الدار ، وقال لا تبعها . وشكا بعضهم كثرة الفأر فى داره ، فقيل له لو اقتنيت هرا ، فقال أخشى أن يسمع الفأر صوت الهر فيهرب إلى دور الجيران، فأكون قد أحببت لهم مالا أحب لنفسى

وجملة حق الجار أن يبدأه بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام ، ولا يكثر عن حاله السؤال ويعوده فى المرض ، ويعزيه فى المصيبة ، ويقوم معه فى العزاء ، ويهنئه فى الفرح ، ويظهر الشركة فى السرور معه ، ويصفح عن زلاته ، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته، ولا يضايقه فى وضع الجذع على جداره ، ولا فى مصب الماء فى ميزابه ، ولا فى مطرح التراب فى فنائه ولا يضيق طريقه إلى الدار ، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره . ويستر ما ينكشف له من عوراته ، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة ، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ، ولا يسمع عليه كلاما ، ويغض بصره عن حرمته ، ولا يديم النظر إلى خادمته ، ويتلطف بولده فى كلمته، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه. هذا إلى جملة الحقوق التى ذكرناها لعامة المسلمين

وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ ؟ إِنِ اسْتَعَانَ بِكَ أَعَنْتَهُ وَإِنِ اسْتَنْصَرَكَ نَصَرْتَهُ وَإِنِ اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ وَإِنِ افْتَقَرَ عُدْتَ عَلَيْهِ وَإِنْ مَرِضَ عُدْتَهُ وَإِنْ مَاتَ تَبِعْتَ جَنَازَتَهُ وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَّأْتَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ عَزَّيْتَهُ وَلَا تَسْتَعْلِ عَلَيْهِ بِالْبِنَاءِ فَتَحْجُبَ عَنْهُ الرِّيحَ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا تُؤْذِهِ وَإِذَا اشْتَرَيْتَ فَاكِهَةً فَأَهْدِ لَهُ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَدْخِلْهَا سِرًّا وَلَا يَخْرُجْ بِهَا وَلَدُكَ لِيَغِيظَ بِهَا وَلَدَهُ وَلَا تُؤْذِهِ بِقُتَارِ قِدْرِكَ إِلَّا أَنْ تَغْرِفَ لَهُ مِنْهَا » ثم قال « أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَبْلُغُ حَقَّ الْجَارِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ اللهُ » هكذا رواه عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . [2] قال مجاهد : كنت عند عبد الله بن عمر ، وغلام له يسلخ شاة فقال يا غلام ، إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى ، حتى قال ذلك مرارا. فقال له كم تقول هذا فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه .

---

(١) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أتدرون ما حق الجار ان استعان بك أعنته وان استقرضك أقرضته ـ الحديث : الخرائطى فى مكارم الاخلاق وابن عدى فى الكامل وهو ضعيف

(٢) حديث مجاهد كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلخ شاة فقال يا غلام اذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى الحديث : ابو داود والترمذى وقال حسن غريب

وقال هشام : كان الحسن لا يرى بأسا أن تطعم الجار اليهودى والنصرانى من أضحيتك . وقال أبوذر رضي الله عنه . أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم [١] وقال « إِذَا طَبَخْتَ قِدْرًا فَأَكْثِرْ مَاءهَا ثُمَّ انْظُرْ بَعْضَ أَهْلِ بَيْتٍ فِي جِيرَانِكَ فَاغْرِفْ لَهُمْ مِنْهَا » وقالت عائشة رضي الله عنها . قلت يارسول الله [٢] إن لى جارين ، أحدهما مقبل على ببابه ، والآخر ناء ببابه عنى وربما كان الذى عندى لا يسعهما ، فأيهما أعظم حقا ؟ فقال « الْمُقْبِلُ عَلَيْكَ بِبَابِهِ »

ورأى الصديق ولده عبد الرحمن وهو يناصى جارا له ، فقال لا تناص جارك ، فإن هذا يبقى والناس يذهبون . وقال الحسن بن عيسى النيسابورى : سألت عبد الله بن المبارك فقلت الرجل المجاور يأتينى فيشكو غلامى أنه أتى إليه أمرا ، والغلام ينكره ، فأكره أن أضربه ولعله برىء ، وأكره أن أدعه ، فيجد على جارى ، فكيف أصنع ؟ قال إن غلامك لعله أن يحدث حدثا يستوجب فيه الأدب ، فاحفظه عليه ، فإذا شكاه جارك فأدبه على ذلك الحدث فتكون قد أرضيت جارك ، وأدبته على ذلك الحدث . وهذا تلطف فى الجمع بين الحقين.

وقالت عائشة رضي الله عنها : خلال المكارم عشر ، تكون فى الرجل ولا تكون فى أبيه وتكون فى العبد ولا تكون فى سيده ، يقسمها الله تعالى لمن أحب . صدق الحديث ، وصدق الناس ، واعطاء السائل ، والمكافأة بالصنائع ، وصلة الرحم ، وحفظ الأمانة ، والتذمم للجار والتذمم للصاحب ؛ وقرى الضيف ، ورأسهن الحياء : وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمَاتِ لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « إِنَّ مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ الْمَسْكَنَ الْوَاسِعَ وَالْجَارَ الصَّالِحَ

---

(١) حديث ابى ذر اوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم اذا طبخت فأكثر المرق ثم انظر بعض اهل بيت من جيرانك فاغرف لهم منها: رواه مسلم

(٢) حديث عائشة قلت يارسول الله أن لى جارين ــ الحديث : رواه البخارى

(٣) حديث أبى هريرة يانساء المسلمين لاتحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة :رواه البخارى

(٤) حديث ان من سعادة المرء المسلم المسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهنىء:أحمد من حديث نافع ابن عبد الحارث وسعد بن أبى وقاص وحديث نافع أخرجه الحاكم وقال صحيح الاسناد

وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ » وقال عبد الله . قال رجل يارسول الله [١] كيف لى أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت ! قال « إِذَا سَمِعْتَ جِيرَانَكَ يَقُولُونَ قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ قَدْ أَسَأْتَ فَقَدْ أَسَأْتَ » وقال جابر رضي الله عنه . قال النبي صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ كَانَ لَهُ جَارٌ فِي حَائِطٍ أَوْ شَرِيكٌ فَلَا يَبِعْهُ حَتَّى يَعْرِضَهُ عَلَيْهِ » وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] أن الجار يضع جذعه فى حائط جاره شاء أم أبى . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدُكُمْ جَارَهُ أَنْ يَضَعَ خَشَبَةً فِي جِدَارِهِ » وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول ، مالى أراكم عنها معرضين ؟ والله لأرمينها بين أكتافكم . وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « مَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْراً عَسَلَهُ قِيلَ وَمَا عَسَلَهُ ؟ قال « يُحَبِّبُهُ إِلَى جِيرَانِهِ »

حقوق الأقارب والرحم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَنَا الرَّحْمٰنُ وَهٰذِهِ الرَّحِمُ شَقَقْتُ لَهَا اسْماً مِنِ اسْمِي فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ » وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث عبد الله قال رجل يارسول الله كيف لى أن أعلم اذا أحسنت أوأسأت قال اذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت: أحمد والطبرانى وعبد الله هوابن مسعود واسناده جيد

(٢) حديث جابر من كان له جار فى حائط أوشريك فلا يبعه حتى يعرضه عليه: ابن ماجه والحاكم دون ذكر الجار وقال صحيح الاسناد وهو عند الخرائطى فى مكارم الأخلاق بلفظ المصنف ولابن ماجه من حديث ابن عباس من كانت له أرض فأراد بيعها فليعرضها على جاره ورجاله رجال الصحيح

(٣) حديث أبى هريرة قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجار يضع جذعه فى حائط جاره شاء أم أبى: الخرائطى فى مكارم الأخلاق هكذا وهو متفق عليه بلفظ لا يمنعن أحدكم جاره أن يغرز خشبه فى حائطه: رواه ابن ماجه باسناد ضعيف واتفق عليه الشيخان من حديث أبى هريرة

(٤) حديث من أراد الله به خيرا عسله: أحمد من حديث أبى عنبسة الخولانى ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى الزهد من حديث عمرو بن الحق زاد الخرائطى قيل وما عسله قال حببه الى جيرانه وقال البيهقى يفتح له عملا صالحا قبل موته حتى يرضى عنه من حوله: واسناده جيد

(٥) حديث يقول الله أنا الرحمن وهذه الرحم ـ الحديث : متفق عليه من حديث عائشة

(١) مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ وَيُوَسَّعَ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » وفى رواية أخرى « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمْرِهِ وَيُوَسَّعَ لَهُ فِي رِزْقِهِ فَلْيَتَّقِ اللهَ وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) أى الناس أفضل ؟ قال « أَتْقَاهُمْ لِلّهِ وَأَوْصَلُهُمْ لِرَحِمِهِ وَآمَرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ » وقال أبو ذر رضي الله عنه : أوصانى خليلى عليه السلام (٣) بصلة الرحم وإن أدبرت ، وأمرنى أن أقول الحق وإن كان مراً . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنَّ الرَّحِمَ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ وَلَيْسَ الْوَاصِلُ الْمُكَافِئَ وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا انْقَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا » وقال عليه السلام (٥) « إِنَّ أَعْجَلَ الطَّاعَةِ ثَوَاباً صِلَةُ الرَّحِمِ حَتَّى أَنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ لَيَكُونُونَ فُجَّاراً فَتَنْمُو أَمْوَالُهُمْ وَيَكْثُرُ عَدَدُهُمْ إِذَا وَصَلُوا أَرْحَامَهُمْ » وقال زيد ابن أسلم : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) إلى مكة ، عرض له رجل ، فقال إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم ، فعليك ببنى مُدْلِجٍ . فقال عليه السلام « إِنَّ اللهَ قَدْ مَنَعَنِي مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ بِصِلَتِهِمِ الرَّحِمَ » وقالت أسماء بنت أبى بكر رضي الله عنهما (٧) : قدمت عليَّ أمى ، فقلت يارسول الله ، إن أمى قدمت عليّ وهى مشركة ، أفأصلها ؟ قال نعم .

---

(١) حديث من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع له فى رزقه فليتق الله وليصل رحمه : متفق عليه من حديث أنس دون قوله فليتق الله وهو بهذه الزيادة عند أحمد والحاكم من حديث على باسناد جيد

(٢) حديث أى الناس أفضل فقال أتقاهم لله وأوصلهم للرحم : أحمد والطبرانى من حديث درة بنت أبى لهب باسناد حسن

(٣) حديث أبى ذر أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم بصلة الرحم وإن أدبرت وأمرنى أن أقول الحق وإن كان مرا : أحمد وابن حبان وصححه

(٤) حديث ان الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل المكافىء ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها الطبرانى والبيهقى من حديث عبد الله بن عمرو وهو عند البخارى دون قوله الرحم معلقة بالعرش فرواها مسلم من حديث عائشة

(٥) حديث أعجل الطاعات ثوابا صلة الرحم ـ الحديث : ابن حبان من حديث أبى بكرة والخرائطى فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى الشعب من حديث عبد الرحمن بن عوف بسند ضعيف

(٦) حديث زيد بن أسلم لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة عرض له رجل فقال إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببنى مدلج فقال إن الله منعنى من بنى مدلج بصلتهم الرحم : الخرائطى فى مكارم الأخلاق وزاد وطعنهم فى لبات الابل وهو مرسل صحيح الاسناد

(٧) حديث أسماء بنت أبى بكر قدمت على أمى فقلت يا رسول الله قدمت علي أمى وهى مشركة أفأصلها قال نعم صليها : متفق عليه

وفي رواية أفأعطيها ؟ قال نعم صليها . وقال عليه السلام [١] « الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسَاكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ » [٢] ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط كان له يعجبه ، عملا بقوله تعالى (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ [١]) قال يارسول الله ، هو في سبيل الله وللفقراء والمساكين . فقال عليه السلام « وَجَبَ أَجْرُكَ عَلَى اللهِ فَاقْسِمْهُ فِي أَقَارِبِكَ » وقال عليه السلام [٣] « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الْكَاشِحِ » وهو في معنى قوله [٤] « أَفْضَلُ الْفَضَائِلِ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ وَتَصْفَحَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » وروي أن عمر رضي الله عنه كتب إلى عماله مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا . وإنما قال ذلك لأن التجاور يورث التزاحم على الحقوق ، وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم

حقوق الوالدين والولد

لا يخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم ، فأخص الأرحام وأمسها الولادة ، فيتضاعف تأكد الحق فيها . وقد قال صلى الله عليه وسلم [٥] « لَنْ يَجْزِيَ وَلَدٌ وَالِدَهُ حَتَّى يَجِدَهُ مَمْلُوكاً فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ » وقد قال صلى الله عليه وسلم [٦] « بِرُّ الْوَالِدَيْنِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ » وقد قال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم صدقة وصلة : الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه من حديث سلمان بن عامر الضبي

(٢) حديث لما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط له كان يعجبه عملا بقوله تعالى حتى تنفقوا مما تحبون الحديث أخرجه البخاري وقد تقدم

(٣) حديث أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح : أحمد والطبراني من حديث أبي أيوب وفيه الحجاج ابن أرطاة ورواه البيهقي من حديث أم كلثوم بنت عقبة

(٤) حديث أفضل الفضائل أن تصل من قطعك ـ الحديث : احمد من حديث معاذ بن انس بسند ضعيف والطبراني نحوه من حديث ابي امامة وقد تقدم

(٥) حديث لن يجزى ولد والده حتى يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه : مسلم من حديث ابي هريرة

(٦) حديث بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد : لم أجده هكذا وروي أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط من حديث أنس أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه قال هل بقي من والديك أحد قال أمي قال قابل الله في برها فاذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد واسناده حسن

(١) آل عمران : ٩٢

(١) « مَنْ أَصْبَحَ مُرْضِياً لِأَبَوَيْهِ أَصْبَحَ لَهُ بَابَانِ مَفْتُوحَانِ إِلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ أَمْسَى فَمِثْلُ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ وَاحِداً فَوَاحِداً وَإِنْ ظَلَمَا وَإِنْ ظَلَمَا وَإِنْ ظَلَمَا وَمَنْ أَصْبَحَ مُسْخِطاً لِأَبَوَيْهِ أَصْبَحَ لَهُ بَابَانِ مَفْتُوحَانِ إِلَى النَّارِ وَإِنْ أَمْسَى مِثْلُ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ وَاحِدٌ فَوَاحِدٌ وَإِنْ ظَلَمَا وَإِنْ ظَلَمَا وَإِنْ ظَلَمَا » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّ الْجَنَّةَ يُوجَدُ رِيحُهَا مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ وَلَا يَجِدُ رِيحَهَا عَاقٌّ وَلَا قَاطِعُ رَحِمٍ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « بِرَّ أُمَّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ فَأَدْنَاكَ » ويروى أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام ياموسى، إنه من برّ والديه وعقني كتبته بارا ، ومن برني وعق والديه كتبته عاقا . وقيل لما دخل يعقوب على يوسف عليهما السلام ، لم يقم له ، فأوحى الله إليه ، أتتعاظم أن تقوم لأبيك ؟ وعزتي وجلالي لا أخرجت من صلبك نبيا ، وقال صلى الله عليه وسلم : (٤) « مَا عَلَى أَحَدٍ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ أَنْ يَجْعَلَهَا لِوَالِدَيْهِ إِذَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ فَيَكُونُ لِوَالِدَيْهِ أَجْرُهَا وَيَكُونُ لَهُ مِثْلُ أُجُورِهِمَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمَا شَيْءٌ »

وقال مالك بن ربيعة : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) إذ جاءه رجل من بني سلمة ، فقال يارسول الله ، هل بقي عليّ من بر أبويّ شيء أبرهما به بعد وفاتهما ؟ قال « نَعَمْ الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا وَالاسْتِغْفَارُ لَهُمَا وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي

---

(١) حديث من أصبح مرضيا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ـ الحديث : البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس ولا يصح

(٢) حديث ان الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم : الطبراني في الصغير من حديث أبي هريرة دون ذكر القاطع وهي في الأوسط من حديث جابر إلا أنه قال من مسيرة ألف عام واسنادها ضعيف

(٣) حديث بر أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك : النسائي من حديث طارق المحاربي وأحمد والحاكم من حديث أبي رمثة ولأبي داود نحوه من حديث كليب بن منفعة عن جده وله وللترمذي والحاكم وصححه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده من أبر قال أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب وفي الصحيحين من حديث ابي هريرة قال رجل من أحق الناس بحسن الصحبة قال أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك لفظ مسلم

(٤) حديث ماعلى أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها لوالديه إذا كانا مسلمين ـ الحديث: الطبراني في الأوسط من حديث عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده بسند ضعيف دون قوله إذا كانا مسلمين

(٥) حديث مالك بن ربيعة بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاءه رجل من بني سلمة فقال هل بقي على من بر ابوي شيء ـ الحديث: ابو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح الاسناد

لَاتُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا » وقال صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ الْأَبُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « بِرُّ الْوَالِدَةِ عَلَى الْوَلَدِ ضِعْفَانِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « دَعْوَةُ الْوَالِدَةِ أَسْرَعُ إِجَابَةً » قيل يارسول الله ولِمَ ذاك ؟ قال « هِيَ أَرْحَمُ مِنَ الْأَبِ وَدَعْوَةُ الرَّحِمِ لَاتَسْقُطُ » وسأله رجل فقال يارسول الله من أبر ؟ فقال [٤] « بِرَّ وَالِدَيْكَ » فقال ليس لى والدان ، فقال « بِرَّ وَلَدَكَ كَمَا أَنَّ لِوَالِدَيْكَ عَلَيْكَ حَقًّا كَذَلِكَ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « رَحِمَ اللهُ وَالِداً أَعَانَ وَلَدَهُ عَلَى بِرِّهِ » أى لم يحمله على العقوق بسوء عمله . وقال صلى الله عليه وسلم « سَاوُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِي الْعَطِيَّةِ » وقد قيل : ولدك ريحانتك ، تشمها سبعا ، وخادمك سبعا ، ثم هو عدوك أو شريكك . وقال أنس رضى الله عنه . قال النبي صلى الله عليه وسلم [٦] « الْغُلَامُ يُعَقُّ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ وَيُسَمَّى وَيُمَاطُ عَنْهُ الْأَذَى فَإِذَا بَلَغَ سِتَّ سِنِينَ أُدِّبَ فَإِذَا بَلَغَ تِسْعَ سِنِينَ عُزِلَ فِرَاشُهُ فَإِذَا بَلَغَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ضُرِبَ عَلَى الصَّلَاةِ فَإِذَا بَلَغَ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً زَوَّجَهُ أَبُوهُ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ قَدْ أَدَّبْتُكَ وَعَلَّمْتُكَ وَأَنْكَحْتُكَ أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ فِتْنَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَعَذَابِكَ فِي الْآخِرَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٧] مِنْ حَقِّ الْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ

---

(١) حديث ان من ابر البر ان يصل الرجل اهل ود ابيه : مسلم من حديث ابن عمر

(٢) حديث بر الوالدة على الولد ضعفان: غريب بهذا اللفظ وقد تقدم قبل هذا ثلاثة أحاديث من حديث بهز بن حكيم وحديث ابى هريرة وهو معنى هذا الحديث

(٣) حديث الوالدة اسرع اجابة ـ الحديث : لم اقف له على اصل

(٤) حديث قال رجل يارسول الله من أبر قال بر والديك فقال ليس لى والدان فقال ولدك فكما أن لوالديك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق: أبو عمر النوقانى فى كتاب معاشرة الأهلين من حديث عثمان بن عفان دون قوله فكما أن لوالديك الخ وهذه القطعة رواها الطبرانى من حديث ابن عمر قال الدارقطنى فى العلل إن الأصح وقفه على ابن عمر

(٥) حديث رحم الله والدا أعان ولده على بره: أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من حديث على ابن أبى طالب وابن عمر بسند ضعيف ورواه النوقانى من رواية الشعبى مرسلا

(٦) حديث أنس الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمي ويماط عنه الأذى فاذا بلغ ست سنين أدب فاذا بلغ سبع سنين عزل فراشه فاذا بلغ ثلاثة عشر ضرب على الصلاة والصوم فاذا بلغ ستة عشر زوجه أبوه ثم اخذ بيده وقال قد أدبتك وعلمتك وانكحتك أعوذ بالله من فتنتك فى الدنيا وعذابك فى الآخرة ابو الشيخ ابن حبان فى كتاب الضحايا والعقيقة إلا أنه قال وادبوه لسبع وزوجوه لسبع عشرة ولم يذكر الصوم وفى اسناده من لم يسم

(٧) حديث من حق الولد على الوالد ان يحسن ادبه ويحسن اسمه : البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس وحديث عائشة وضعفها

أنْ يُحْسِنَ أَدَبَهُ وَيُحْسِنَ اسْمَهُ » وقال عليه السلام[١] « كُلُّ غُلَامٍ رَهِينٌ أَوْ رَهِينَةٌ بِعَقِيقَتِهِ تُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ » وقال قتادة : إذا ذبحت العقيقة أخذت صوفة منها فاستقبلت بها أوداجها ، ثم توضع على يافوخ الصبي ، حتى يسيل عنه مثل الخيط . ثم يغسل رأسه ، ويحلق بعد . وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك ، فشكا إليه بعض ولده . فقال هل دعوت عليه ، قال نعم . قال أنت أفسدته

ويستحب الرفق بالولد . رأى الأقرع بن حابس النبي صلى الله عليه وسلم[٢] وهو يقبل ولده الحسن . فقال إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم . فقال عليه السلام « إِنَّ مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ » وقالت عائشة رضي الله عنها : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] يوما « اغْسِلِي وَجْهَ أُسَامَةَ » فجعلت أغسله وأنا أنفة ، فضرب يدي ، ثم أخذه فغسل وجهه ، ثم قبله ، ثم قال « قَدْ أَحْسَنَ بِنَا إِذْ لَمْ يَكُنْ جَارِيَةً » وتعثر الحسن ، والنبي صلى الله عليه وسلم[٤] على منبره ، فنزل فحمله ، وقرأ قوله تعالى (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ[١]) وقال عبد الله ابن شداد . بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥] يصلي بالناس ، إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد ، فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر ، فلما قضى صلاته

---

(١) حديث كل غلام رهين أو رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه : أصحاب السنن من حديث سمرة قال الترمذي حسن صحيح

(٢) حديث رأى الأقرع بن حابس النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقبل ولده الحسن فقال إن لي عشرة من الولد ماقبلت واحدا منهم فقال من لايرحم لايرحم : البخاري من حديث أبي هريرة

(٣) حديث عائشة قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما اغسلي وجه أسامة فجعلت أغسله وأنا أنفة فضرب بيدي ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ثم قال قد أحسن بنا اذ لم يكن جارية : لم أجده هكذا ولأحمد من حديث عائشة أن أسامة عثر بعتبة الباب فدمي فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمصه ويقول لو كان أسامة جارية لحليتها ولكسوتها حتى أنفقها: واسناده صحيح

(٤) حديث عثر الحسين وهو على منبره صلى الله عليه وسلم فنزل فحمله وقرأ قوله تعالى انما أموالكم وأولادكم فتنة : أصحاب السنن من حديث بريدة في الحسن والحسين معا يمشيان ويعثران قال الترمذي حسن غريب

(٥) حديث عبد الله بن شداد بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس اذ جاء الحسن فركب عنقه النسائي من رواية عبد الله بن شداد عن ابيه وقال فيه الحسن او الحسين على الشك ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين

---

(١) التغابن : ١٥

قالوا قد أطلت السجود يا رسول الله ؛ حتى ظننا أنه قد حدث أمر ! فقال « إِنَّ ابْنِي قَدِ ارْتَحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ » وفى ذلك فوائد : إحداها القرب من الله تعالى . فإن العبد أقرب ما يكون من الله تعالى إذا كان ساجدا ؛ وفيه الرفق بالولد، والبر وتعليم لأمته . وقال صلى الله عليه وسلم[1] « رِيحُ الْوَلَدِ مِنْ رِيحِ الْجَنَّةِ وقال يزيد بن معاوية أرسل أبي إلى الأحنف بن قيس ، فلما وصل اليه قال له ياأبا بحر ، ماتقول فى الولد ؟ قال يا أمير المؤمنين ، ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، وبهم نصول على كل جليلة ، فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ؛ يمنحوك ودهم ؛ ويحبوك جهدهم ، ولا تكن عليهم ثقلا ثقيلا ، فيملوا حياتك ، ويودوا وفاتك ، ويكرهوا قربك . فقال له معاوية . لله أنت يا أحنف ! لقد دخلت عليّ وأنا مملوء غضبا وغيظا على يزيد . فلما خرج الأحنف من عنده رضي عن يزيد ، وبعث إليه بمائتى ألف درهم ، ومائتى ثوب . فأرسل يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ، ومائة ثوب ، فقاسمه إياها على الشطر .

فهذه هى الأخبار الدالة على تأكد حق الوالدين، وكيفية القيام بحقهما! تعرف مما ذكرناه فى حق الأخوة . فإن هذه الرابطة آكد من الأخوة ؛ بل يزيد ههنا أمران : أحدهما أن أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة فى الشبهات ، وإن لم تجب فى الحرام المحض حتى إذا كانا يتنغصان بانفرادك عنهما بالطعام ؛ فعليك أن تأكل معهما ؛ لأن ترك الشبهة ورع ورضا الوالدين حتم . وكذلك ليس لك أن تسافر فى مباح أو نافلة إلا باذنهما . والمبادرة إلى الحج الذى هو فرض الإسلام نفل ، لأنه على التأخير . والخروج لطلب العلم نفل إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ، ولم يكن فى بلدك من يعلمك . وذلك كمن يسلم ابتداء فى بلد ليس فيها من يعلمه شرع الإسلام ، فعليه الهجرة ، ولا يتقيد بحق الوالدين

قال أبو سعيد الخدري . هاجر رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] من اليمن وأراد الجهاد ، فقال عليه السلام « هَلْ بِالْيَمَنِ أَبَوَاكَ ؟ » قال نعم قال « هَلْ أَذِنَا لَكَ ؟ »

---

(١) حديث ريح الولد من ريح الجنة : الطبرانى فى الصغير والأوسط وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عباس وفيه مندل بن على ضعيف

(٢) حديث ابى سعيد الخدرى هاجر رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن واراد الجهاد فقال صلى الله عليه وسلم باليمن أبواك قال نعم ـ الحديث احمد وابن حبان دون قوله ما استطعت الخ

قال : لا. فقال عليه السلام « فَارْجِعْ إِلَى أَبَوَيْكَ فَاسْتَأْذِنْهُمَا فَإِنْ فَعَلاَ فَجَاهِدْ وَإِلاَّ فَبِرَّهُمَا مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرُ مَا تَلْقَى اللَّهَ بِهِ بَعْدَ التَّوْحِيدِ » وجاء آخر إليه صلى الله عليه وسلم [١] ليستشيره فى الغزو ، فقال « أَلَكَ وَالِدَةٌ ؟» قال نعم قال « فَالْزَمْهَا فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلَيْهَا » وجاء آخر يطلب البيعة على الهجرة ؛ وقال ماجئتك حتى [٢] أبكيت والدي ، فقال « ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « حَقُّ كَبِيرِ الإِخْوَةِ عَلَى صَغِيرِهِمْ كَحَقِّ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ » وقال عليه السلام [٤] « إِذَا اسْتَصْعَبَتْ عَلَى أَحَدِكُمْ دَابَّتُهُ أَوْ سَاءَ خُلُقُ زَوْجَتِهِ أَوْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَلْيُؤَذِّنْ فِي أُذُنِهِ »

حقوق المملوك

اعلم أن ملك النكاح قد سبقت حقوقه فى آداب النكاح ، فأما ملك اليمين فهو أيضا يقتضى حقوقا فى المعاشرة لابد من مراعاتها . فقد كان من آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] أن قال « اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ وَاكْسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا لاَ يُطِيقُونَ فَمَا أَحْبَبْتُمْ فَأَمْسِكُوا

(١) حديث جاء آخر الى النبي صلى الله عليه وسلم يستشيره فى الغزو فقال ألك والدة فقال نعم قال فالزمها فان الجنة تحت قدمها: النسائى وابن ماجه والحاكم من حديث معاوية بن جاهمة ان جاهمة أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال الحاكم صحيح الاسناد

(٢) حديث جاء آخر فقال ما جئتك حتى أبكيت والدى فقال ارجع اليهما فأضحكهما كما أبكيتهما: أبوداود والنسائى وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح الاسناد

(٣) حديث حق كبير الاخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده: أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من حديث أبى هريرة ورواه أبو داود فى المراسيل من رواية سعيد بن عمرو بن العاص مرسلا ووصله صاحب مسند الفردوس فقال عن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أبيه عن جده سعيد بن العاص واسناده ضعيف

(٤) حديث اذا استصعب على أحدكم دابته أوساء خلق زوجته أو أحد من أهل بيته فليؤذن فى أذنه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث الحسين بن على بن ابى طالب بسند ضعيف نحوه

(٥) حديث كان من آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطعموهم مما تأكلون الحديث الخ وهو مفرق فى عدة أحاديث فروى أبوداود من حديث على كان آخر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم وفى الصحيحين من حديث انس كان آخر وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضره الموت الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم ولهما من حديث أبى ذر أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولاتكلفوهم مايغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم لفظ رواية مسلم وفى رواية لأبى داود من لايمكم من مملوكيكم فأطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ومن لا يلايمكم منهم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله تعالى واسناده صحيح

وَمَا كَرِهتُمْ فَبِيعُوا وَلَا تُعَذِّبُوا خَلْقَ اللهِ فَإِنَّ اللهَ مَلَّكَكُمْ إِيَّاهُمْ وَلَوْ شَاءَ لَمَلَّكَهُمْ إِيَّاكُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم [١] « لِلْمَمْلُوكِ طَعَامُهُ وَكِسْوَتُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يُكَلَّفُ مِنَ الْعَمَلِ مَا لَا يُطِيقُ » وقال عليه السلام [٢] « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ خَبٌّ وَلَا مُتَكَبِّرٌ وَلَا خَائِنٌ وَلَا سَيِّئُ الْمَلَكَةِ » وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] فقال يارسول الله ، كم نعفو عن الخادم ؟ فصمت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « اعْفُ عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً » وكان عمر رضي الله عنه يذهب إلى العوالي في كل يوم سبت ، فإذا وجد عبدا في عمل لا يطيقه وضع عنه منه.

ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنه رأى رجلا على دابته ، وغلامه يسعى خلفه. فقال له ياعبدالله، احمله خلفك فإنما هو أخوك : روحه مثل روحك. فحمله ، ثم قال: لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مشي خلفه . وقالت جارية لأبي الدرداء : إني سممتك منذ سنة ، فما عمل فيك شيئا ! فقال لم فعلت ذلك ؟ فقالت أردت الراحة منك . فقال اذهبي فأنت حرة لوجه الله . وقال الزهري: متى قلت للمملوك أخزاك الله فهو حر. وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم قال من قيس بن عاصم. قيل فما بلغ من حلمه ؟ قال بينما هو جالس في داره ، إذ أتته خادمة له بسفود عليه شواء ، فسقط السفود من يدها على ابن له ، فعقره فمات ، فدهشت الجارية فقال ليس يسكن روع هذه الجارية إلا العتق، فقال لها أنت حرة لا بأس عليك . وكان عون بن عبد الله إذا عصاه غلامه قال: ما أشبهك بمولاك، مولاك يعصي مولاه ، وأنت تعصي مولاك . فأغضبه يوما، فقال إنما تريد أن أضربك اذهب فأنت حر . وكان عند ميمون بن مهران ضيف ، فاستعجل على جاريته بالعشاء فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة ، فعثرت وأراقتها على رأس سيدها ميمون ، فقال ياجارية

---

(١) حديث للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق: مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سيء الملكة: أحمد مجموعا والترمذي مفرقا وابن ماجه مقتصرا على سيء الملكة من حديث ابي بكر وليس عند احدهم متكبر وزاد احمد والترمذي البخيل والمنان وهو ضعيف وحسن الترمذي احد طريقيه

(٣) حديث ابن عمر جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله كم تعفو عن الخادم فصمت ثم قال اعف عنه كل يوم سبعين مرة أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح غريب

أحرقتنى، قالت يامعلم الخير، ومؤدب الناس، ارجع إلى ما قال الله تعالى؟ قال وما قال الله تعالى: قالت قال (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ [١]) قال قد كظمت غيظى. قالت (وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ [٢]) قال قد عفوت عنك قالت زد فإن الله تعالى ، يقول (والله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [٣]) قال أنت حرة لوجه الله تعالى

وقال ابن المنكدر . إن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] ضرب عبدا له فجعل العبد يقول أسألك بالله ، أسألك بوجه الله ، فلم يعفه . فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح العبد ، فانطلق إليه ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك يده ، فقال رسول الله « سَأَلَكَ بِوَجْهِ اللهِ فَلَمْ تُعْفِهِ فَلَمَّا رَأَيْتَنِي أَمْسَكْتَ يَدَكَ » قال فإنه حر لوجه الله يارسول الله . فقال « لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَسَفَعَتْ وَجْهَكَ النَّارُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « الْعَبْدُ إِذَا نَصَحَ لِسَيِّدِهِ وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ اللهِ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ » ولما أعتق أبو رافع بكى وقال : كان لى أجران فذهب أحدهما . وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَأَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ فَأَمَّا أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَالشَّهِيدُ ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَنَصَحَ لِسَيِّدِهِ ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ ، وَأَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ أَمِيرٌ مُسَلَّطٌ ، وَذُو ثَرْوَةٍ لَا يُعْطِي حَقَّ اللهِ ، وَفَقِيرٌ فَخُورٌ » وعن أبى مسعود الأنصارى قال [٤] بينا أنا أضرب غلاما لى ، إذ سمعت صوتا من خلفى ، اعلم يا أبا مسعود مرتين ، فالتفت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فألقيت السوط من يدى ، فقال «وَاللهِ

(١) حديث ابن المنكدر أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عبدا له فجعل العبد يقول أسألك بالله أسألك بوجه الله فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح العبد ـ الحديث ابن المبارك فى الزهد مرسلا وفى رواية لمسلم فى حديث أبى مسعود الآتى ذكره فجعل يقول أعوذ بالله قال فجعل يضربه فقال أعوذ برسول الله فتركه وفى رواية له فقلت هو حر لوجه الله فقال أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار

(٢) حديث إذا نصح العبد لسيده وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين : متفق عليه من حديث ابن عمر

(٣) حديث عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار فأول ثلاثة يدخلون الجنة الشهيد وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده ـ الحديث : الترمذى وقال حسن وابن حبان من حديث أبى هريرة

(٤) حديث أبى مسعود الأنصارى بينا أنا أضرب غلاما لى سمعت صوتا من خلفى اعلم أبا مسعود مرتين الحديث : رواه مسلم

(١) ، (٢) ، (٣) آل عمران : ١٣٤

لله أقدر عليك منك على هذا » وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الحلو فإنه أطيب لنفسه » رواه معاذ. وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه وليأكل معه فإن لم يفعل فليناوله لقمة » وفي رواية « إذا كفى أحدكم مملوكه صنعة طعامه فكفاه حره ومؤنته وقربه إليه فليجلسه وليأكل معه فإن لم يفعل فليناوله أو ليأخذ أكلة فليروغها » وأشار بيده « وليضعها في يده وليقل كل هذه »

ودخل على سلمان رجل وهو يعجن ، فقال ياأبا عبد الله ماهذا ؟ فقال بعثنا الخادم في شغل ، فكرهنا أن نجمع عليه عملين . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « من كانت عنده جارية فصانها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها فذلك له أجران » وقد قال صلى الله عليه وسلم (٤) « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »

فجملة حق المملوك أن يشركه في طعمته وكسوته ، ولا يكلفه فوق طاقته ، ولا ينظر إليه بعين الكبر والازدراء ، وأن يعفو عن زلته ، ويتفكر عند غضبه عليه بهفوته أو بجنايته في معاصيه وجنايته على حق الله تعالى ، وتقصيره في طاعته ، مع أن قدرة الله عليه فوق قدرته وروى فضالة بن عبيد أن النبي صلى الله عليه وسلم (٥) قال « ثلاثة لا يسأل عنهم رجل فارق الجماعة ، ورجل عصى إمامه فمات عاصياً ، فلا يسأل عنهما وامرأة غاب عنها زوجها وقد كفاها مؤنة الدنيا فتبرجت بعده فلا يسأل عنها ، وثلاثة لا يسأل عنهم رجل ينازع الله رداءه ورداؤه الكبرياء وإزاره العز ، ورجل في شك من الله ، وقنوط من رحمة الله »

تم كتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

---

(١) حديث معاذ إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الحلو فانه أطيب لنفسه : الطبراني في الأوسط والخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف

(٢) حديث أبي هريرة وليأكل معه فان أبى فليناوله وفي رواية إذا كفى أحدكم مملوكه صنعة طعامه الحديث متفق عليه مع اختلاف لفظ وهو في مكارم الأخلاق للخرائطي باللفظين اللذين ذكرهما المصنف غير أنه لم يذكر علاجه وهذه اللفظة عند البخاري

(٣) حديث من كانت عنده جارية فعالها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها فذلك له أجران : متفق عليه من حديث أبي موسى

(٤) حديث كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم

(٥) حديث فضيلة بن عبيد ثلاثة لا يسأل عنهم رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصيا ـ الحديث الطبراني والحاكم وصححه

کتاب آداب العزلة

كتاب آداب العزلة

وهو الكتاب السادس من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أعظم النعمة على خيرة خلقه وصفوته ، بأن صرف هممهم إلى مؤانسته وأجزل حظهم من التلذذ بمشاهدة آلائه وعظمته ، وروح أسرارهم بمناجاته وملاطفته وحقر فى قلوبهم النظر إلى متاع الدنيا وزهرتها ، حتى اغتبط بعزلته كل من طويت الحجب عن مجارى فكرته ، فاستأنس بمطالعة سبحات وجهه تعالى فى خلوته ، واستوحش بذلك عن الأنس بالأنس وإن كان من أخص خاصته . والصلاة على سيدنا محمد سيد أنبيائه وخيرته وعلى آله وصحابته سادة الحق وأئمته

أما بعد : فإن للناس اختلافاً كثيراً فى العزلة والمخالطة ، وتفضيل إحداهما على الأخرى مع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن غوائل تنفر عنها ، وفوائد تدعو إليها ، وميل أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة ، وتفضيلها على المخالطة . وما ذكرناه فى كتاب الصحبة من فضيلة المخالطة والمؤاخاة والمؤالفة ، يكاد يناقض ما مال إليه الأكثرون ، من اختيار الاستيحاش والخلوة ؛ فكشفُ الغطاء عن الحق فى ذلك مهم ، ويحصل ذلك برسم بابين

الباب الأول : فى نقل المذاهب والحجج فيها

الباب الثانى : فى كشف الغطاء عن الحق بحصر الفوائد والغوائل

الباب الأول

فى نقل المذاهب والأقاويل وذكر حجج الفريقين فى ذلك

أما المذاهب : فقد اختلف الناس فيها ، وظهر هذا الاختلاف بين التابعين . فذهب إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة ، سفيان الثورى ، وإبراهيم بن أدهم ، وداود الطائى وفضيل بن عياض ، وسليمان الخواص ، ويوسف بن أسباط ، وحذيفة المرعشي ، وبشر الحافى

وقال أكثر التابعين باستحباب المخالطة، واستكثار المعارف والإخوان ، والتألف والتحبب إلى المؤمنين ؛ والاستعانة بهم في الدين ، تعاونا على البر والتقوى . ومال إلى هذا سعيد بن المسيب والشعبي ، وابن أبي ليلى ، وهشام بن عروة ، وابن شبرمة ، وشريح ، وشريك بن عبد الله وابن عيينة ، وابن المبارك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وجماعة

والمأثور عن العلماء من الكلمات ؛ ينقسم إلى كلمات مطلقة تدل على الميل إلى أحد الرأيين وإلى كلمات مقرونة بما يشير إلى علة الميل . فلننقل الآن مطلقات تلك الكلمات ، لنبين المذاهب فيها ، وما هو مقرون بذكر العلة نورده عند التعرض للغوائل والفوائد فنقول :

قد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : خذوا بحظكم من العزلة . وقال ابن سيرين : العزلة عبادة . وقال الفضيل : كفى بالله محبا ، وبالقرءان مؤنساً ، وبالموت واعظاً . وقيل : اتخذ الله صاحباً ، ودع الناس جانباً . وقال أبو الربيع الزاهد ، لداود الطائي : عظني . قال: صم عن الدنيا ، واجعل فطرك الآخرة ، وفر من الناس فرارك من الأسد . وقال الحسن رحمه الله كلمات أحفظهن من التوراة ، قنع ابن آدم فاستغنى ، اعتزل الناس فسلم ، ترك الشهوات فصار حراً ، ترك الحسد فظهرت مروءته ، صبر قليلا فتمتع طويلا . وقال وهيب بن الورد : بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء ، تسعة منها في الصمت ، والعاشر في عزلة الناس. وقال يوسف ابن مسلم ، لعلي بن بكار : ما أصبرك على الوحدة ؟ وقد كان لزم البيت ، فقال : كنت وأنا شاب أصبر على أكثر من هذا ، كنت أجالس الناس ولا أكلمهم . وقال سفيان الثوري : هذا وقت السكوت ، وملازمة البيوت . وقال بعضهم : كنت في سفينة ، ومعنا شاب من العلوية ، فمكث معنا سبعاً لا نسمع له كلاماً ؛ فقلنا له ياهذا قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ولا نراك تخالطنا ولا تكلمنا ؟ فأنشأ يقول :

قليل الهم لا ولد يموت * ولا أمر يحاذره يفوت
قضى وطر الصبا وأفاد علما * فغايته التفرد والسكوت

وقال إبراهيم النخعي لرجل : تفقه ثم اعتزل . وكذا قال الربيع بن خثيم . وقيل كان مالك بن أنس يشهد الجنائز ، ويعود المرضى ويعطي الإخوان حقوقهم. فترك ذلك واحداً واحداً

حتى تركها كلها ، وكان يقول : لا يتهيأ للمرء أن يخبر بكل عذر له . وقيل لعمر ابن عبدالعزيز: لو تفرغت لنا ؟ فقال ذهب الفراغ ، فلا فراغ إلا عند الله تعالى. وقال الفضيل إنى لأجد للرجل عندى يدا إذا لقينى أن لا يسلم علىّ وإذا مرضت أن لا يعودنى . وقال أبو سليمان الدارانى : بينما الربيع بن خثيم جالس على باب داره ، إذ جاءه حجر فصك جبهته فشجه ، فجعل يمسح الدم ويقول : لقد وعظت ياربيع . فقام ودخل داره . فما جلس بعد ذلك على باب داره حتى أخرجت جنازته

وكان سعد بن أبى وقاص ؛ وسعيد بن زيد لزما بيوتهما بالعقيق ، فلم يكونا يأتيان المدينة لجمعة ولا غيرها ، حتى ماتا بالعقيق . وقال يوسف بن أسباط : سمعت سفيان الثورى يقول : والله الذى لا إله إلا هو ، لقد حلت العزلة . وقال بشر بن عبدالله: أقل من معرفة الناس فإنك لاتدرى ما يكون يوم القيامة فإن تكن فضيحة كان من يعرفك قليلا . ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم ، فقال له ألك حاجة ؟ قال نعم . قال ماهى ؟ قال أن لاتراني ولا أراك ولاتعرفني . وقال رجل لسهل . أريد أن أصحبك ، فقال إذا مات أحدنا فمن يصحب الآخر؟ قال الله ، قال فليصحبه الآن . وقيل للفضيل : إن عليا ابنك يقول ، لوددت أنى فى مكان أرى الناس ولا يرونى . فبكى الفضيل وقال : ياويح على، أفلا أتمها فقال لا أراهم ولا يرونى وقال الفضيل أيضا : من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما أفضل المجالس مجلس فى قعر بيتك لا ترى ولا ترى . فهذه أقاويل المائلين إلى العزلة

ذكر حجج المائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها

احتج هؤلاء بقوله تعالى (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا[١]) الآية وبقوله تعالى (فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ[٢]) امتن على الناس بالسبب المؤلف . وهذا ضعيف ، لأن المراد به تفرق الآراء ، واختلاف المذاهب فى معانى كتاب الله ، وأصول الشريعة . والمراد بالألفة نزع الغوائل من الصدور، وهي الأسباب المثيرة للفتن، المحركة للخصومات. والعزلة لاتنافى ذلك

(١) آل عمران : ١٠٥ (٢) آل عمران : ١٠٣

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم [١] « الْمُؤْمِنُ إِلْفٌ مَأْلُوفٌ وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ» وهذا أيضا ضعيف ، لأنه إشارة إلى مذمة سوء الخلق ، التي تمتنع بسببه المؤالفة ولا يدخل تحته الحسن الخلق ، الذى إن خالط ألف وأُلف، ولكنه ترك المخالطة اشتغالا بنفسه وطلبا للسلامة من غيره

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْراً خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلاَمِ مِنْ عُنُقِهِ » وَقال [٢] «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ فَمِيتَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ » وبقوله صلى الله عليه وسلم [٣] «مَنْ شَقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمُونَ فِي إِسْلاَمٍ دَامِجٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلاَمِ مِنْ عُنُقِهِ» وهذا ضعيف ، لأن المراد به الجماعة التي اتفقت آراؤهم على إمام بعقد البيعة ، فالخروج عليهم بغي وذلك مخالفة بالرأي وخروج عليهم ، وذلك محظور ، لاضطرار الخلق إلى إمام مطاع يجمع رأيهم ، ولا يكون ذلك إلا بالبيعة من الأكثر ، فالمخالفة فيها تشويش مثير للفتنة ، فليس فى هذا تعرض للعزلة

واحتجوا بنهيه صلى الله عليه وسلم عن الهجر فوق ثلاث ، إذ قال « [٤] مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ » وقال عليه السلام [٥] «لاَ يَحِلُّ لاِمْرِىءٍ مُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ وَالسَّابِقُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ »وقال«مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ [٦] سَنَةً فَهُوَ كَسَافِكِ دَمِهِ »

﴿ كتاب العزلة ﴾

(الباب الأول فى نقل المذاهب والحجج فيها)

(١) حديث المؤمن إلف مألوف ـ الحديث تقدم فى الباب الأول من آداب الصحبة

(٢) حديث من ترك الجماعة فمات فميتته جاهلية: مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم فى الباب الخامس من كتاب الحلال والحرام

(٣) حديث من شق عصا المسلمين والمسلمون فى إسلام دامج فقد خلع ربقة الاسلام :الطبرانى والخطابى فى العزلة من حديث ابن عباس بسند جيد

(٤) حديث من هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار : أبو داود من حديث أبى هريرة باسناد صحيح

(٥) حديث لا يحل لامرىء أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق بالصلح يدخل الجنة : متفق عليه من حديث أنس دون قوله والسابق بالصلح زاد فيه الطبرانى والذى يبدأ بالصلح يسبق إلى الجنة

(٦) حديث من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه: أبوداود من حديث أبى خراش السلمى واسمه حدرد ابن أبى حدرد واسناده صحيح

قالوا والعزلة هجره بالكلية . وهذا ضعيف ، لأن المراد به الغضب على الناس ، واللجاج فيه بقطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة . فلا يدخل فيه ترك المخالطة أصلا من غير غضب مع أن الهجر فوق ثلاث جائز في موضعين : أحدهما أن يرى فيه صلاحا للمهجور في الزيادة . والثاني أن يرى لنفسه سلامة فيه والنهي وإن كان عاما فهو محمول على ما وراء الموضعين المخصوصين ، بدليل ماروى عن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم[1] هجرها ذا الحجة والمحرم وبعض صفر . وروي عن عمر أنه صلى الله عليه وسلم[2] اعتزل نساءه وآلى منهن شهرا ، وصعد إلى غرفة له ، وهي خزانته ، فلبث تسعا وعشرين يوما ، فلما نزل ، قيل له إنك كنت فيها تسعا وعشرين ، فقال « الشَّهْرُ قَدْ يَكُونُ تِسْعاً وعِشْرِينَ » وروت عائشة رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال[3] « لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ لاَ تُؤْمَنُ بَوَائِقُهُ » فهذا صريح في التخصيص ، وعلى هذا ينزل قول الحسن رحمه الله حيث قال : هجران الأحمق قربة إلى الله . فإن ذلك يدوم إلى الموت ، إذ الحماقة لا ينتظر علاجها . وذكر عند محمد بن عمر الواقدي رجل هجر رجلا حتى مات ، فقال : هذا شيء قد تقدم فيه قوم ، سعد بن أبي وقاص كان مهاجرا لعمار بن ياسر حتى مات ، وعثمان بن عفان كان مهاجرا لعبد الرحمن بن عوف ، وعائشة كانت مهاجرة لحفصة وكان طاوس مهاجرا لوهب بن منبه حتى ماتا . وكل ذلك يحمل على رؤيتهم سلامتهم في المهاجرة

واحتجوا بما روى[4] أن رجلا أتى الجبل ليتعبد فيه ، فجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لاَ تَفْعَلْ أَنْتَ وَلاَ أَحَدٌ مِنْكُمْ لَصَبْرُ أَحَدِكُمْ فِي بَعْضِ مَوَاطِنِ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ عِبَادَةِ أَحَدِكُمْ وَحْدَهُ أَرْبَعِينَ عَاماً » ، والظاهر أن هذا إنما كان لما فيه من ترك الجهاد

---

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم هجر عائشة ذا الحجة والمحرم وبعض صفر قلت انما هجر زينب هذه المدة كما رواه أبو داود من حديث عائشة وسكت عليه فهو عنده صالح

(٢) حديث عمر أنه صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه وآلى منهن شهرا ـ الحديث : متفق عليه

(٣) حديث عائشة لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث الا أن يكون ممن لا يأمن بوائقه : ابن عدى وقال غريب المتن والاسناد وحديث عائشة عند أبي داود دون الاستثناء باسناد صحيح

(٤) حديث ان رجلا أتى الجبل ليتعبد فيه فجيء به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا تفعل الحديث : البيهقي من حديث عسعس بن سلامة قال ابن عبد البر يقولون ان حديثه مرسل وكذا ذكره ابن حبان في ثقات التابعين

مع شدة وجوبه فى ابتداء الإسلام ، بدليل ما روي عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [١] فمررنا بشعب فيه عيينة طيبة الماء فقال واحد من القوم : لو اعتزلت الناس فى هذا الشعب ، ولن أفعل ذلك حتى أذكره لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم « لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِهِ فِى أَهْلِهِ سِتِّينَ عَامًا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَتَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ؟ اغْزُوا فِى سَبِيلِ اللهِ فَإِنَّهُ مَنْ قَاتَلَ فِى سَبِيلِ اللهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ »

واحتجوا بما روى معاذ بن جبل ، أنه صلى الله عليه وسلم [٢] قال « إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ يَأْخُذُ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ وَالشَّارِدَةَ وَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ وَعَلَيْكُمْ بِالْعَامَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْمَسَاجِدِ » وهذا إنما أراد به من اعتزل قبل تمام العلم ، وسيأتى بيان ذلك وأن ذلك ينهى عنه إلا لضرورة

ذكر حجج

المائلين إلى تفضيل العزلة

احتجوا بقوله تعالى ، حكاية عن إبراهيم عليه السلام (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّى [١]) الآية ثم قال تعالى (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا [٢]) إشارة إلى أن ذلك ببركة العزلة . وهذا ضعيف لأن مخالطة الكفار لا فائدة فيها إلا دعوتهم إلى الدين ، وعند اليأس من إجابتهم فلا وجه إلا هجرهم

---

(١) حديث أبى هريرة غزونا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررنا بشعب فيه عيينة طية الماء غزيرة فقال واحد من القوم لو اعتزلت الناس فى هذا الشعب ـ الحديث : الترمذى وقال حسن صحيح والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم الا أن الترمذى قال سبعين عاما

(٢) حديث معاذ بن جبل الشيطان ذئب الانسان كذئب الغنم يأخذ القاصية : أحمد والطبرانى ورجاله ثقات الا أن فيه انقطاعا

---

(١) مريم : ٤٨ (٢) مريم : ٩٤

وإنما الكلام فى مخالطة المسلمين وما فيها من البركة ، لما روي أنه قيل يا رسول الله [١] الوضوء من جر مخمر أحب اليك أو من هذه المطاهر التى يتطهر منها الناس ؟ فقال « بَلْ مِنْ هَذِهِ الْمَطَاهِرِ الْتِمَاساً لِبَرَكَةِ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ » وروي أنه صلى الله عليه وسلم [٢] لما طاف بالبيت ، عدل إلى زمزم ليشرب منها ، فإذا التمر المنقع فى حياض الأدم وقد مغثه الناس بأيديهم ، وهم يتناولون منه ويشربون ، فاستسقى منه ، وقال اسقوني . فقال العباس إن هذا النبيذ شراب قد مغث وخيض بالأيدى، أفلا آتيك بشراب أنظف من هذا من جر مخمر فى البيت؟ فقال «اسْقُونِي مِنْ هَذَا الَّذِي يَشْرَبُ مِنْهُ النَّاسُ أَلْتَمِسُ بَرَكَةَ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ » فشرب منه. فإذاً كيف يستدل باعتزال الكفار والأصنام على اعتزال المسلمين مع كثرة البركة فيهم

واحتجوا أيضا بقول موسى عليه السلام (وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ [١]) وإنه فزع إلى العزلة عند اليأس منهم . وقال تعالى فى أصحاب الكهف (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ [٢]) أمرهم بالعزلة . وقد اعتزل نبينا صلى الله عليه وسلم [٣] قريشا لما آذوه وجفوه ، ودخل الشعب ! وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى أرض الحبشة ، ثم تلاحقوا به إلى المدينة ، بعد أن أعلى الله كلمته . وهذا أيضا

---

(١) حديث قيل له صلى الله عليه وسلم الوضوء من جر مخمر أحب اليك أو من هذه المطاهر التى يطهر منها الناس فقال بل من هذه المطاهر ـ الحديث: الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عمر وفيه ضعف

(٢) حديث لما طاف بالبيت عدل الى زمزم يشرب منها فاذا التمر منقع فى حياض الأدم قد مغثه الناس بأيديهم ـ الحديث: وفيه فقال اسقونى من هذا الذى يشرب منه الناس رواه الأزرقى فى تاريخ مكة من حديث ابن عباس بسند ضعيف ومن رواية طاوس مرسلا نحوه

(٣) حديث اعتزاله صلى الله عليه وسلم قريشا لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة الى الحبشة الحديث : رواه موسى بن عقبة فى المغازى ومن طريقه البيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب مرسلا ورواه ابن سعد فى الطبقات من رواية ابن شهاب على بن أبى بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام مرسلا أيضا ووصله من رواية أبى سلمة الحضرمى عن ابن عباس الا أن ابن سعد ذكر أن المشركين حصروا بنى هاشم فى الشعب وذكر موسى بن عقبة ان ابا طالب جمع بنى عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم ومغازى موسى بن عقبة أصح المغازى وذكر موسى بن عقبة أيضا أنه أمر أصحابه حين دخل الشعب بالخروج إلى أرض الحبشة ولأبى داود من حديث أبى موسى أمرنا النبى صلى الله عليه وسلم أن ننطلق إلى أرض النجاشى قال البيهقى وإسناده صحيح ولأحمد من حديث ابن مسعود بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى وروى ابن إسحق باسناد جيد ومن طريقه البيهقى فى الدلائل من حديث أم سلمة أن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده ـ الحديث

(١) الدخان ٢١ (٢) الكهف : ١٦

اعتزال عن الكفار بعد اليأس منهم ، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يعتزل المسلمين ، ولا من توقع إسلامه من الكفار . وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضا وهم مؤمنون ، وإنما اعتزلوا الكفار . وإنما النظر فى العزلة من المسلمين

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم [1] لعبد الله بن عامر الجهنى ، لما قال يارسول الله ، ما النجاة؟ قال « لِيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ » وروي أنه قيل له صلى الله عليه وسلم [2] أى الناس أفضل ؟ قال « مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى » قيل ثم من ؟ قال « رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ »

وفى الاحتجاج بهذه الأحاديث نظر . فأما قوله لعبد الله بن عامر ، فلا يمكن تنزيله إلا على ما عرفه صلى الله عليه وسلم بنور النبوة من حاله ، وأن لزوم البيت كان أليق به وأسلم له من المخالطة ، فإنه لم يأمر جميع الصحابة بذلك ، ورب شخص تكون سلامته فى العزلة لا فى المخالطة ، كما قد تكون سلامته فى القعود فى البيت ، وأن لا يخرج إلى الجهاد . وذلك لا يدل على أن ترك الجهاد أفضل . وفى مخالطة الناس مجاهدة ومقاساة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [4] « الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ » وعلى هذا ينزل قوله عليه السلام « رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ » فهذا إشارة إلى شرير بطبعه ، تتأذى الناس بمخالطته . وقوله « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّقِيَّ الْخَفِيَّ » إشارة إلى إيثار الخمول ، وتوقى الشهرة ، وذلك لا يتعلق بالعزلة

---

(١) حديث سأله عقبة بن عامر يارسول الله ما النجاة فقال ليسعك بيتك ـ الحديث : الترمذي من حديث عقبة وقال حسن

(٢) حديث أى الناس أفضل فقال مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله قيل ثم من قال رجل معتزل الحديث : متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى

(٣) حديث ان الله يحب العبد التقى النقى الخفى مسلم: من حديث سعد بن أبى وقاص

(٤) حديث الذي يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم : الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عمر ولم يسم الترمذي الصحابى قال شيخ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والطريق واحد

فكم من راهب معتزل تعرفه كافة الناس . وكم من مخالط خامل لا ذكر له ولا شهرة فهذا تعرض لأمر لا يتعلق بالعزلة . واحتجوا بما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه (١) « أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ ؟ » قالوا بلى يارسول الله . فأشار بيده نحو المغرب وقال « رَجُلٌ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ يَنْتَظِرُ أَنْ يُغِيرَ أَوْ يُغَارَ عَلَيْهِ . أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ بَعْدَهُ ؟ » وأشار بيده نحو الحجاز وقال « رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ يُقِيمُ الصَّلاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ وَيَعْلَمُ حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ اعْتَزَلَ شُرُورَ النَّاسِ »

فإذا ظهر أن هذه الأدلة لاشفاء فيها من الجانبين ، فلا بد من كشف الغطاء بالتصريح بفوائد العزلة وغوائلها ، ومقايسة بعضها بالبعض ، ليتبين الحق فيها .

الباب الثانى

فى فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق فى فضلها

اعلم أن اختلاف الناس فى هذا يضاهى اختلافهم فى فضيلة النكاح والعزوبة . وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، بحسب ما فصلناه من آفات النكاح وفوائده . فكذلك القول فيما نحن فيه . فلنذكر أولا فوائد العزلة ، وهي تنقسم إلى فوائد دينية ودنيوية ، والدينية تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات فى الخلوة ، والمواظبة على العبادة ، والفكر وتربية العلم ، وإلى تخلص من ارتكاب المناهى التى يتعرض الإنسان لها بالمخالطة كالرياء والغيبة والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة ، من جلساء السوء . وأما الدنيوية ، فتنقسم إلى ما يمكن من التحصيل بالخلوة ، كتمكن المحترف فى خلوته إلى مايخلص من محذورات يتعرض لها بالمخالطة ، كالنظر إلى زهرة الدنيا وإقبال الخلق عليها ، وطمعه فى الناس ، وطمع الناس فيه ، وانكشاف ستر مروءته بالمخالطة ، والتأذى بسوء خلق الجليس فى مرائه أو سوء ظنه ، أو نميمته أو محاسدته أو التأذى بثقله وتشويه خلقته ، وإلى هذا ترجع مجامع فوائد العزلة فلنحصرها فى ست فوائد

---

(١) ألا أنبئكم بخير الناس قالوا بلى قال فأشار بيده نحو المغرب وقال رجل أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغار عليه ـ الحديث : الطبرانى من حديث أم مبشر الا أنه قال نحو المشرق بدل المغرب وفيه ابن اسحق رواه بالعنعنة والترمذى والنسائى نحوه مختصرا من حديث ابن عباس قال الترمذي حديث حسن

الفائدة الأولى

التفرغ للعبادة والفكر ، والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق ، والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى فى أمر الدنيا والآخرة ، وملكوت السموات والأرض ، فإن ذلك يستدعى فراغا ، ولا فراغ مع المخالطة . فالعزلة وسيلة إليه . ولهذا قال بعض الحكماء لا يتمكن أحد من الخلوة إلا بالتمسك بكتاب الله تعالى ، والمتمسكون بكتاب الله تعالى هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله ، الذاكرون الله بالله ، عاشوا بذكر الله ، وماتوا بذكر الله ولقوا الله بذكر الله . ولا شك فى أن هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر ، فالعزلة أولى بهم . ولذلك كان صلى الله عليه وسلم [1] فى ابتداء أمره يتبتل فى جبل حراء ، وينعزل إليه ، حتى قوى فيه نور النبوة ، فكان الخلق لا يحجبونه عن الله ، فكان يبدنه مع الخلق وبقلبه مقبلا على الله تعالى ، حتى كان الناس يظنون أن أبا بكر خليله ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن استغراق همه بالله فقال [2] « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ » ولن يسع الجمع بين مخالطة الناس ظاهرا ، والإقبال على الله سرا ، إلا قوة النبوة . فلا ينبغى أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيطمع فى ذلك ولا يبعد أن تنتهى درجة بعض الأولياء إليه . فقد نقل عن الجنيد أنه قال : أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة ، والناس يظنون أنى أكلمهم . وهذا إنما يتيسر للمستغرق بحب الله استغراقا لا يبقى لغيره فيه متسع . وذلك غير منكر . ففى المشتهرين بحب الخلق ، من يخالط الناس ببدنه ، وهو لا يدرى ما يقول ، ولا ما يقال له ، لفرط عشقه لمحبوبه ، بل الذى دهاه ملم يشوش عليه أمراً من أمور دنياه ، فقد يستغرقه الهم بحيث يخالط الناس ولا يحس بهم

(الباب الثانى فى فوائد العزلة وغوائلها)

(١) حديث كان صلى الله عليه وسلم فى أول أمره يتبتل فى جبل حراء وينعزل اليه : متفق عليه من حديث عائشة نحوه فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه ـ الحديث :

(٢) حديث لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله : مسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

ولا يسمع أصواتهم ، لشدة استغراقه . وأمر الآخرة أعظم عند العقلاء ، فلا يستحيل ذلك فيه . ولكن الأولى بالأكثرين الاستعانة بالعزلة . ولذلك قيل لبعض الحكماء : ماالذى أرادوا بالخلوة واختيار العزلة ؟ فقال : يستدعون بذلك دوام الفكرة ، وتثبت العلوم فى قلوبهم ، ليحيوا حياة طيبة ، ويذوقوا حلاوة المعرفة . وقيل لبعض الرهبان : ماأصبرك على الوحدة ! فقال : ما أنا وحدى ، أنا جليس الله تعالى ، إذا شئت أن يناجينى قرأت كتابه وإذا شئت أن أناجيه صليت . وقيل لبعض الحكماء : إلى أي شيء أفضى بكم الزهد والخلوة؟ فقال إلى الأنس بالله . وقال سفيان بن عيينة : لقيت إبراهيم بن أدهم رحمه الله فى بلاد الشام فقلت له يا ابراهيم ، تركت خراسان ، فقال ما تهنأت بالعيش إلا ههنا ، أفر بدينى من شاهق إلى شاهق ، فمن يرانى يقول موسوس أو حمال أو ملاح . وقيل لغزوان الرقاشى : هبك لاتضحك ، فما يمنعك من مجالسة إخوانك ؟ قال إنى أصيب راحة قلبى فى مجالسة من عنده حاجتى . وقيل للحسن : يا أبا سعيد ، ههنا رجل لم نره قط جالسا إلا وحده خلف سارية فقال الحسن : إذا رأيتموه فأخبرونى به ، فنظروا إليه ذات يوم ، فقالوا للحسن هذا الرجل الذى أخبرناك به ، وأشاروا إليه . فمضى إليه الحسن وقال له : ياعبد الله ، أراك قد حببت إليك العزلة ، فما يمنعك من مجالسة الناس ؟ فقال أمر شغلنى عن الناس . قال فما يمنعك أن تأتى هذا الرجل الذى يقال له الحسن فتجلس إليه ؟ فقال أمر شغلنى عن الناس وعن الحسن فقال له الحسن : وما ذاك الشغل يرحمك الله؟ فقال إنى أصبح وأمسى بين نعمة وذنب فرأيت أن أشغل نفسى بشكر الله تعالى على النعمة ، والاستغفار من الذنب . فقال له الحسن: أنت ياعبد الله أفقه عندى من الحسن ، فالزم ما أنت عليه .

وقيل بينما أويس القرنى جالس، إذ أتاه هرم بن حيان، فقال له أويس: ماجاء بك ؟ قال جئت لآنس بك. فقال أويس: ما كنت أرى أن أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره. وقال الفضيل: إذا رأيت الليل مقبلا فرحت به ، وقلت أخلو بربى . وإذا رأيت الصبح أدركنى، استرجعت كراهية لقاء الناس ، وأن يجيئنى من يشغلنى عن ربى . وقال عبد الله بن زيد . طوبى لمن عاش فى الدنيا وعاش فى الآخرة . قيل له وكيف ذلك ؟ قال يناجي الله فى الدنيا ، ويجاوره فى الآخرة .

وقال ذو النون المصرى: سرور المؤمن ولذته فى الخلوة بمناجاة ربه. وقال مالك بن دينار من لم يأنس بمحادثة الله عز وجل عن محادثة المخلوقين ، فقد قل علمه ، وعمي قلبه ، وضيع عمره . وقال ابن المبارك . ماأحسن حال من انقطع إلى الله تعالى.

ويروى عن بعض الصالحين أنه قال : بينما أنا أسير فى بعض بلاد الشام ، إذا أنا بعابد خارج من بعض تلك الجبال . فلما نظر إلىّ ، تنحى إلى أصل شجرة ، وتستر بها . فقلت سبحان الله ، تبخل علي بالنظر إليك ! فقال يا هذا ، إنى أقمت فى هذا الجبل دهرا طويلا أعالج قلبي فى الصبر عن الدنيا وأهلها ، فطال فى ذلك تعبي ، وفنى فيه عمرى، فسألت الله تعالى أن لايجعل حظى من أيامى فى مجاهدة قلبي . فسكنه الله عن الاضطراب ، وألفه الوحدة والانفراد . فلما نظرت إليك ، خفت أن أقع في الأمر الأول ، فإليك عنى ، فإنى أعوذ من شرك برب العارفين ، وحبيب القانتين . ثم صاح واغَمّاهُ من طول المكث فى الدنيا ثم حول وجهه عنى ، ثم نفض يديه وقال : إليك عنى يادنيا ، لغيرى فتزينى ، وأهلك فغرى . ثم قال : سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخدمة ، وحلاوة الانقطاع إليه ، ماألهى قلوبهم عن ذكر الجنان ، وعن الحور الحسان ، وجمع همهم فى ذكره ، فلا شيء ألذ عندهم من مناجاته . ثم مضى وهو يقول : قدوس قدوس

فإذاً فى الخلوة أنس بذكر الله ، واستكثار من معرفة الله ، وفى مثل ذلك قيل

وإنى لأستغشى وما بى غشوة   لعل خيالا منك يلقى خياليا

وأخرج من بين الجلوس لعلنى   أحدث عنك النفس بالسر خاليا

ولذلك قال بعض الحكماء : إنما يستوحش الإنسان من نفسه، لخلو ذاته عن الفضيلة فيكثر حينئذ ملاقاة الناس ، ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم . فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة، ويستخرج العلم والحكمة، وقد قيل: الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس

فإذاً هذه فائدة جزيلة، ولكن فى حق بعض الخواص. ومن يتيسر له بدوام الذكر الأنس بالله أو بدوام الفكر التحقق فى معرفة الله ، فالتجرد له أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة، فإن غاية العبادات وثمرة المعاملات ، أن يموت الإنسان محبا لله، عارفا بالله، ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر ولا معرفة إلا بدوام الفكر . وفراغ القلب شرط فى كل واحد منهما ، ولا فراغ مع المخالطة

الفائدة الثانية

التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالبا بالمخالطة ، ويسلم منها في الخلوة وهي أربعة : الغيبة ، والنميمة ، والرياء ، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة ، التي يوجبها الحرص على الدنيا

أما الغيبة ، فإذا عرفت من كتاب آفات اللسان من ربع المهلكات وجوهها ، عرفت أن التحرز عنها مع المخالطة عظيم ، لا ينجو منها إلا الصديقون . فإن عادة الناس كافة التمضمض بأعراض الناس ، والتفكه بها ، والتنقل بحلاوتها ، وهي طعمتهم ولذتهم ، وإليها يستروحون من وحشتهم في الخلوة . فإن خالطتهم ووافقتهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى ، وإن سكت كنت شريكا ، والمستمع أحد المغتابين ، وإن أنكرت أبغضوك ، وتركوا ذلك المغتاب واغتابوك ، فازدادوا غيبة إلى غيبة ، وربما زادوا على الغيبة وانتهوا إلى الاستخفاف والشتم

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهو من أصول الدين ، وهو واجب كما سيأتي بيانه في آخر هذا الربع ، ومن خالط الناس فلا يخلو عن مشاهدة المنكرات ، فإن سكت عصى الله به ، وإن أنكر تعرض لأنواع من الضرر . إذ ربما يجره طلب الخلاص منها إلى معاص هي أكبر مما نهى عنه ابتداء . وفي العزلة خلاص من هذا . فإن الأمر في إهماله شديد ، والقيام به شاق . وقد قام أبو بكر رضي الله عنه خطيبا وقال : أيها الناس[1] إنكم تقرءون هذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ[1]) وإنكم تضعونها في غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إِذَا رَأَى النَّاسُ الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ » وقد قال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ حَتَّى يَقُولَ لَهُ مَا مَنَعَكَ إِذَا رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ فِي الدُّنْيَا أَنْ تُنْكِرَهُ ؟ فَإِذَا لَقَّنَ اللهُ لِعَبْدٍ حُجَّتَهُ قَالَ يَارَبِّ رَجَوْتُكَ وَخِفْتُ النَّاسَ »

---

(١) حديث أبي بكر انكم تقرؤن هذه الآية يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم وانكم لتضعونها في غير موضعها ــ الحديث : أصحاب السنن قال الترمذي حسن صحيح

(٢) حديث ان الله يسأل العبد حتى يقول مامنعك اذا رأيت المنكر في الدنيا أن تنكره ــ الحديث : ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري باسناد جيد

---

(١) المائدة : ١٠٥

وهذا إذا خاف من ضرب أو أمر لا يطاق . ومعرفة حدود ذلك مشكلة وفيه خطر ، وفى العزلة خلاص ، وفى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إثارة للخصومات ، وتحريك لغوائل الصدور ، كما قيل :

وكم سقت فى آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغضة المتنصح

ومن جرب الأمر بالمعروف ندم عليه غالبا ، فإنه كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه . فإذا سقط عليه ، يقول ياليتني تركته مائلا . نعم لو وجد أعوانا أمسكوا الحائط حتى يحكمه بدعامة لاستقام . وأنت اليوم لا تجد الأعوان، فدعهم وانج بنفسك

وأما الرياء ، فهو الداء العضال ، الذى يعسر على الأبدال والأوتاد الاحتراز عنه ، وكل من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راآهم، ومن راآهم وقع فيما وقعوا فيه، وهلك كما هلكوا وأقل ما يلزم فيه النفاق ، فإنك إن خالطت متعاديين ،ولم تلق كل واحد منهما بوجه يوافقه صرت بغيضا إليهما جميعا . وإن جاملتهما ، كنت من شرار الناس . وقال صلى الله عليه وسلم[1] « تَجِدُونَ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ » وقال عليه السلام[2] « إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ » وأقل ما يجب فى مخالطة الناس إظهار الشوق والمبالغة فيه ، ولا يخلو ذلك عن كذب ، إما فى الأصل ، وإما فى الزيادة . وإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال ، بقولك كيف أنت ؟ وكيف أهلك ؟ وأنت فى الباطن فارغ القلب من همومه ، وهذا نفاق محض . قال سرى لو دخل على أخ لى فسويت لحيتي بيدى لدخوله ، لخشيت أن أكتب فى جريدة المنافقين. وكان الفضيل جالسا وحده فى المسجد الحرام ، فجاء إليه أخ له ، فقال ما جاء بك؟ قال المؤانسة يا أبا على . فقال هى والله بالمواحشة أشبه . هل تريد إلا أن تتزين لى وأتزين لك؟ وتكذب لى وأكذب لك إما أن تقوم عنى ، أو أقوم عنك . وقال بعض العلماء: ما أحب الله عبدا إلا أحب أن لا يشعر به . ودخل طاوس على الخليفة هشام فقال : كيف أنت يا هشام؟ فغضب عليه وقال . لم لم تخاطبنى بأمير المؤمنين ؟ فقال: لأن جميع المسلمين ما اتفقوا على خلافتك، فخشيت أن أكون كاذبا

---

(١) حديث تجدون من شرار الناس ذا الوجهين: متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث ان من شر الناس ذا الوجهين: مسلم من حديث أبى هريرة وهو الذى قبله

فمن أمكنه أن يحترز هذا الاحتراز ، فليخالط الناس . وإلا فليرض بإثبات اسمه فى جريدة المنافقين ، فقد كان السلف يتلاقون ويحترزون فى قولهم كيف أصبحت ؟ وكيف أمسيت ؟ وكيف أنت ؟ وكيف حالك ؟ وفى الجواب عنه ، فكان سؤالهم عن أحوال الدين لاعن أحوال الدنيا : قال حاتم الأصم ، لحامد اللفاف : كيف أنت فى نفسك ؟ قال سالم معافى . فكره حاتم جوابه ، وقال ياحامد ، السلامة من وراء الصراط والعافية فى الجنة

وكان إذا قيل لعيسى صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت ؟ قال أصبحت لاأملك تقديم ماأرجو ، ولا أستطيع دفع ماأحاذر . وأصبحت مرتهنا بعملى ، والخير كله فى يدغيرى ولا فقير أفقر منى . وكان الربيع بن خثيم إذا قيل له كيف أصبحت؟ قال أصبحت من ضعفاء مذنبين ، نستوفى أرزاقنا ، وتنتظر آجالنا . وكان أبو الدرداء إذا قيل له كيف أصبحت ؟ قال أصبحت بخير إن نجوت من النار .وكان سفيان الثورى إذا قيل له كيف أصبحت؟ يقول أصبحت أشكر ذا إلى ذا ، وأذم ذا إلى ذا ، وأفر من ذا إلى ذا .وقيل لأويس القرنى كيف أصبحت ؟ قال كيف يصبح رجل إذا أمسى لايدرى أنه يصبح ؟ وإذا أصبح لايدرى أنه يمسى ؟ وقيل لمالك بن دينار كيف أصبحت ؟ قال أصبحت فى عمر ينقص ، وذنوب تزيد وقيل لبعض الحكماء كيف أصبحت ؟ قال أصبحت لاأرضى حياتى لمماتى ، ولا نفسى لربى وقيل لحكيم كيف أصبحت ؟ قال أصبحت آكل رزق ربى ،وأطيع عدوه ابليس .وقيل لمحمد بن واسع كيف أصبحت ؟ قال ماظنك برجل يرتحل كل يوم إلى الآخرة مرحلة ؟ وقيل لحامد اللفاف كيف أصبحت ؟ قال أصبحت أشتهى عافية يوم إلى الليل . فقيل له ألست فى عافية فى كل الأيام ؟ فقال العافية يوم لاأعصى الله تعالى فيه

وقيل لرجل وهو يجود بنفسه ماحالك ؟ فقال وما حال من يريد سفرا بعيدا بلا زاد ؟ ويدخل قبرا موحشا بلامؤنس ، وينطلق إلى ملك عدل بلاحجة ،وقيل لحسان بن أبى سنان ماحالك قال ما حال من يموت ثم يبعث ثم يحاسب ؛وقال ابن سيرين لرجل كيف حالك فقال وما حال من عليه خمسمائة درهم دينا وهو معيل ؟ فدخل ابن سيرين منزله،فأخرج له ألف درهم فدفعها اليه ، وقال خمسمائة اقض بها دينك ، وخمسمائة عد بها على نفسك وعيالك .ولم يكن عنده غيرها

ثم قال : والله لا أسأل أحدا حاله أبدا . وإنما فعل ذلك لأنه خشى أن يكون سؤاله من غير اهتمام بأمره ، فيكون بذلك مرائيا منافقا ، فقد كان سؤالهم عن أمور الدين ، وأحوال القلب فى معاملة الله . وإن سألوا عن أمور الدنيا فمن اهتمام ، وعزم على القيام بما يظهر لهم من الحاجة

وقال بعضهم . إنى لأعرف أقواما كانوا لا يتلاقون ، ولو حكم أحدهم على صاحبه بجميع ما يملكه لم عنمه ، وأرى الآن أقواما يتلاقون ويتساءلون ، حتى عن الدجاجة فى البيت ولو انبسط أحدهم لحبة من مال صاحبه لمنعه . فهل هذا إلا مجرد الرياء والنفاق ؟ وآية ذلك أنك ترى هذا يقول كيف أنت؟ ويقول الآخر كيف أنت؟ فالسائل لا ينتظر الجواب ، والمسؤل يشتغل بالسؤال ولا يجيب . وذلك لمعرفتهم بأن ذلك عن رياء وتكلف . ولعل القلوب لا تخلو عن ضغائن وأحقاد ، والألسنة تنطق بالسؤال . قال الحسن : إنما كانوا يقولون السلام عليكم ، إذا سلمت والله القلوب . وأما الآن ، فكيف أصبحت عافاك الله ؟ كيف أنت أصلحك الله ؟ فإن أخذنا بقولهم كانت بدعة لا كرامة ، فإن شاؤا غضبوا علينا ، وإن شاؤا لا . وإنما قال ذلك لأن البداية بقولك كيف أصبحت بدعة . وقال رجل لأبى بكر بن عياش كيف أصبحت ؟ فما أجابه ، وقال دعونا من هذه البدعة . وقال إنما حدث هذا فى زمان الطاعون ، الذى كان يدعى طاعون عمواس بالشام ، من الموت الذريع كان الرجل يلقاه أخوه غدوة فيقول كيف أصبحت من الطاعون؟ ويلقاه عشية فيقول كيف أمسيت ؟

والمقصود أن الالتقاء فى غالب العادات ، ليس يخلو عن أنواع من التصنع والرياء والنفاق وكل ذلك مذموم ، بعضه محظور ، وبعضه مكروه . وفى العزلة الخلاص من ذلك ، فإن من لقى الخلق ولم يخالقهم بأخلاقهم مقتوه واستثقلوه ، واغتابوه وتشمروا لإيذائه ، فيذهب دينهم فيه ، ويذهب دينه ودنياه فى الانتقام منهم

وأما مسارقة الطبع مما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم ، فهو داء دفين ، قلما يتنبه له العقلاء فضلا عن الغافلين . فلا يجالس الإنسان فاسقا مدة ، مع كونه منكرا عليه فى باطنه ، إلا ولو قاس نفسه إلى ماقبل مجالسته ، لأدرك بينهما تفرقة فى النفرة عن الفساد واستثقاله ، إذ يصير الفساد بكثرة المشاهدة هينا على الطبع ، فيسقط وقعه واستعظامه له

وإنما الوازع عنه شدة وقعه فى القلب ، فإذا صار مستصغرا بطول المشاهدة ، أوشك أن يحل القوة الوازعة ، ويذعن الطبع للميل إليه أو لما دونه. ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره ، استحقر الصغائر من نفسه . ولذلك يزدرى الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليه فتؤثر مجالستهم فى أن يستصغر ماعنده ، وتؤثر مجالسة الفقراء فى استعظام ما أُتيح له من النعم . وكذلك النظر إلى المطيعين والعصاة ، هذا تأثيره فى الطبع ، فمن يقصر نظره على ملاحظة أحوال الصحابة والتابعين فى العبادة والتنزه عن الدنيا ، فلا يزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار ، وإلى عبادته بعين الاستحقار . وما دام يرى نفسه مقصرا ، فلا يخلو عن داعية الاجتهاد ، رغبة فى الاستكمال ، واستتماما للاقتداء . ومن نظر إلى الأحوال الغالبة على أهل الزمان ، وإعراضهم عن الله ، وإقبالهم على الدنيا ، واعتيادهم المعاصى ، استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة فى الخير يصادفها فى قلبه ، وذلك هو الهلاك . ويكفى فى تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلا عن مشاهدته . وبهذه الدقيقة يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم [1] « عِنْدَ ذِكْرِ الصَّالِحِينَ تَنْزِلُ الرَّحْمَةُ » وإنما الرحمة دخول الجنة ولقاء الله . وليس ينزل عند الذكر عين ذلك ولكن سببه ، وهو انبعاث الرغبة من القلب ، وحركة الحرص على الاقتداء بهم ، والاستنكاف عما هو ملابس له من القصور والتقصير . ومبدأ الرحمة فعل الخير ، ومبدأ فعل الخير الرغبة ومبدأ الرغبة ذكر أحوال الصالحين ، فهذا معنى نزول الرحمة

والمفهوم من فحوى هذا الكلام عند الفطن ، كالمفهوم من عكسه ، وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة ، لأن كثرة ذكرهم تهون على الطبع أمر المعاصى ، واللعنة هى البعد ومبدأ البعد من الله هو المعاصى والإعراض عن الله ، بالإقبال على الحظوظ العاجلة ، والشهوات الحاضرة ، لا على الوجه المشروع . ومبدأ المعاصى سقوط ثقلها وتفاحشها عن القلب ، ومبدأ سقوط الثقل وقوع الأنس بها بكثرة السماع . وإذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم ؟ بل قد صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال [2] « مَثَلُ الْجَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ الْكِيرِ إِنْ لَمْ يَحْرِقْكَ بِشَرَرِهِ عَلِقَ بِكَ مِنْ رِيحِهِ » فكما أن الريح

---

(١) حديث عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة: ليس له أصل فى الحديث المرفوع وإنما هو قول سفيان ابن عيينة كذا رواه ابن الجوزى فى مقدمة صفوة الصفوة

(٢) حديث مثل الجليس السوء كمثل الكير ـ الحديث: متفق عليه من حديث أبى موسى

يعلق بالثوب ولا يشعر به ، فكذلك يسهل الفساد على القلب وهو لا يشعر به . وقال «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِنْ لَمْ يَهَبْ لَكَ مِنْهُ تَجِدْ رِيحَهُ » ولهذا أقول: من عرف من عالم زلة ، حرم عليه حكايتها لعلتين ، إحداهما أنها غيبة ، والثانية ، وهي أعظمهما أن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة ، ويسقط من قلوبهم استعظامهم الإقدام عليها ، فيكون ذلك سببا لتهوين تلك المعصية : فإنه مهما وقع فيها فاستنكر ذلك ، دفع الاستنكار وقال ، كيف يستبعد هذا منا وكلنا مضطرون إلى مثله ، حتى العلماء والعباد. ولو اعتقد أن مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ، ولا يتعاطاه موفق معتبر ، لشق عليه الإقدام . فكم من شخص يتكالب على الدنيا ، ويحرص على جمعها ، ويتهالك على حب الرياسة وتزيينها ويهون على نفسه قبحها ، ويزعم أن الصحابة رضي الله عنهم لم ينزهوا أنفسهم عن حب الرياسة ، وربما يستشهد عليه بقتال علي ومعاوية ، ويخمن في نفسه أن ذلك لم يكن لطلب الحق ، بل لطلب الرياسة ، فهذا الاعتقاد خطأ يهون عليه أمر الرياسة، ولوازمها من المعاصي والطبع اللئيم يميل إلى اتباع الهفوات ، والإعراض عن الحسنات . بل إلى تقدير الهفوة فيما لا هفوة فيه ، بالتنزيل على مقتضى الشهوة ، ليتعلل به . وهو من دقائق مكايد الشيطان ولذلك وصف الله المراغمين للشيطان فيها بقوله (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ [١]) وضرب صلى الله عليه وسلم لذلك مثلا [١] وقال « مَثَلُ الَّذِي يَجْلِسُ يَسْتَمِعُ الْحِكْمَةَ ثُمَّ لَا يَعْمَلُ إِلَّا بِشَرِّ مَا يَسْتَمِعُ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى رَاعِياً فَقَالَ لَهُ يَا رَاعِي اجْزُرْ لِي شَاةً مِنْ غَنَمِكَ فَقَالَ اذْهَبْ فَخُذْ خَيْرَ شَاةٍ فِيهَا فَذَهَبَ فَأَخَذَ بِأُذُنِ كَلْبِ الْغَنَمِ » وكل من ينقل هفوات الأئمة فهذا مثاله أيضا.

ومما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته ، أن أكثر الناس إذا رأوا مسلما أفطر في نهار رمضان ، استبعدوا ذلك منه استبعادا يكاد يفضي إلى اعتقادهم كفره . وقد يشاهدون من يخرج الصلوات عن أوقاتها ، ولا تنفر عنه طباعهم ، كنفرتهم عن تأخير الصوم . مع أن صلاة واحدة ، يقتضي تركها الكفر عند قوم، وحز الرقبة عند قوم

---

(١) حديث مثل الذي يسمع الحكمة ثم لا يحمل منها إلا شر مايسمع كمثل رجل أتى راعيا فقال يا راعي اجزر لي شاة من غنمك ـ الحديث : ابن ماجه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

---

(١) الزمر : ١٨

وترك صوم رمضان كله لايقتضيه . ولا سبب له إلا أن الصلاة تتكرر ، والتساهل فيها مما يكثر ، فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب . وذلك لو لبس الفقيه ثوبا من حرير أو خاتما من ذهب ، أو شرب من إناء فضة ، استبعدته النفوس ، واشتد إنكارها ، وقد يشاهد فى مجلس طويل ، لايتكلم إلا بما هو اغتياب للناس ، ولا يستبعد منه ذلك ، والغيبة أشد من الزنا ، فكيف لاتكون أشد من لبس الحرير ! ولكن كثرة سماع الغيبة،ومشاهدة المغتابين ، أسقط وقعها عن القلوب ، وهون على النفس أمرها

فتفطن لهذه الدقائق ، وفر من الناس فرارك من الأسد ، لأنك لاتشاهد منهم إلا مايزيد فى حرصك على الدنيا ، وغفلتك عن الآخرة ،ويهون عليك المعصية،ويضعف رغبتك فى الطاعة . فإن وجدت جليسا يذكرك الله رؤيته وسيرته ، فالزمه ولا تفارقه ، واغتنمه ولا تستحقره ، فإنها غنيمة العاقل، وضالة المؤمن . وتحقق أن الجليس الصالح خير من الوحدة وأن الوحدة خير من الجليس السوء . ومهما فهمتَ هذه المعانى ، ولاحظتَ طبعك ، والتفتَّ إلى حال من أردت مخالطته ، لم يخف عليك أن الأولى التباعد عنه بالعزلة ، أو التقرب إليه بالخلطة. وإياك أن تحكم مطلقا على العزلة ، أو على الخلطة . بأن إحداهما أولى. إذ كلٌّ مفصل فإطلاق القول فيه بلا أو نعم خلف من القول محض ، ولا حق فى المفصل إلا التفصيل .

الفائدة الثالثة

الخلاص من الفتن والخصومات،وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها،والتعرض لأخطارها فقلما تخلوا البلاد عن تعصبات ، وفتن وخصومات ، فالمعتزل عنهم فى سلامة منها .قال عبد الله ابن عمرو بن العاص : لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] الفتن ووصفها ، وقال « إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَخَفَتْ أَمَانَاتُهُمْ وَكَانُوا هَكَذَا» وشبك بين أصابعه،قلت هكذا فما تأمرنى ؟ فقال « الْزَمْ بَيْتَكَ وَأَمْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَخُذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ الْخَاصَّةِ وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ »

(١) حديث عبد الله بن عمرو بن العاص اذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم ـ الحديث : أبو داود والنسائي فى اليوم والليلة باسناد حسن

وروى أبو سعيد الخدرى ، أنه صلى الله عليه وسلم [١] قال « يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَماً يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ مِنْ شَاهِقٍ إِلَى شَاهِقٍ » وروى عبدالله بن مسعود ، أنه صلى الله عليه وسلم [٢] قال « سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَسْلَمُ لِذِي دِينٍ دِينُهُ إِلَّا مَنْ فَرَّ بِدِينِهِ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَى قَرْيَةٍ وَمِنْ شَاهِقٍ إِلَى شَاهِقٍ وَمِنْ حَجَرٍ إِلَى حَجَرٍ كَالثَّعْلَبِ الَّذِي يَرُوغُ » قيل له ومتى ذلك يارسول الله ؟ قال « إِذَا لَمْ تُنَلِ الْمَعِيشَةُ إِلَّا بِمَعَاصِي اللهِ تَعَالَى فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَانُ حَلَّتِ الْعُزُوبَةُ » قالوا وكيف ذلك يارسول الله وقد أمرتنا بالتزويج ؟ قال « إِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَانُ كَانَ هَلَاكُ الرَّجُلِ عَلَى يَدِ أَبَوَيْهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبَوَانِ فَعَلَى يَدَيْ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَعَلَى يَدَيْ قَرَابَتِهِ » قالوا وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال « يُعَيِّرُونَهُ بِضِيقِ الْيَدِ فَيَتَكَلَّفُ مَا لَا يُطِيقُ حَتَّى يُورِدَهُ ذَلِكَ مَوَارِدَ الْهَلَكَةِ » وهذا الحديث وإن كان فى العزوبة فالعزلة مفهومة منه . إذ لا يستغنى المتأهل عن المعيشة والمخالطة . ثم لا ينال المعيشة إلا بمعصية الله تعالى . ولست أقول هذا أوان ذلك الزمان ، فلقد كان هذا بأعصار قبل هذا العصر . ولأجله قال سفيان : والله لقد حلت العزلة . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] أيام الفتنة وأيام الهرج ، قلتُ وما الهرج ؟ قال « حِينَ لَا يَأْمَنُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ » قلت: فبم تأمرنى إن أدركت ذلك الزمان ؟ قال « كُفَّ نَفْسَكَ وَيَدَكَ وَادْخُلْ دَارَكَ » قال قلت يارسول الله أرأيت إن دخل عليّ دارى ؟ قال « فَادْخُلْ بَيْتَكَ »

---

(١) حديث أبى سعيد الخدرى يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن : رواه البخارى

(٢) حديث ابن مسعود سيأتى على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه الا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهق الى شاهق: تقدم فى النكاح

(٣) حديث ابن مسعود ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتنة وأيام الهرج قلت وما الهرج قال حين لا يأمن الرجل جليسه ـ الحديث : أبو داود مختصرا والخطابى فى العزلة بتمامه وفى اسناده عند الخطابى انقطاع ووصله أبو داود بزيادة رجل اسمه سالم يحتاج الى معرفته

قلت فإن دخـل علي بيتي ؟ قال « فَادْخُلْ مَسْجِدَكَ وَاصْنَعْ هَكَذَا » وقبض على الكوع « وَقُلْ رَبِّيَ اللهُ حَتَّى تَمُوتَ » وقال سعد لما دعي إلى الخروج أيام معاوية : لا . إلا أن تعطوني سيفا له عينان بصيرتان ، ولسان ينطق بالكافر فأقتله ، وبالمؤمن فأكف عنه . وقال مثلنا ومثلكم ، كمثل قوم كانوا على محجة بيضاء ، فبينما هم كذلك يسيرون ، إذ هاجت ريح عجاجة ، فضلوا الطريق ، فالتبس عليهم . فقال بعضهم الطريق ذات اليمين ، فأخـذوا فيها ، فتاهوا وضـلوا . وقال بعضهم ذات الشمال ، فأخـذوا فيها ، فتاهوا وضلوا . وأناخ آخرون ، وتوقفوا حتى ذهبت الريح ، وتبينت الطريق ، فسافروا . فاعتزل سعد وجماعة معه ، فارقوا الفتن ، ولم يخالطوا إلا بعد زوال الفتن

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، أنه لما بلغه [١] أن الحسين رضي الله عنه توجه إلى العراق تبعه فلحقه على مسيرة ثلاثة أيام . فقال له أين تريد ؟ فقال العراق فإذا معه طوامير وكتب فقال هذه كتبهم وبيعتهم ، فقال لا تنظر إلى كتبهم ، ولا تأتهم ، فأبى . فقال إني أحدثك حديثا ، إن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فخيره بين الدنيا والآخرة ، فاختار الآخرة على الدنيا ، وإنك بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لا يليها أحد منكم أبدا وما صرفها عنكم إلا للذي هو خير لكم . فأبى أن يرجع ، فاعتنقه ابن عمر وبكى ، وقال أستودعك الله من قتيل أو أسير . وكان في الصحابة عشرة آلاف ، فما خف أيام الفتنة أكثر من أربعين رجلا : وجلس طاوس في بيته . فقيل له في ذلك ، فقال فساد الزمان ، وحيف الأئمة ولما بنى عروة قصره بالعقيق ولزمه ، قيل له لزمت القصر ، وتركت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال رأيت مساجدكم لاهية ، وأسواقكم لاغية ، والفاحشة في فجاجكم عالية وفيما هناك عما أنتم فيه عافية . فإذاً الحذر من الخصومات ومثارات الفتن إحدى فوائد العزلة

---

(١) حديث ابن عمر انه لما بلغه أن الحسين توجه الى العراق لحقه على مسيرة ثلاثة أيام ـ الحديث : وفيه أنه صلى الله عليه وسلم خير بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة الطبراني مقتصرا على المرفوع رواه في الأوسط بذكر قصة الحسين مختصرة ولم يقل على مسيرة ثلاثة أيام وكذا رواه البزار بنحوه واسنادهما حسن

الفائدة الرابعة

الخلاص من شر الناس ، فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة ، ومرة بسوء الظن والتهمة ،ومرة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة ، التي يعسر الوفاء بها ، وتارة بالنميمة أو الكذب ، فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال مالا تبلغ عقولهم كنهه ، فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدخرونها لوقت تظهر فيه فرصة للشر ، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفظ عن جميع ذلك . ولذلك قال بعض الحكماء لغيره : أعلمك بيتين خير من عشرة آلاف درهم . قال ماهما ؟ قال

اخفض الصوت إن نطقت بليل والتفت بالنهار قبل المقال
ليس للقول رجعة حين يبدو بقبيح يكون أو بجمال

ولا شك أن من اختلط بالناس ، وشاركهم فى أعمالهم ، لا ينفك من حاسد وعدو يسيء الظن به ، ويتوهم أنه يستعد لمعاداته ، ونصب المكيدة عليه ، وتدسيس غائلة وراءه . فالناس مهما اشتد حرصهم على أمر ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم . وقد اشتد حرصهم على الدنيا ، فلا يظنون بغيرهم إلا الحرص عليها . قال المتنبي

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته فأصبح فى ليل من الشك مظلم

وقد قيل : معاشرة الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار . وأنواع الشر الذى يلقاه الإنسان من معارفه ، وممن يختلط به كثيرة . ولسنا نطول بتفصيلها . ففيما ذكرناه إشارة إلى مجامعها وفى العزلة خلاص من جميعها . وإلى هذا أشار الأكثر ممن اختار العزلة ، فقال أبو الدرداء أخبر تقله يروى مرفوعا . وقال الشاعر

من حمد الناس ولم يبلهم ثم بلاهم ذم من يحمد
وصار بالوحدة مستأنسا يوحشه الأقرب والأبعد

وقال عمر رضي الله عنه : فى العزلة راحة من القرين السوء . وقيل لعبد الله بن الزبير ألا تأتى المدينة فقال ما بقى فيها إلا حاسد نعمة ، أو فرح بنقمة . وقال ابن السماك

كتب صاحب لنا : أما بعد ، فإن الناس كانوا دواء يتداوى به ؛ فصاروا داء لا دواء له، ففر منهم فرارك من الأسد . وكان بعض الأعراب يلازم شجرا ويقول :هو نديم فيه ثلاث خصال إن سمع منى لم ينم عليّ ، وإن تفلت فى وجهه احتمل منى، وإن عربدت عليه لم يغضب . فسمع الرشيد ذلك فقال : زهدنى فى الندماء . وكان بعضهم قد لزم الدفاتر والمقابر، فقيل له فى ذلك فقال : لم أر أسلم من وحدة ، ولا أوعظ من قبر ، ولا جليسا أمتع من دفتر .وقال الحسن رضي الله عنه : أردت الحج ، فسمع ثابت البنانى بذلك،وكان أيضا من أولياء الله فقال : بلغنى أنك تريد الحج فأحببت أن أصحبك . فقال له الحسن : ويحك ، دعنا نتعاشر بستر الله علينا إنى أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه.وهذه إشارة إلى فائدة أخرى فى العزلة ، وهو بقاء الستر على الدين ، والمروءة والأخلاق ، والفقر وسائر العورات . وقد مدح الله سبحانه المتسترين فقال(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ[1])وقال الشاعر

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عارا أن يزول التجمل

ولا يخلو الإنسان فى دينه ودنياه ، وأخلاقه وأفعاله عن عورات ، الأولى فى الدين والدنيا سترها ، ولا تبقى السلامة مع انكشافها . وقال أبو الدرداء : كان الناس ورقا لا شوك فيه ؛ فالناس اليوم شوك لا ورق فيه . وإذا كان هذا حكم زمانه ، وهو فى أواخر القرن الأول فلا ينبغى أن يشك فى أن الأخير شر . وقال سفيان بن عيينة : قال لى سفيان الثورى فى اليقظة فى حياته ، وفى المنام بعد وفاته : أقلل من معرفة الناس ، فإن التخلص منهم شديد. ولا أحسب أنى رأيت ما أكره إلا ممن عرفت . وقال بعضهم : جئت إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده ، وإذا كلب قد وضع حنكه على ركبته ؛ فذهبت أطرده ، فقال دعه يا هذا ، هذا لا يضر ولا يؤذى ؛ وهو خير من الجليس السوء . وقيل لبعضهم : ما حملك على أن تعتزل الناس؟ قال: خشيت أن أسلب دينى ولا أشعر. وهذه إشارة إلى مسارقة الطبع من أخلاق القرين السوء وقال أبو الدرداء: اتقوا الله واحذروا الناس ، فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلا أدبروه ،ولا ظهر جواد إلا عقروه ، ولا قلب مؤمن إلا خربوه . وقال بعضهم : أقلل المعارف ، فإنه أسلم لدينك وقلبك ، وأخف لسقوط الحقوق عنك . لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق وعسر القيام بالجميع . وقال بعضهم : أنكر من تعرف ، ولا تتعرف إلى من لا تعرف

---

(١) البقرة : ٢٧٣

الفائدة الخامسة

أن ينقطع طمع الناس عنك ، وينقطع طمعك عن الناس . فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد . فإن رضا الناس غاية لاتدرك . فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى . ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنازة ، وعيادة المريض ، وحضور الولائم والإملاكات وفيها تضييع الأوقات ، و تعرض للآفات . ثم قد تعوق عن بعضها العوائق ، وتستقبل فيها المعاذير ، ولا يمكن إظهار كل الأعذار ، فيقولون له قمت بحق فلان ، وقصرت فى حقنا . ويصير ذلك سبب عداوة ، فقد قيل : من لم يعد مريضا فى وقت العيادة ، اشتهى موته خيفة من تخجيله إذا صح على تقصيره . ومن عمم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم ولو خصص استوحشوا . وتعميمهم بجميع الحقوق لايقدر عليه المتجرد له طول الليل والنهار ، فكيف من له مهم يشغله فى دين أو دنيا ! قال عمرو بن العاص : كثرة الأصدقاء كثرة الغرماء . وقال ابن الرومى

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرن من الصحاب

فإن الداء أكثر ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب

وقال الشافعى رحمه الله : أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام

وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضا فائدة جزيلة ، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه ، وانبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة فى أكثر الأحوال فيتأذى بذلك . ومهما اعتزل لم يشاهد . وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع . ولذلك قال الله تعالى (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ [1]) وقال صلى الله عليه وسلم [1] « انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ دُونَكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ » وقال عون بن عبد الله : كنت أجالس الأغنياء ، فلم أزل مغموما . كنت أرى ثوبا أحسن من ثوبى ، ودابة أفره من دابتى ، فجالست الفقراء فاسترحت . وحكي أن المزنى رحمه الله

---

(١) حديث انظروا الى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فانه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم : مسلم من حديث أبى هريرة

---

(١) طه : ١٣١

خرج من باب جامع الفسطاط ، وقد أقبل ابن عبد الحكم فى موكبه ، فبهره مارأى من حسن حاله وحسن هيئته ، فتلا قوله تعالى (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ [1]) ثم قال : بلى أصبر وأرضى . وكان فقيرا مقلا . فالذى هو فى بيته لا يبتلى بمثل هذه الفتن فإن من شاهد زينة الدنيا ، فإما أن يقوى دينه ويقينه فيصبر ، فيحتاج إلى أن يتجرع مرارة الصبر ، وهو أمرّ من الصبر ، أو تنبعث رغبته ، فيحتال فى طلب الدنيا ، فيهلك هلاكا مؤبدا ، أما فى الدنيا فبالطمع الذى يخيب فى أكثر الأوقات ، فليس كل من يطلب الدنيا تتيسر له ، وأما فى الآخرة فبإيثاره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى والتقرب إليه . ولذلك قال ابن الاعــــرابى

إذا كان باب الذل من جانب الغنى سموت إلى العلياء من جانب الفقر

أشار إلى أن الطمع يوجب فى الحال ذلا

الفائدة السادسة

الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمق ، ومقاساة حمقهم وأخلاقهم . فإن رؤية الثقيل هى العمى الأصغر . قيل للأعمش : مم عمشت عيناك ؟ قال من النظر إلى الثقلاء

ويحكى أنه دخل عليه أبو حنيفة فقال : فى الخبر أن [1] من سلب الله كريمتيه عوضه الله عنهما ماهو خير منهما ، فما الذى عوضك ؟ فقال فى معرض المطايبة : عوضنى الله منهما أنه كفانى رؤية الثقلاء وأنت منهم . وقال ابن سيرين : سمعت رجلا يقول : نظرت إلى ثقيل مرة فغشى علىّ . وقال جالينوس : لكل شىء حمى ، وحمى الروح النظر إلى الثقلاء . وقال الشافعي رحمه الله : ماجالست ثقيلا إلا وجدت الجانب الذى يليه من بدنى ، كأنه أثقل علىّ من الجانب الآخر

---

(١) حديث من سلب الله كريمته عوضه عنها ماهو خير منها : الطبرانى باسناد ضعيف من حديث جرير من سلبت كريمتيه عوضته عنها الجنة وله ولأحمد نحوه من حديث أبى أمامة بسند حسن وللبخارى من حديث أنس يقول الله تبارك وتعالى اذا ابتليت عبدى بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة يريد عينيه

(١) الفرقان : ٢٠

وهذه الفوائد ماسوى الأولين ، متعلقة بالمقاصد الدنيوية الحاضرة . ولكنها أيضا تتعلق بالدين . فإن الإنسان مهما تأذى برؤية ثقيل ، لم يأمن أن يغتابه ، وأن يستنكر ماهو صنع الله . فإذا تأذى من غيره بغيبة أو سوء ظن ، أو محاسدة أو نميمة أو غيرذلك ، لم يصبر عن مكافأته . وكل ذلك يجر إلى فساد الدين . وفى العزلة سلامة عن جميع ذلك فليفهم .

آفات العزلة

إعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية مايستفاد بالاستعانة بالغير ، ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة . فكل مايستفاد من المخالطة يفوت بالعزلة ، وفواته من آفات العزلة . فانظر إلى فوائد المخالطة ، والدواعى إليها ماهى ، وهي التعليم والتعلم ، والنفع والانتفاع ، والتأديب والتأدب والاستئناس والإيناس ، ونيل الثواب وإنالته فى القيام بالحقوق ، واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها . فلنفصل ذلك ، فإنها من فوائد المخالطة وهى سبع

الفائدة الأولى

التعليم والتعلم . وقد ذكرنا فضلهما فى كتاب العلم . وهما أعظم العبادات فى الدنيا ، ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة . إلا أن العلوم كثيرة ، وعن بعضها مندوحة ، وبعضها ضرورى فى الدنيا . فالمحتاج إلى التعلم لما هو فرض عليه عاص بالعزلة . وإن تعلم الفرض ، وكان لا يتأتى منه الخوض فى العلوم ، ورأى الاشتغال بالعبادة فليعتزل . وإن كان يقدر على التبرز فى علوم الشرع والعقل ، فالعزلة فى حقه قبل التعلم غاية الخسران . ولهذا قال النخعي وغيره . تفقه ثم اعتزل . ومن اعتزل قبل التعلم فهو فى الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر فى هوس وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها ، ولا ينفك فى أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور يخيب سعيه ، ويبطل عمله بحيث لا يدرى . ولا ينفك اعتقاده فى الله وصفاته عن أوهام يتوهمها ، ويأنس بها ، وعن خواطر فاسدة تعتريه فيها ، فيكون فى أكثر أحواله ضحكة للشيطان ، وهو يرى نفسه من العبّاد . فالعلم هو أصل الدين ، فلا خير فى عزلة العوام والجهال ، أعنى من لا يحسن العبادة فى الخلوة ، ولا يعرف جميع ما يلزمه فيها

فمثال النفس مثال مريض يحتاج إلى طبيب متلطف يعالجه. فالمريض الجاهل إذا خلا بنفسه عن الطبيب قبل أن يتعلم الطب ، تضاعف لا محالة مرضه . فلا تليق العزلة إلا بالعالم

وأما التعليم ففيه ثواب عظيم ، مهما صحت نية المعلم والمتعلم . ومهما كان القصد إقامة الجاه والاستكثار بالأصحاب والأتباع ، فهو هلاك الدين . وقد ذكرنا وجه ذلك في كتاب العلم

وحكم العالم فى هذا الزمان أن يعتزل إن أراد سلامة دينه فإنه لا يرى مستفيدا يطلب فائدة لدينه ، بل لا طالب إلا لكلام مزخرف ، يستميل به العوام فى معرض الوعظ أو لجدل معقد يتوصل به إلى إفحام الأقران ، ويتقرب به إلى السلطان ، ويستعمل فى معرض المنافسة والمباهاة . وأقرب علم مرغوب فيه المذهب ، ولا يطلب غالبا إلا للتوصل إلى التقدم على الأمثال ، وتولى الولايات ، واجتلاب الأموال . فهؤلاء كلهم يقتضى الدين والحزم الاعتزال عنهم . فإن صودف طالب لله ، ومتقرب بالعلم إلى الله ، فأكبر الكبائر الاعتزال عنه ، وكتمان العلم منه . وهذا لا يصادف فى بلدة كبيرة أكثر من واحد أو اثنين إن صودف

ولا ينبغى أن يغتر الإنسان بقول سفيان : تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله فإن الفقهاء يتعلمون لغير الله ، ثم يرجعون إلى الله ، وانظر إلى أواخر أعمار الأكثرين منهم واعتبرهم أنهم ماتوا وهم هلكى على طلب الدنيا ، ومتكالبون عليها ، أو راغبون عنها وزاهدون فيها ، وليس الخبر كالمعاينة

واعلم أن العلم الذي أشار إليه سفيان ، هو علم الحديث وتفسير القرءان ، ومعرفة سير الأنبياء والصحابة . فإن فيها التخويف والتحذير ، وهو سبب لإثارة الخوف من الله ، فإن لم يؤثر فى الحال أثر فى المآل . وأما الكلام والفقه المجرد ، الذى يتعلق بفتاوى المعاملات وفصل الخصومات المذهب منه والخلاف ، لا يرد الراغب فيه للدنيا إلى الله . بل لا يزال متماديا فى حرصه إلى آخر عمره . ولعل ما أودعناه هذا الكتاب ، إن تعلمه المتعلم رغبة فى الدنيا ، فيجوز أن يرخص فيه ، إذ يرجى أن ينزجر به فى آخر عمره ، فإنه مشحون بالتخويف بالله ، والترغيب فى الآخرة ، والتحذير من الدنيا . وذلك مما يصادف فى الأحاديث وتفسير القرءان ، ولا يصادف فى كلام ، ولا فى خلاف ، ولا فى مذهب . فلا ينبغى أن يخادع الإنسان نفسه ، فإن المقصر العالم بتقصيره أسعد حالا من الجاهل المغرور ، أو المتجاهل المغبون .

وكل عالم اشتد حرصه على التعليم ، يوشك أن يكون غرضه القبول والجاه ، وحظه تلذذ النفس فى الحال ، باستشعار الإدلال على الجهال والتكبر عليهم . (١) فآفة العلم الخيلاء ، كما قال صلى الله عليه وسلم . ولذلك حكي عن بشر ، أنه دفن سبعة عشر قمطرا من كتب الأحاديث التي سمعها ، وكان لا يحدث . ويقول : إنى أشتهى أن أحدث ، فلذلك لا أحدث ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت . ولذلك قال : حدثنا باب من أبواب الدنيا . وإذا قال الرجل حدثنا ، فإنما يقول أوسعوا لى . وقالت رابعة العدوية لسفيان الثورى : نعم الرجل أنت لولا رغبتك فى الدنيا . قال وفيما ذا رغبت ؟ قالت فى الحديث . ولذلك قال أبو سليمان الدارانى : من تزوج أو طلب الحديث ، أو اشتغل بالسفر ، فقد ركن إلى الدنيا .

فهذه آفات قد نبهنا عليها فى كتاب العلم ، والحزمُ الاحتراز بالعزلة ، وترك الاستكثار من الأصحاب ما أمكن . بل الذى يطلب الدنيا بتدريسه وتعليمه ، فالصواب له إن كان عاقلا فى مثل هذا الزمان أن يتركه . فلقد صدق أبو سليمان الخطابى حيث قال : دع الراغبين فى صحبتك والتعلم منك ، فليس لك منهم مال ولا جمال ، إخوان العلانية أعداء السر ، إذا لقوك تملقوك ، وإذا غبت عنهم سلقوك ، من أتاك منهم كان عليك رقيبا ، وإذا خرج كان عليك خطيبا ، أهل نفاق ونميمة ، وغل وخديعة ، فلا تغتر باجتماعهم عليك ، فما غرضهم العلم بل الجاه والمال ، وأن يتخذوك سلما إلى أوطارهم وأغراضهم ، وحمارا فى حاجاتهم ، إن قصرت فى غرض من أغراضهم ، كانوا أشد أعدائك ، ثم يعدون ترددهم إليك دالة عليك ويرونه حقا واجبا لديك ، ويفرضون عليك أن تبذل عرضك وجاهك ودينك لهم ، فتعادى عدوهم ، وتنصر قريبهم وخادمهم ووليهم ، وتنتهض لهم سفيها ، وقد كنت فقيها ، وتكون لهم تابعا خسيسا ، بعد أن كنت متبوعا رئيسا ، ولذلك قيل اعتزال العامة ، مروءة تامة : فهذا معنى كلامه ، وإن خالف بعض ألفاظه . وهو حق وصدق . فإنك ترى المدرسين فى رق دائم ، وتحت حق لازم ، ومنة ثقيلة ممن يتردد إليهم ، فكأنه يهدى تحفه إليهم ، ويرى حقه

---

(١) حديث آفة العلم الخيلاء المعروف ما رواه مطين فى مسنده من حديث على بن أبى طالب بسند ضعيف آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء

واجبا عليهم . وربما لايختلف إليه ما لم يتكفل برزق له على الإدرار ، ثم إن المدرس المسكين قد يعجز عن القيام بذلك من ماله ، فلا يزال متردداً إلى أبواب السلاطين ، ويقاسى الذل والشدائد مقاساة الذليل المهين ، حتى يكتب له على بعض وجوه السحت مال حرام ، ثم لايزال العامل يسترقه ويستخدمه ، ويمتهنه ويستذله ، إلى أن يسلم إليه ما يقدره نعمة مستأنفة من عنده عليه ، ثم يبقى في مقاساة القسمة على أصحابه ، إن سوّى بينهم مقته المميزون ونسبوه إلى الحمق وقلة التمييز ، والقصور عن درك مصارفات الفضل ، والقيام فى مقادير الحقوق بالعدل . وإن فاوت بينهم سلقه السفهاء بألسنة حدود ، وثاروا عليه ثوران الأساود والآساد . فلا يزال فى مقاساتهم فى الدنيا ، وفى مطالبة ما يأخذه ويفرقه عليهم فى العقبى والعجب أنه مع هذا البلاء كله ، يمنى نفسه بالأباطيل ، ويدليها بحبل الغرور . ويقول لها : لاتفترى عن صنيعك ، فإنما أنت بما تفعلينه مريدة وجه الله تعالى ، ومذيعة شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وناشرة علم دين الله ، وقائمة بكفاية طلاب العلم من عباد الله ، وأموال السلاطين لا مالك لها ، وهى مرصدة للمصالح ، وأى مصلحة أكبر من تكثير أهل العلم ؟ فبهم يظهر الدين ويتقوى أهله . ولو لم يكن ضحكة للشيطان لعلم بأدنى تأمل ، أن فساد الزمان لا سبب له إلا كثرة أمثال أولئك الفقهاء ، الذين يأكلون ما يجدون ، ولا يميزون بين الحلال والحرام ، فتلحظهم أعين الجهال ، ويستجرؤن على المعاصى باستجرائهم ، اقتداء بهم ، واقتفاء لآثارهم . ولذلك قيل : مافسدت الرعية إلا بفساد الملوك ، وما فسدت الملوك إلا بفساد العلماء . فنعوذ بالله من الغرور والعمى ، فإنه الداء الذي ليس له دواء .

الفائدة الثانية

النفع والانتفاع . أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة . وذلك لايتأتى إلا بالمخالطة والمحتاج إليه مضطر إلى ترك العزلة . فيقع فى جهاد من المخالطة إن طلب موافقة الشرع فيه كما ذكرناه فى كتاب الكسب ، فإن كان معه مال لو اكتفى به قانعا لأقنعه ، فالعزلة أفضل له إذا انسدت طرق المكاسب فى الأكثر إلا من المعاصى . إلا أن يكون غرضه الكسب للصدقة ، فإذا اكتسب من وجهه وتصدق به ، فهو أفضل من العزلة ، للاشتغال بالنافلة

وليس بأفضل من العزلة للاشتغال بالتحقق فى معرفة الله ، ومعرفة علوم الشرع ، ولا من الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، والتجرد بها لذكر الله . أعنى من حصل له أنس بمناجاة الله عن كشف وبصيرة ، لا عن أوهام وخيالات فاسدة

وأما النفع ، فهو أن ينفع الناس ، إما بماله أو ببدنه . فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة ففى النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب ، وذلك لاينال إلا بالمخالطة . ومن قدر عليها مع القيام بحدود الشرع فهى أفضل له من العزلة ، إن كان لايشتغل فى عزلته إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية . وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب ، بدوام ذكر أو فكر فذلك لايعدل به غيره ألبتـــة

الفائدة الثالثة

التأديب والتأدب . ونعنى به الارتياض بمقاساة الناس ، والمجاهدة فى تحمل أذاهم كسرا للنفس ، وقهرا للشهوات . وهى من الفوائد التى تستفاد بالمخالطة ، وهى أفضل من العزلة فى حق من لم تتهذب أخلاقه ، ولم تذعن لحدود الشرع شهواته . ولهذا انتدب خدام الصوفية فى الرباطات ، فيخالطون الناس بخدمتهم ، وأهل السوق للسؤال منهم ، كسرا لرعونة النفس واستمدادا من بركة دعاء الصوفية ، المنصرفين بهممهم إلى الله سبحانه . وكان هذا هو المبدأ فى الأعصار الخالية . و الآن قد خالطته الأغراض الفاسدة ، ومال ذلك عن القانون ، كما مالت سائر شعائر الدين ، فصار يطلب من التواضع بالخدمة التكثير بالاستتباع ، والتذرع إلى جمع المال ، والاستظهار بكثرة الأتباع . فإن كانت النية هذه فالعزلة خير من ذلك ، ولو إلى القبر . وإن كانت النية رياضة النفس ، فهى خير من العزلة فى حق المحتاج إلى الرياضة وذلك مما يحتاج إليه فى بداية الإرادة . فبعد حصول الارتياض ، ينبغى أن يفهم أن الدابة لايطلب من رياضتها عين رياضتها ، بل المراد منها أن تتخذ مركبا ، يقطع به المراحل ويطوى على ظهره الطريق . والبدن مطية للقلب ، يركبها ليسلك بها طريق الآخرة . وفيها شهوات إن لم يكسرها جمحت به فى الطريق . فمن اشتغل طول العمر بالرياضة . كان كمن اشتغل طول عمر الدابة برياضتها ولم يركبها . فلا يستفيد منها إلا الخلاص فى الحال من عضها ورفسها

ورمحها ، وهى لعمرى فائدة مقصودة ، ولكن مثلها حاصل من البهيمة الميتة ، وإنما تراد الدابة لفائدة تحصل من حياتها . فكذلك الخلاص من ألم الشهوات فى الحال ، يحصل بالنوم والموت ، ولا ينبغى أن يقنع به . كالراهب الذى قيل له ياراهب ، فقال ماأنا راهب ، إنما أنا كلب عقور ، حبست نفسى حتى لاأعقر الناس. وهذا حسن بالإضافة إلى من يعقر الناس ولكن لاينبغي أن يقتصر عليه ؛ فإن من قتل نفسه أيضا لم يعقر الناس، بل ينبغى أن يتشوف إلى الغاية المقصودة بها . ومن فهم ذلك واهتدى إلى الطريق وقدر على السلوك ، استبان له أن العزلة أعون له من المخالطة. فالأفضل لمثل هذا الشخص المخالطة أولا والعزلة آخرا

وأما التأديب فإنما نعنى به أن يروض غيره . وهو حال شيخ الصوفية معهم. فإنه لايقدر على تهذيبهم إلا بمخالطتهم: وحاله حال المعلم ، وحكمه حكمه . ويتطرق إليه من دقائق الآفات والرياء ، مايتطرق إلى نشر العلم . إلا أن مخايل طلب الدنيا من المريدين الطالبين للارتياض ، أبعد منها من طلبة العلم . ولذلك يرى فيهم قلة ، وفى طلبة العلم كثرة . فينبغي أن يقيس ماتيسر له من الخلوة ، بما تيسر له من المخالطة وتهذيب القوم ، وليقابل أحدهما بالآخر ، وليؤثر الأفضل . وذلك يدرك بدقيق الاجتهاد ، ويختلف بالأحوال والأشخاص فلا يمكن الحكم عليه مطلقا بنفى ولا إثبات

الفائدة الرابعة

الاستئناس والإيناس. وهو غرض من يحضر الولائم والدعوات ، ومواضع المعاشرة والأنس . وهذا يرجع إلى حظ النفس فى الحال . وقد يكون ذلك على وجه حرام ، بمؤانسة من لاتجوز مؤانسته . أو على وجه مباح . وقد يستحب ذلك لأمر الدين ، وذلك فيمن يستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله فى الدين ، كالأنس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى وقد يتعلق بحظ النفس ، ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب، لتهييج دواعى النشاط فى العبادة . فإن القلوب إذا أكرهت عميت . ومهما كان فى الوحدة وحشة ، وفى المجالسة أنس يروح القلب ، فهي أولى . إذ الرفق فى العبادة من حزم العبادة .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ اللهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا » وهذا أمر لا يستغنى عنه . فإن النفس لا تألف الحق على الدوام مالم تروح. وفي تكليفها الملازمة داعية للفترة . وهذا عنى بقوله عليه السلام « إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ » والإيغال فيه برفق دأب المستبصرين. ولذلك قال ابن عباس : لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس . وقال مرة : لدخلت بلادا لا أنيس بها . وهل يفسد الناس إلا الناس ؟ فلا يستغنى المعتزل إذاً عن رفيق ، يستأنس بمشاهدته ومحادثته فى اليوم والليلة ساعة . فليجتهد فى طلب من لا يفسد عليه فى ساعته تلك سائر ساعاته . فقد قال صلى الله عليه وسلم [2] « الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ » وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء فى أمور الدين ، وحكاية أحوال القلب ، وشكواه وقصوره عن الثبات على الحق ، والاهتداء إلى الرشد . ففى ذلك متنفس ومتروح للنفس . وفيه مجال رحب لكل مشغول بإصلاح نفسه . فإنه لا تنقطع شكواه ولو عمر أعمارا طويلة والراضى عن نفسه مغرور قطعا . فهذا النوع من الاستئناس فى بعض أوقات النهار ، ربما يكون أفضل من العزلة فى حق بعض الأشخاص . فليتفقد فيه أحوال القلب ، وأحوال الجليس أولا ، ثم ليجالس

الفائدة الخامسة

فى نيل الثواب وإنالته

أما النيل ، فبحضور الجنائز ، وعيادة المرضى ، وحضور العيدين . وأما حضور الجمعة فلا بد منه . وحضور الجماعة فى سائر الصلوات أيضا لا رخصة فى تركه ، إلا لخوف ضرر ظاهر ، يقاوم مايفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه . وذلك لا يتفق إلا نادرا . وكذلك فى حضور الإملاكات والدعوات ثواب ، من حيث إنه إدخال سرور على قلب مسلم

وأما إنالته ، فهو أن يفتح الباب لتعوده الناس ، أو ليعزوه فى المصائب ، أو يهنوه على النعم . فإنهم ينالون بذلك ثوابا . وكذلك إذا كان من العلماء ، وأذن لهم فى الزيارة ، نالوا ثواب الزيارة ، وكان هو بالتمكين سببا فيه

---

(١) حديث ان الله لا يمل حتى تملوا : تقدم

(٢) حديث المرء على دين خليله : تقدم فى آداب الصحبة

فينبغي أن يزن ثواب هذه المخالطات بآفاتها التي ذكرناها ، وعند ذلك قد ترجح العزلة وقد ترجح المخالطة، فقد حكى عن جماعة من السلف ، مثل مالك وغيره، ترك إجابة الدعوات وعيادة المرضى ، وحضور الجنائز . بل كانوا أحلاس بيوتهم ، لا يخرجون إلا إلى الجمعة أو زيارة القبور . وبعضهم فارق الأمصار، وانحاز إلى قلل الجبال، تفرغا للعبادة، وفرارا من الشواغل

الفائدة السادسة

من المخالطة التواضع . فإنه من أفضل المقامات ، ولا يقدر عليه في الوحدة . وقد يكون الكبر سببا في اختيار العزلة . فقد روي في الإسرائيليات ، أن حكيما من الحكماء صنف ثلثمائة وستين مصحفا في الحكمة ، حتى ظن أنه قد نال عند الله منزلة . فأوحى الله إلى نبيه قل لفلان إنك قد ملأت الأرض نفاقا ، وإني لا أقبل من نفاقك شيئا . قال فتخلى وانفرد في سرب تحت الأرض ، وقال الآن قد بلغت رضا ربي . فأوحى الله إلى نبيه ، قل له إنك لن تبلغ رضاي حتى تخالط الناس وتصبر على أذاهم . فخرج فدخل الأسواق ، وخالط الناس وجالسهم وواكلهم ، وأكل الطعام بينهم ، ومشى في الأسواق معهم . فأوحى الله تعالى إلى نبيه ، الآن قد بلغ رضاي . فكم من معتزل في بيته وباعثه الكبر ، ومانعه عن المحافل أن لا يوقر أو لا يقدم ، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله، وأبقى لطراوة ذكره بين الناس

وقد يعتزل خيفة من أن تظهر مقابحه لو خالط ، فلا تعتقد فيه الزهد والاشتغال بالعبادة فيتخذ البيت سترا على مقابحه ، إبقاء على اعتقاد الناس في زهده وتعبده ، من غير استغراق وقت في الخلوة بذكر أو فكر . وعلامة هؤلاء أنهم يحبون أن يزاروا ولا يحبون أن يزوروا ويفرحون بتقرب العوام والسلاطين إليهم ، واجتماعهم على بابهم وطرقهم، وتقبيلهم أيديهم على سبيل التبرك . ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذي يبغض إليه المخالطة وزيارة الناس، لبغض إليه زياراتهم له ، كما حكيناه عن الفضيل حيث قال : وهل جئتني إلا لأتزين لك وتتزين لي وعن حاتم الأصم أنه قال للأمير الذي زاره : حاجتي أن لا أراك ولا تراني. فمن ليس مشغولا مع نفسه بذكر الله ، فاعتزاله عن الناس سببه شدة اشتغاله بالناس ، لأن قلبه متجرد للالتفات إلى نظرهم إليه بعين الوقار والاحترام

والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه : أحدها: أن التواضع والمخالطة لاتنقص من منصب من هو متكبر بعلمه أو دينه . إذ كان علي رضي الله عنه يحمل التمر والملح فى ثوبه ويده ويقول :

لاينقص الكامل من كماله ما جر من نفع إلى عياله

وكان أبو هريرة وحذيفة وأبي وابن مسعود رضي الله عنهم ، يحملون حزم الحطب وجرب الدقيق على أكتافهم . وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول وهو والى المدينة والحطب على رأسه ، طرّقوا لأميركم . وكان سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم [١] يشترى الشيء . فيحمله إلى بيته بنفسه ، فيقول له صاحبه أعطنى أحمله ، فيقول « صَاحِبُ الشَّيْءِ أَحَقُّ بِحَمْلِهِ » وكان الحسن بن على رضي الله عنهما يمر بالسؤال ، وبين أيديهم كسر ، فيقولون هلم إلى الغذاء يا ابن رسول الله ، فكان ينزل ويجلس على الطريق ، ويأكل معهم ويركب ويقول : إن الله لايحب المستكبرين .

الوجه الثانى:أن الذى شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه ، وتحسين اعتقادهم فيه مغرور لأنه لو عرف الله حق المعرفة ، علم أن الخلق لايغنون عنه من الله شيئا ، وأن ضرره ونفعه بيد الله ، ولا نافع ولا ضار سواه . وأن من طلب رضا الناس ومحبتهم بسخط الله ، سخط الله عليه ، وأسخط عليه الناس . بل رضا الناس غاية لاتنال ، فرضا الله أولى بالطلب .ولذلك قال الشافعي ليونس بن عبد الأعلى : والله ما أقول لك إلا نصحا ، إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل ، فانظر ماذا يصلحك فافعله . ولذلك قيل :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

ونظر سهل إلى رجل من أصحابه فقال له : اعمل كذا وكذا ، لشيء أمره به . فقال يا أستاذ ، لا أقدر عليه لأجل الناس. فالتفت إلى أصحابه وقال : لاينال عبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين : عبد تسقط الناس من عينه ، فلا يرى فى الدنيا إلا خالقه

---

(١) حديث كان يشترى الشيء ويحمله الى بيته بنفسه فيقول له صاحبه اعطنى أحمله فيقول صاحب المتاع أحق بحمله : أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف فى حمله السراويل الذى اشتراها

وأنّ أحدا لايقدر على أن يضره ولاينفعه ، وعبـد سقطت نفسه عن قلبه ، فلا يبالى بأي حال يرونه . وقال الشافعي رحمه الله : ليس من أحد إلا وله محب ومبغض ، فإذا كان هكذا فكن مع أهل طاعة الله . وقيل للحسن يا أبا سـعيد ، إن قوما يحضرون مجلسك ، ليس بغيتهم إلا تتبع سقطات كلامك ، وتعنيتك بالسؤال . فتبسم وقال للقائل :هون على نفسك فإنى حدثت نفسي بسكنى الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت ، وما حدثت نفسى بالسلامة من الناس ، لأنى قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم . وقال موسى صلى الله عليه وسلم : يارب احبس عنى ألسنة الناس . فقال ياموسى هذا شيء لم اصطفه لنفسى فكيف أفعله بك ! وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى عزير : إن لم تطب نفسا بأنى أجعلك علكا فى أفواه الماضغين ، لم أكتبك عندى من المتواضعين . فإذاً من حبس نفسه فى البيت ليحسن اعتقادات الناس وأقوالهم فيه ، فهو فى عناء حاضر فى الدنيا (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [1]) فإذاً لاتستحب العزلة إلا لمستغرق الأوقات بربه ذكرا وفكرا ، وعبادة وعلما ، بحيث لو خالطه الناس لضاعت أوقاته ، وكثرت آفاته ، ولتشوشت عليه عباداته . فهذه غوائل خفية فى اختيار العزلة ، ينبغى أن تتقى ، فإنها مهلكات فى صور منجيات

الفائدة السابعة

التجارب . فإنها تستفاد من المخالطة للخلق ومجارى أحوالهم . والعقل الغريزى ليس كافيا فى تفهم مصالح الدين والدنيا . وإنما تفيدها التجربة والممارسة . ولا خير فى عزلة من لم تحنكه التجارب . فالصبي إذا اعتزل بقي غمرا جاهلا . بل ينبغى أن يشتغل بالتعلم ، ويحصل له فى مدة التعلم مايحتاج إليه من التجارب ، ويكفيه ذلك ، ويحصل بقية التجارب بسماع الأحوال ، ولايحتاج إلى المخالطة .

ومن أهم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه . وذلك لايقدر عليه فى الخلوة فإن كل مجرب فى الخلاء يسر ، وكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه

(١) الزمر : ٢٦

وهذه الصفات مهلكات فى أنفسها ، يجب إماطتها وقهرها ؛ ولا يكفى تسكينها بالتباعد عما يحركها . فمثال القلب المشحون بهذه الخبائث ، مثال دمل ممتلىء بالصديد والمدة وقد لا يحس صاحبه بألمه مالم يتحرك ، أو يمسه غيره ، فإن لم يكن له يد تمسه ، أو عين تبصر صورته ، ولم يكن معه من يحركه ، ربما ظن بنفسه السلامة ، ولم يشعر بالدمل فى نفسه واعتقد فقده . ولكن لو حركه محرك ، أو أصابه مشرط حجام ، لانفجر منه الصديد وفار فوران الشيء المختنق إذا حبس عن الاسترسال . فكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل ، والحسد، والغضب ، وسائر الأخلاق الذميمة ، إنما تتفجر منه خبائثه إذا حرك . وعن هذا كان السالكون لطريق الآخرة ، الطالبون لتزكية القلوب ، يجربون أنفسهم . فمن كان يستشعر فى نفسه كبراً سعى فى إماطته ، حتى كان بعضهم يحمل قربة ماء على ظهره بين الناس ، أو حزمة حطب على رأسه ويتردد فى الأسواق ، ليجرب نفسه بذلك . فإن غوائل النفس ومكايد الشيطان خفية ، قل من يتفطن لها . ولذلك حكي عن بعضهم أنه قال أعدت صلاة ثلاثين سنة ، مع أنى كنت أصليها فى الصف الأول ، ولكن تخلفت يوما بعذر ، فما وجدت موضعا فى الصف الأول ، فوقفت فى الصف الثانى ، فوجدت نفسى تستشعر خجلة من نظر الناس إلىّ ، وقد سُبِقتُ إلى الصف الأول ، فعلمت أن جميع صلواتى التى كنت أصليها كانت مشوبة بالرياء ، ممزوجة بلذة نظر الناس إلىّ ، ورؤيتهم إياي فى زمرة السابقين إلى الخير ، فالمخالطة لها فائدة ظاهرة عظيمة فى استخراج الخبائث وإظهارها ولذلك قيل السفر يسفر عن الأخلاق ، فإنه نوع من المخالطة الدائمة . وستأتى غوائل هذه المعانى ودقائقها فى ربع المهلكات ، فإن بالجهل بها يحبط العمل الكثير ، وبالعلم بها يزكو العمل القليل . ولولا ذلك مافضل العلم على العمل . إذ يستحيل أن يكون العلم بالصلاة ولا يراد إلا للصلاة ، أفضل من الصلاة . فإنا نعلم أن مايراد لغيره ، فإما ذلك الغير أشرف منه . وقد قضى الشرع بتفضيل العالم على العابد ، حتى قال صلى الله عليه وسلم [1] « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِى » فمعنى تفضيل العلم يرجع إلى ثلاثة أوجه .

(١) حديث فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى : تقدم فى العلم

أحدها ماذكرناه . والثاني عموم النفع لتعدي فائدته ، والعمل لا تتعدى فائدته . والثالث أن يراد به العلم بالله وصفاته وأفعاله ، فذلك أفضل من كل عمل . بل مقصود الأعمال صرف القلوب عن الخلق إلى الخالق ، لتنبعث بعد الانصراف إليه لمعرفته ومحبتـه . فالعمل وعلم العمل مرادان لهذا العلم ، وهذا العلم غاية المريدين ، والعمل كالشرط له ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ[1]) فالكلم الطيب هو هذا العلم ، والعمل كالحمال الرافع له إلى مقصده ، فيكون المرفوع أفضل من الرافع . وهذا كلام معترض لايليق بهذا الكلام ، فلنرجع إلى المقصود فنقول

إذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها ، تحققت أن الحكم عليها مطلقا بالتفضيل نفيا وإثباتا خطأ . بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله ، وإلى الخليط وحاله ، وإلى الباعث على مخالطته وإلى الفائت بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة . ويقاس الفائت بالحاصل . فعند ذلك يتبين الحق ، ويتضح الأفضل . وكلام الشافعي رحمه الله هو فصل الخطاب ، إذ قال . يايونس ، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة ، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط . فلذلك يجب الاعتدال فى المخالطة والعزلة . ويختلف ذلك بالأحوال وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل . هـذا هو الحق الصراح . وكل ماذكر سوى هذا فهو قاصر . وإنما هو إخبار كل واحـد عن حالة خاصة هو فيها ، ولا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له فى الحال . والفرق بين العالم والصوفى فى ظاهر العلم يرجع إلى هذا وهو أن الصوفي لايتكلم إلا عن حاله ، فلا جرم تختلف أجوبتهم فى المسائل ، والعالم هو الذى يدرك الحق على ماهو عليه ، ولا ينظر إلى حال نفسه ، فيكشف الحق فيه . وذلك مما لا يختلف فيه . فإن الحق واحد ابدا . والقاصر عن الحق كثير لايحصى . ولذلك سئل الصوفية عن الفقر ، فما من واحد إلا وأجاب بجواب غير جواب الآخر . وكل ذلك حق بالإضافة إلى حاله ، وليس بحق فى نفسه . إذ الحق لا يـكون إلا واحـداً . ولذلك قال أبوعبد الله الجلاء ، وقد سئل عن الفقر فقال : اضرب بكميك الحائط ، وقل ربى الله ، فهو الفقر . وقال الجنيد : الفقير هو الذى لايسأل أحـدا ولا يعارض ، وإن عورض سكت .

(١) فاطر : ٩

وقال سهل بن عبد الله : الفقير الذى لايسأل ولا يدخر . وقال آخر : هو أن لايكون لك فإن كان لك فلا يكون لك من حيث لم يكن لك. وقال إبراهيم الخواص: هو ترك الشكوى وإظهار أثر البلوى . والمقصود أنه لو سئل منهم مائة ، لسمع مائة جواب مختلفة ،قلما يتفق منها اثنان . وذلك كله حق من وجه ، فإنه خبر كل واحد عن حاله وما غلب على قلبه. ولذلك لاترى اثنين منهم يثبت أحدهما لصاحبه قدما فى التصوف ، أو يثنى عليه ، بل كل واحد منهم يدعى أنه الواصل إلى الحق ، والواقف عليه ، لأن أكثر ترددهم على مقتضى الأحوال التى تعرض لقلوبهم ، فلا يشتغلون إلا بأنفسهم ، ولا يلتفتون إلى غيرهم. ونور العلم إذا أشرق أحاط بالكل ، وكشف الغطاء ، ورفع الاختلاف . ومثال نظر هؤلاء ما رأيت من نظر قوم فى أدلة الزوال بالنظر فى الظل ، فقال بعضهم هو فى الصيف قدمان ، وحكي عن آخر أنه نصف قدم ، وآخر يرد عليه وأنه فى الشتاء سبعة أقدام ، وحكي عن آخر أنه خمسة أقدام وآخر يرد عليه ، فهذا يشبه أجوبة الصوفية واختلافهم . فإن كل واحد من هؤلاء أخبر عن الظل الذى رآه ببلد نفسه ، فصدق فى قوله ، وأخطأ فى تخطئته صاحبه ، إذ ظن أن العالم كله بلده ، أوهو مثل بلده . كما أن الصوفى لايحكم على العالم إلا بما هو حال نفسه . والعالم بالزوال هو الذى يعرف علة طول الظل وقصره ، وعلة اختلافه بالبلاد ، فيخبر بأحكام مختلفة فى بلاد مختلفة ، ويقول فى بعضها لا يبقى ظل ، وفى بعضها يطول ، وفى بعضها يقصر فهذا ما أردنا أن نذكره من فضيلة العزلة والمخالطة

فإن قلت: فمن آثر العزلة ورآها أفضل له وأسلم، فما آدابه فى العزلة ؟ فنقول إنما يطول النظر فى آداب المخالطة ، وقد ذكرناها فى كتاب آداب الصحبة

وأما آداب العزلة فلا تطول. فينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كف شر نفسه عن الناس أولا ، ثم طلب السلامة من شر الأشرار ثانيا ، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثا ، ثم التجرد بكنه الهمة لعبادة الله رابعا ، فهذه آداب نيته . ثم ليكن فى خلوته مواظبا على العلم والعمل، والذكر والفكر ، ليجتنى ثمرة العزلة ، وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته ، فيشوش أكثر وقته ، وليكف عن السؤال عن أخبارهم ، وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد ، وما الناس مشغولون به ، فإن كل ذلك ينغرس فى القلب ، حتى ينبعث فى أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لا يحتسب . فوقوع الأخبار فى السمع كوقوع البذر

فى الأرض ، فلا بد أن ينبت و تتفرع عروقه وأغصانه ، ويتداعى بعضها إلى بعض. وأحد مهمات المعتزل قطع الوساوس الصارفة عن ذكر الله . والأخبار ينابيع الوساوس وأصولها

وليقنع باليسير من المعيشة ، وإلا اضطره التوسع إلى الناس ، واحتاج إلى مخالطتهم وليكن صبورا على مايلقاه من أذى الجيران . وليسد سمعه عن الإصغاء إلى مايقال فيه من ثناء عليه بالعزلة ، أو قدح فيه بترك الخلطة ، فإن كل ذلك يؤثر فى القلب ولو مدة يسيرة وحال اشتغال القلب به لابد أن يكون واقفاً عن سيره إلى طريق الآخرة فإن السير ، إما بالمواظبة على ورد وذكر مع حضور قلب ، وإما بالفكر فى جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأرضه ، وإما بالتأمل فى دقائق الأعمال ومفسدات القلوب، وطلب طرق التحصن منها . وكل ذلك يستدعي الفراغ ، والإصغاء إلى جميع ذلك مما يشوش القلب فى الحال . وقد يتجدد ذكره فى دوام الذكر من حيث لاينتظر . وليكن له أهل صالحة أو جليس صالح، لتستريح نفسه إليه فى اليوم ساعة من كد المواظبة، ففيه عون على بقية الساعات

ولا يتم له الصبر فى العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا وما الناس منهمكون فيه . ولا ينقطع طمعه إلا بقصر الأمل ، بأن لا يقدر لنفسه عمراً طويلا ، بل يصبح على أنه لا يمسى ويمسى على أنه لايصبح ، فيسهل عليه صبر يوم ، ولا يسهل عليه العزم على الصبر عشرين سنة لو قدر تراخي الأجل . وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر، مهما ضاق قلبه من الوحدة وليتحقق أن من لم يحصل فى قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به، فلا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت وأن من أنس بذكر الله ومعرفته ، فلا يزيل الموت أنسه . إذ لا يهدم الموت محل الأنس والمعرفة بل يبقى حيا بمعرفته وأنسه، فرحا بفضل الله عليه ورحمته. كما قال الله تعالى فى الشهداء ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ [١]﴾ وكل متجرد لله فى جهاد نفسه فهو شهيد ، مهما أدركه الموت مقبلا غير مدبر [١] فالمجاهد من جاهد نفسه وهواه، كما صرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم. والجهاد الأكبر جهاد النفس ، كما قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، يعنون جهاد النفس

تم كتاب العزلة ، ويتلوه كتاب آداب السفر ، والحمد لله وحده

---

(١) حديث المجاهد من جاهد نفسه وهواه : الحاكم من حديث فضالة بن عبيد وصححه دون قوله وهواه وقد تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة

(١) آل عمران ١٦٩ ، ١٧٠

کتاب آداب السفر

كتاب آداب السفر

وهو الكتاب السابع من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى فتح بصائر أوليائه بالحكم والعبر ، واستخلص هممهم لمشاهدة عجائب صنعه فى الحضر والسفر ، فأصبحوا راضين بمجارى القدر ، منزهين قلوبهم عن التلفت إلى متنزهات البصر ، إلا على سبيل الاعتبار بما يسح فى مسارح النظر ، ومجارى الفكر ، فاستوى عندهم البر والبحر ، والسهل والوعر ، والبدو والحضر ، والصلاة على محمد سيد البشر ، وعلى آله وصحبه المقتفين لآثاره فى الأخلاق والسير ، وسلم كثيراً

أما بعد : فإن السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه ، أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه ، والسفر سفران : سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحارى والفلوات ، وسفر بسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات ، وأشرف السفرين السفر الباطن ، فإن الواقف على الحالة التى نشأ عليها عقيب الولادة الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والأجداد ، لازم درجة القصور ، وقانع بمرتبة النقص ، ومستبدل بمتسع فضاء جنة عرضها السموات والأرض ظلمة السجن ، وضيق الحبس ، ولقد صدق القائل

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

إلا أن هذا السفر لما كان مقتحمه فى خطب خطير ، لم يستغن فيه عن دليل وخفير فاقتضى غموض السبيل ، وفقد الخفير والدليل ، وقناعة السالكين عن الحظ الجزيل بالنصيب النازل القليل ، اندرس مسالكه . فانقطع فيه الرفاق وخلا عن الطائفين ، متنزهات الأنفس والملكوت والآفاق ، وإليه دعا الله سبحانه بقوله : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ[1])

---
[1] فصلت : ٥٣

وبقوله تعالى (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ[١]) وعلى القعود عن هـذا السفر وقع الإنكار بقوله تعالى : (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[٢]) وبقوله سبحانه : (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ[٣]) فمن يسر له هـذا السفر لم يزل فى سيره متنزها فى جنة عرضها السموات والأرض ، وهو ساكن بالبدن ، مستقر فى الوطن ، وهو السفر الذى لا تضيق فيه المناهل والموارد ، ولا يضر فيـه التزاحم والتوارد ، بل تزيد بكثرة المسافرين غنائمـه وتتضاعف ثمراته وفوائده ، فغنائمه دائمة غير ممنوعة ، وثمراته متزايدة غير مقطوعة ، إلا إذا بدا للمسافر فترة فى سفره ، ووقفة فى حركته ، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا زاغوا أزاغ الله قلوبهـم وما الله بظـلام للعبيـد ولـكنهم يظلمون أنفسـهم ومن لم يؤهل للجولان فى هـذا الميدان والتطواف فى متنزهات هـذا البستان ، ربما سافر بظاهر بدنه ، فى مدة مديدة فراسخ معدودة ، مغتنما بها تجارة للدنيا أو ذخيرة للآخرة فإن كان مطلبه العلم والدين ، أو الكفاية للاستعانة على الدين ، كان من سالكى سبيل الآخرة وكان له فى سفره شروط وآداب إن أهملها كان من عمال الدنيا وأتباع الشيطان ، وإن واظب عليها لم يخل سفره عن فوائد تلحقـه بعمال الآخرة ، ونحن نذكر آدابه وشروطه فى بابين إن شاء الله تعـالى

الباب الأول : فى الآداب من أول النهـوض إلى آخر الرجوع وفى نيـة السفر وفائدته ، وفيه فصلان :

الباب الثانى : فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات

---

(١) الذاريات : ٢٠ ، ٢١ (٢) الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨ (٣) يوسف : ١٠٥

الباب الأول

فى الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفى نية السفر وفائدته وفيه فصلان

الفصل الأول

فى فوائد السفر وفضله ونيته

اعلم أن السفر نوع حركة ومخالطة ، وفيه فوائد وله آفات كما ذكرناه فى كتاب الصحبة والعزلة ، والفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب ، فإن المسافر إما أن يكون له مزعج عن مقامه ، ولولاه لما كان له مقصد يسافر إليه ، وإما أن يكون له مقصد ومطلب ، والمهروب عنه إما أمر له نكاية فى الأمور الدنيوية ، كالطاعون والوباء إذا ظهر ببلد ، أو خوف سببه فتنة ، أو خصومة ، أو غلاء سعر ، وهو إما عام كما ذكرناه أو خاص كمن يقصد بأذية فى بلدة فيهرب منها ، وإما أمر له نكاية فى الدين ، كمن ابتلى فى بلده بجاه ومال واتساع أسباب تصده عن التجرد لله ، فيؤثر الغربة والخمول ، ويجتنب السعة والجاه ، أو كمن يدعى إلى بدعة قهراً ، أو إلى ولاية عمل لا تحل مباشرته ، فيطلب الفرار منه ، وأما المطلوب فهو إما دنيوى كالمال والجاه ، أو دينى ، والدينى إما علم وإما عمل والعلم إما علم من العلوم الدينية ، وإما علم بأخلاق نفسه وصفاته على سبيل التجربة وإما علم بآيات الأرض وعجائبها ، كسفر ذى القرنين وطوافه فى نواحى الأرض ، والعمل إما عبادة ، وإما زيارة ، والعبادة هو الحج والعمرة والجهاد والزيارة أيضا من القربات ، وقد يقصد بها مكان كمكة والمدينة وبيت المقدس والثغور فإن الرباط بها قربة ، وقد يقصد بها الأولياء والعلماء ، وهم إما موتى فتزار قبورهم ، وإما أحياء فيتبرك بمشاهدتهم ، ويستفاد من النظر إلى أحوالهم قوة الرغبة فى الاقتداء بهم ، فهذه هى أقسام الأسفار ، ويخرج من هذه القسمة أقسام

القسم الأول : السفر فى طلب العلم ، وهو إما واجب ، وإما نفل ، وذلك بحسب كون العلم واجبا أو نفلا ، وذلك العلم إما علم بأمور دينه ، أو بأخلاقه فى نفسه ، أو بآيات الله فى أرضه ، وقد قال عليه السلام [١] « مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ » وفى خبر آخر [٢] « مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ » وكان سعيد بن المسيب يسافر الأيام فى طلب الحديث الواحد ، وقال الشعبي : لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن فى كلمة تدله على هدى ، أو ترده عن ردى ، ما كان سفره ضائعا [٣] ورحل جابر بن عبدالله من المدينة إلى مصر مع عشرة من الصحابة ، فساروا شهرا فى حديث بلغهم عن عبد الله بن أنيس الأنصارى ، يحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعوه وكل مذكور فى العلم محصل له من زمان الصحابة إلى زماننا هذا لم يحصل العلم إلا بالسفر وسافر لأجله

وأما علمه بنفسه وأخلاقه فذلك أيضا مهم ، فإن طريق الآخرة لا يمكن سلوكها إلا بتحسين الخلق وتهذيبه ، ومن لا يطلع على أسرار باطنه ، وخبائث صفاته ، لا يقدر على تطهير القلب منها ، وإنما السفر هو الذى يسفر عن أخلاق الرجال ، وبه يخرج الله الخبء فى السموات والأرض ، وإنما سمى السفر سفرا لأنه يسفر عن الأخلاق ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه للذى زكى عنده بعض الشهود هل صحبته فى السفر الذى يستدل به على مكارم أخلاقه فقال : لا ، فقال : ما أراك تعرفه ، وكان بشر يقول : يامعشر القراء سيحوا تطيبوا فإن الماء إذا ساح طاب : وإذا طال مقامه فى موضع تغير

(كتاب آداب السفر)

(الباب الأول فى الآداب من أول النهوض الى آخر الرجوع)

(١) حديث من خرج من بيته فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتي يرجع : الترمذى من حديث أنس وقال حسن غريب

(٢) حديث من سلك طريقا يلتمس فيه علما ـ الحديث : رواه مسلم وتقدم فى العلم

(٣) حديث رحل جابر بن عبد الله من المدينة إلى مسيرة شهر فى حديث بلغه عن عبدالله بن أنيس الخطيب فى كتاب الرحلة باسناد حسن ولم يسم الصحابى وقال البخارى فى صحيحه رحل جابر ابن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى حديث واحد ورواه أحمد إلا أنه قال الى الشام واسناده حسن ولأحمد ان أبا أيوب ركب إلي عقبة بن عامر الى مصر فى حديث وله ان عقبة ابن عامر أتى سلمة ابن مخلد وهو أمير مصر فى حديث آخر وكلاهما منقطع

وبالجملة فإن النفس فى الوطن مع مواتاة الأسباب لاتظهر خبائث أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة ، فإذا حملت وعثاء السفر ، وصرّفت عن مألوفاتها المعتادة ، وامتحنت بمشاق الغربة ، انكشفت غوائلها ، ووقع الوقوف على عيوبها فيمكن الاشتغال بعلاجها وقد ذكرنا فى كتاب العزلة فوائد المخالطة ، والسفرُ مخالطةٌ ، مع زيادة اشتغال واحتمال مشاق

وأما آيات الله فى أرضه ، ففى مشاهدتها فوائد للمستبصر ، ففيها قطع متجاورات وفيها الجبال ، والبرارى ، والبحار ، وأنواع الحيوان ، والنبات ، وما من شيء منها إلا وهو شاهد لله بالوحدانية ، ومسبح له بلسان ذلق لايدركه إلا من ألقى السمع وهو شهيد، وأما الجاحدون والغافلون والمغترون بلامع السراب من زهرة الدنيا : فإنهم لا يبصرون ، ولا يسمعون لانهم عن السمع معزولون ، وعن آيات ربهم محجوبون (يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ[1]) وما أريد بالسمع السمع الظاهر، فإن الذين أريدوا به ما كانوا معزولين عنه ، وإنما أريد به السمع الباطن ، ولا يدرك بالسمع الظاهر إلا الأصوات ويشارك الإنسان فيه سائر الحيوانات ، فأما السمع الباطن فيدرك به لسان الحال الذى هو نطق وراء نطق المقال ، يشبه قول القائل حكاية لكلام الوتد والحائط ، قال الجدار للوتد: لِمَ تشقنى ؟ فقال: سل من يدقنى ، ولم يتركنى ورائى الحجر الذى ورائى ، ومامن ذرة فى السموات والأرض إلا ولها أنواع شاهدات لله تعالى بالوحدانية هى توحيدها ، وأنواع شاهدات لصانعها بالتقدس ، هى تسبيحها ، ولكن لايفقهون تسبيحها ، لأنهم لم يسافروا من مضيق سمع الظاهر إلى فضاء سمع الباطن ، ومن ركاكة لسان المقال ، إلى فصاحة لسان الحال، ولو قدر كل عاجز على مثل هذا السير ، لما كان سليمان عليه السلام مختصا بفهم منطق الطير، ولما كان موسى عليه السلام مختصا بسماع كلام الله تعالى الذى يجب تقديسه عن مشابهة الحروف والأصوات ، ومن يسافر ليستقرىء هذه الشهادات من الأسطر المكتوبة، بالخطوط الإلهية على صفحات الجمادات ، لم يطل سفره بالبدن ، بل يستقر فى موضع ، ويفرغ قلبه للتمتع

---

[1] الروم : ٧

بسماع نغمات التسبيحات من آحاد الذرات ، فماله وللتردد فى الفلوات،وله غنية في ملكوت السموات ، فالشمس والقمر والنجوم بأمره مسخرات ، وهي إلى أبصار ذوى البصائر مسافرات فى الشهر والسنة مرات ، بل هي دائبة فى الحركة على توالى الأوقات،فمن الغرائب أن يدأب فى الطواف بآحاد المساجد ، من أمرت الكعبة أن تطوف به ، ومن الغرائب أن يطوف فى أكناف الأرض ، من تطوف به أقطار السماء ، ثم مادام المسافر مفتقرا إلى أن يبصر عالم الملك والشهادة بالبصر الظاهر ، فهو بعد فى المنزل الأول من منازل السائرين إلى الله والمسافرين إلى حضرته ، وكأنه متعكف على باب الوطن لم يفض به المسير إلى متسع الفضاء ، ولا سبب لطول المقام فى هذا المنزل ، إلا الجبن والقصور ، ولذلك قال بعض أرباب القلوب : إن الناس ليقولون افتحوا أعينكم حتى تبصروا ، وأنا أقول : غمضوا أعينكم حتى تبصروا ، وكل واحد من القولين حق ، إلا أن الأول خبر عن المنزل الأول القريب من الوطن ، والثانى خبر عما بعده من المنازل البعيدة عن الوطن التى لا يطؤها إلا مخاطر بنفسه والمجاوز إليها ربما يتيه فيها سنين ، وربما يأخذ التوفيق بيده فيرشده إلى سواء السبيل والهالكون فى التيه هم الأكثرون من ركاب هذه الطريق،ولكن السائحون بنور التوفيق فازوا بالنعيم والملك المقيم ، وهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى، واعتبر هذا الملك بملك الدنيا فإنه يقل بالإضافة إلى كثرة الخلق طلابه ، ومهما عظم المطلوب قل المساعد ، ثم الذى يهلك أكثر من الذى يملك ، ولا يتصدى لطلب الملك العاجز الجبان لعظيم الخطر وطول التعب

وإذا كانت النفوس كبارا   تعبت فى مرادها الأجسام

وما أودع الله العز والملك فى الدين والدنيا إلا فى حيز الخطر ، وقد يسمى الجبانُ الجبنَ والقصورَ ، باسم الحزم والحذر ، كما قيل

ترى الجبناء أن الجبن حزم   وتلك خديعة الطبع اللئيم

فهذا حكم السفر الظاهر إذا أريد به السفر الباطن بمطالعة آيات الله فى الأرض ،فلنرجع إلى الغرض الذى كنا نقصده ولنبين

القسم الثانى : وهو أن يسافر لأجل العبادة إما لحج أو جهاد وقد ذكرنا فضل ذلك

وآدابه وأعماله الظاهرة والباطنة فى كتاب أسرار الحج ،ويدخل فى جملته زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام ،وزيارة قبور الصحابة ، والتابعين ، وسائر العلماء ، والأولياء ، وكل من يتبرك بمشاهدته فى حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته ، ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ، ولا يمنع من هذا قوله عليه السلام [١] «لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ مَسْجِدِي هَذَا ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَسْجِدِ الأَقْصَى» لأن ذلك فى المساجد فإنها متماثلة بعد هذه المساجد، وإلا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء ، فى أصل الفضل ، وإن كان يتفاوت فى الدرجات تفاوتا عظيما ، بحسب اختلاف درجاتهم عند الله

وبالجملة زيارة الأحياء أولى من زيارة الأموات ، والفائدة من زيارة الأحياء طلب بركة الدعاء ، وبركة النظر إليهم ، فإن النظر إلى وجوه العلماء والصلحاء عبادة ، وفيه أيضا حركة للرغبة فى الاقتداء بهم ، والتخلق بأخلاقهم وآدابهم ، هذا سوى ما ينتظر من الفوائد العلمية المستفادة من أنفاسهم وأفعالهم ، كيف ومجرد زيارة الإخوان فى الله فيه فضل كما ذكرناه فى كتاب الصحبة ، وفى التوراة : سر أربعة أميال زر أخا فى الله . وأما البقاع فلا معنى لزيارتها سوى المساجد الثلاثة ، وسوى الثغور للرباط بها ، فالحديث ظاهر ، فى أنه لا تشد الرحال لطلب بركة البقاع إلا إلى المساجد الثلاثة، وقد ذكرنا فضائل الحرمين فى كتاب الحج . وبيت المقدس أيضا له فضل كبير . خرج ابن عمر من المدينة قاصداً بيت المقدس ، حتى صلى فيه الصلوات الخمس ، ثم كر راجعاً من الغد إلى المدينة ، وقد سأل سليمان عليه السلام ربه عز وجل أن من قصد هذا المسجد لا يعنيه إلا الصلاة فيه ، أن لا تصرف نظرك عنه ما دام مقيما فيه حتى يخرج منه ، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه فأعطاه الله ذلك

القسم الثالث : أن يكون السفر للهرب من سبب مشوش للدين ، وذلك أيضا حسن فالفرار مما لا يطاق من سنن الأنبياء والمرسلين ، ومما يجب الهرب منه ، الولاية ، والجاه وكثرة العلائق والأسباب ، فإن كل ذلك يشوش فراغ القلب، والدين لا يتم إلا بقلب فارغ

---

(١) حديث لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد ـ الحديث ـ تقدم فى الحج

عن غير الله ، فإن لم يتم فراغه فبقدر فراغه يتصور أن يشتغل بالدين ، ولا يتصور فراغ القلب فى الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية ، ولكن يتصور تخفيفها وتثقيلها وقد نجا المخفون ، وهلك المثقلون ، والحمد لله الذى لم يعلق النجاة بالفراغ المطلق عن جميع الأوزار والأعباء ، بل قبل المخف بفضله ، وشمله بسعة رحمته ، والمخف هو الذى ليست الدنيا أكبر همه ، وذلك لا يتيسر فى الوطن ، لمن اتسع جاهه ، وكثرت علائقه ، فلا يتم مقصوده إلا بالغربة ، والخمول ، وقطع العلائق التى لا بد عنها ، حتى يروض نفسه مدة مديدة ، ثم ربما يمده الله بمعونته ، فينعم عليه بما يقوى به يقينه ، ويطمئن به قلبه ، فيستوى عنده الحضر والسفر ، ويتقارب عنده وجود الأسباب والعلائق وعدمها ، فلا يصده شىء منها عما هو بصدده من ذكر الله . وذلك مما يعز وجوده جداً ، بل الغالب على القلوب الضعف ، والقصور عن الاتساع للخلق والخالق ، وإنما يسعد بهذه القوة الأنبياء والأولياء والوصول إليها بالكسب شديد ، وإن كان للاجتهاد والكسب فيها مدخل أيضا ، ومثال تفاوت القوة الباطنة فيه كتفاوت القوة الظاهرة فى الأعضاء ، فرب رجل قوي ذى مرة سوى شديد الأعصاب ، محكم البنية ، يستقل بحمل ما وزنه ألف رطل مثلا ، فلو أراد الضعيف المريض أن ينال رتبته بممارسة الحمل ، والتدريج فيه ، قليلا قليلا ، لم يقدر عليه ، ولكن الممارسة والجهد يزيد فى قوته زيادة ما ، وإن كان ذلك لا يبلغه درجته ، فلا ينبغى أن يترك الجهد عند اليأس عن الرتبة العليا ، فإن ذلك غاية الجهل ، ونهاية الضلال

وقد كان من عادة السلف رضي الله عنهم مفارقة الوطن خيفة من الفتن وقال سفيان الثوري : هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخامل ، فكيف على المشتهرين ، هذا زمان رجل ينتقل من بلد إلى بلد ، كلما عرف فى موضع تحول إلى غيره ، وقال أبو نعيم : رأيت سفيان الثورى وقد علق قلته بيده ، ووضع جرابه على ظهره ، فقلت إلى أين يا أبا عبد الله قال بلغنى عن قرية فيها رخص أريد أن أقيم بها ، فقلت له وتفعل هذا ؟ قال : نعم . إذا بلغك أن قرية فيها رخص فأقم بها فإنه أسلم لدينك ، وأقل لهمك ، وهذا هرب من غلاء السعر ، وكان سرى السقطى يقول للصوفية إذا خرج الشتاء فقد خرج أذار ، وأورقت الأشجار ، وطاب

الانتشار فانتشروا، وقد كان الخواص لايقيم ببلد أكثر من أربعين يوما، وكان من المتوكلين ويرى الإقامة اعتمادا على الأسباب قادحا فى التوكل، وسيأتى أسرار الاعتماد على الأسباب فى كتاب التوكل إن شاء الله تعالى

القسم الرابع: السفر هربا مما يقدح فى البدن، كالطاعون، أو فى المال، كغلاء السعر أو مايجرى مجراه ولا حرج فى ذلك، بل ربما يجب الفرار فى بعض المواضع، وربما يستحب فى بعض، بحسب وجوب ما يترتب عليه من الفوائد واستحبابه. ولكن يستثنى منه الطاعون، فلا ينبغى أن يفر منه لورود النهي فيه، قال أسامة بن زيد: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ هَذَا الْوَجَعَ أَوِ السَّقَمَ رِجْزٌ عُذِّبَ بِهِ بَعْضُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ ثُمَّ بَقِيَ بَعْدُ فِي الْأَرْضِ فَيَذْهَبُ الْمَرَّةَ وَيَأْتِي الْأُخْرَى فَمَنْ سَمِعَ بِهِ فِي أَرْضٍ فَلَا يَقْدَمَنَّ عَلَيْهِ وَمَنْ وَقَعَ بِأَرْضٍ وَهُوَ بِهَا فَلَا يُخْرِجَنَّهُ الْفِرَارُ مِنْهُ » وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ فَنَاءَ أُمَّتِي بِالطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ » فقلت: هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال: « غُدَّةٌ كَغُدَّةِ الْبَعِيرِ تَأْخُذُهُمْ فِي مَرَاقِهِمْ. الْمُسْلِمُ الْمَيِّتُ مِنْهُ شَهِيدٌ، وَالْمُقِيمُ عَلَيْهِ الْمُحْتَسِبُ كَالْمُرَابِطِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْفَارُّ مِنْهُ كَالْفَارِّ مِنَ الزَّحْفِ »

وعن مكحول عن أم أيمن قالت أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] بعض أصحابه « لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا وَإِنْ عُذِّبْتَ أَوْ حُرِّقْتَ، وَأَطِعْ وَالِدَيْكَ وَإِنْ أَمَرَاكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ لَكَ فَاخْرُجْ مِنْهُ وَلَا تَتْرُكِ الصَّلَاةَ عَمْدًا فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ عَمْدًا فَقَدْ بَرِئَتْ ذِمَّةُ اللَّهِ مِنْهُ، وَإِيَّاكَ وَالْخَمْرَ فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ، وَإِيَّاكَ وَالْمَعْصِيَةَ فَإِنَّهَا تُسْخِطُ اللَّهَ، وَلَا تَفِرَّ مِنَ الزَّحْفِ وَإِنْ أَصَابَ النَّاسَ مَوْتَانٌ وَأَنْتَ فِيهِمْ فَاثْبُتْ فِيهِمْ، أَنْفِقْ مِنْ طَوْلِكَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ وَلَا تَرْفَعْ عَصَاكَ عَنْهُمْ، أَخِفْهُمْ بِاللَّهِ »

---

(١) حديث اسامة بن زيد ان هذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الامم قبلكم ـ الحديث متفق عليه واللفظ لمسلم

(٢) حديث عائشة ان فناء أمتى بالطعن والطاعون ـ الحديث: رواه أحمد وابن عبد البر فى التمهيد باسناد جيد

(٣) حديث أم أيمن أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أهله لاتشرك بالله شيئا وان حرقت بالنار. البيهقى وقال فيه ارسال

فهذه الأحاديث تدل على أن الفرار من الطاعون منهي عنه ، وكذلك القدوم عليه، وسيأتى شرح ذلك فى كتاب التوكل

فهذه أقسام الأسفار ، وقد خرج منه أن السفر ينقسم إلى مذموم ، وإلى محمود وإلى مباح ، والمذموم ينقسم إلى حرام كإباق العبد ، وسفر العاق ، وإلى مكروه كالخروج من بلد الطاعون ، والمحمود ينقسم إلى واجب كالحج وطلب العلم الذى هو فريضة على كل مسلم ، وإلى مندوب إليه كزيارة العلماء وزيارة مشاهدهم

ومن هذه الأسباب تتبين النية فى السفر فإن معنى النية الانبعاث للسبب الباعث والانتهاض لإجابة الداعية ، ولتكن نيته الآخرة فى جميع أسفاره وذلك ظاهر فى الواجب والمندوب ، ومحال فى المكروه ، والمحظور، وأما المباح فرجعه إلى النية فمهما كان قصده بطلب المال مثلا التعفف عن السؤال ، ورعاية ستر المروءة على الأهل والعيال والتصدق بما يفضل عن مبلغ الحاجة صار هذا المباح بهذه النية من أعمال الآخرة ، ولو خرج إلى الحج وباعثه الرياء والسمعة لخرج عن كونه من أعمال الآخرة ، لقوله صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » فقوله صلى الله عليه وسلم: الأعمال بالنيات عام فى الواجبات والمندوبات والمباحات ، دون المحظورات ، فإن النية لا تؤثر فى إخراجها عن كونها من المحظورات وقد قال بعض السلف : إن الله تعالى قد وكل بالمسافرين ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم.فيعطى كل واحد على قدر نيته ، فمن كانت نيته الدنيا أعطى منها ،ونقص من آخرته أضعافه وفرق عليه همه ، وكثر بالحرص والرغبة شغله،ومن كانت نيته الآخرة أعطى من البصيرة والحكمة والفطنة ، وفتح له من التذكرة والعبرة بقدر نيته.وجمع له همه ودعت له الملائكة واستغفرت له

وأما النظر فى أن السفر هو الأفضل أو الإقامة فذلك يضاهى النظر فى أن الأفضل هو العزلة أو المخالطة ، وقد ذكرنا منهاجه فى كتاب العزلة فليفهم هذا منه، فإن السفر نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة ، تفرق الهم ، وتشتت القلب فى حق الأكثرين ، والأفضل فى هذا ماهو الأعون على الدين ، ونهاية ثمرة الدين في الدنيا تحصيل معرفة الله تعالى ، وتحصيل

---

(١) حديث الأعمال بالنيات متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم

الأنس بذكر الله تعالى ، والأنس يحصل بدوام الذكر ، والمعرفة تحصل بدوام الفكر ومن لم يتعلم طريق الفكر والذكر لم يتمكن منهما والسفر هو المعين على التعلم فى الابتداء ، والإقامة هى المعينة على العمل بالعلم فى الانتهاء ، وأما السياحة فى الأرض على الدوام فمن المشوشات للقلب إلا فى حق الأقوياء ، فإن المسافر وماله لعلى قلق إلا ما وقى الله ، فلا يزال المسافر مشغول القلب ، تارة بالخوف على نفسه وماله ، وتارة بمفارقة ما ألفه واعتاده فى إقامته ، وإن لم يكن معه مال يخاف عليه فلا يخلو عن الطمع والاستشراف إلى الخلق ، فتارة يضعف قلبه بسبب الفقر ، وتارة يقوى باستحكام أسباب الطمع ثم الشغل بالحظ ، والترحال مشوش لجميع الأحوال فلا ينبغى أن يسافر المريد إلا فى طلب علم ، أو مشاهدة شيخ يقتدى به في سيرته وتستفاد الرغبة فى الخير من مشاهدته ، فإن اشتغل بنفسه واستبصر وانفتح له طريق الفكر أو العمل فالسكون أولى به ، إلا أن أكثر متصوفة هذه الأعصار ، لما خلت بواطنهم عن لطائف الأفكار ، ودقائق الأعمال ، ولم يحصل لهم أنس بالله تعالى ، وبذكره فى الخلوة وكانوا بطالين غير محترفين ولا مشغولين ، قد ألفوا البطالة ، واستثقلوا العمل ، واستوعروا طريق الكسب واستلانوا جانب السؤال والكدية ، واستطابوا الرباطات المبنية لهم فى البلاد ، واستسخروا الخدم المنتصبين للقيام بخدمة القوم ، واستخفوا عقولهم وأديانهم ، من حيث لم يكن قصدهم من الخدمة إلا الرياء والسمعة ، وانتشار الصيت ، واقتناص الأموال بطريق السؤال تعللا بكثرة الأتباع ، فلم يكن لهم فى الخانقاهات حكم نافذ ، ولا تأديب للمريدين نافع ، ولا حجر عليهم قاهر ، فلبسوا المرقعات ، واتخذوا فى الخانقاهات منتزهات ، وربما تلقفوا ألفاظا من خرفة من أهل الطامات ، فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبهوا بالقوم فى خرقتهم ، وفى سياحتهم وفى لفظهم وعبارتهم ، وفى آداب ظاهرة من سيرتهم ، فيظنون بأنفسهم خيرا ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ويعتقدون أن كل سوداء تمرة ، ويتوهمون أن المشاركة فى الظواهر توجب المساهمة فى الحقائق ، وهيهات ، فما أغزر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم ، فهؤلاء بغضاء الله ، فإن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ ، ولم يحملهم على السياحة إلا الشباب والفراغ إلا من سافر لحج أو عمرة فى غير رياء ولا سمعة ، أو سافر لمشاهدة شيخ يقتدي به فى علمه وسيرته

وقد خلت البلاد عنه الآن ، والأمور الدينية كلها قد فسدت وضعفت ، إلا التصوف فإنه قد انمحق بالكلية و بطل ، لأن العلوم لم تندرس بعد ، والعالم وإن كان عالم سوء فإنما فساده فى سيرته لا فى علمه ، فيبقى عالما غير عامل بعلمه ، والعمل غير العلم

وأما التصوف فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى ، واستحقار ماسوى الله ، وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح ، ومهما فسد العمل فات الأصل . وفى أسفار هؤلاء نظر للفقهاء ، من حيث إنه إتعاب للنفس بلا فائدة ، وقد يقال إن ذلك ممنوع ، ولكن الصواب عندنا أن نحكم بالإباحة فإن حظوظهم التفرج عن كرب البطالة بمشاهدة البلاد المختلفة ، وهذه الحظوظ وإن كانت خسيسة فنفوس المتحركين لهذه الحظوظ أيضا خسيسة ، ولا بأس بإتعاب حيوان خسيس لحظ خسيس يليق به ويعود إليه ، فهو المتأذي والمتلذذ ، والفتوى تقتضى تشتيت العوام فى المباحات التى لا نفع فيها ولا ضرر ، فالسايحون فى غير مهم فى الدين والدنيا ، بل لمحض التفرج فى البلاد ، كالبهائم المترددة فى الصحارى ، فلا بأس بسياحتهم ما كفوا عن الناس شرهم ، ولم يلبسوا على الخلق حالهم ، وإنما عصيانهم فى التلبيس والسؤال على اسم التصوف ، والأكل من الأوقاف التى وقفت على الصوفية ، لأن الصوفي عبارة عن رجل صالح ، عدل فى دينه ، مع صفات أخر ، وراء الصلاح ، ومن أقل صفات أحوال هؤلاء ، أكلهم أموال السلاطين ، وأكل الحرام من الكبائر ، فلا تبقى معه العدالة والصلاح ولو تصور صوفي فاسق ، لتصور صوفي كافر ، وفقيه يهودى ، ، وكما أن الفقيه عبارة عن مسلم مخصوص ، فالصوفي عبارة عن عدل مخصوص لا يقتصر فى دينه على القدر الذى يحصل به العدالة ، وكذلك من نظر إلى ظواهرهم ، ولم يعرف بواطنهم وأعطاهم من ماله على سبيل التقرب إلى الله تعالى ، حرم عليهم الأخذ وكان ما أكلوه سحتا ، وأعنى به إذا كان المعطى بحيث لو عرف بواطن أحوالهم ما أعطاهم ، فأخذ المال بإظهار التصوف من غير اتصاف بحقيقته كأخذه بإظهار نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الدعوى ومن زعم أنه علوى وهو كاذب ، وأعطاه مسلم مالا لحبه أهل البيت ، ولو علم أنه كاذب

لم يعطه شيئا فأخذه على ذلك حرام، وكذلك الصوفي ، ولهذا احترز المحتاطون عن الأكل بالدين ، فإن المبالغ فى الاحتياط لدينه لاينفك فى باطنه عن عورات لو انكشفت للراغب فى مواساته لفترت رغبته عن المواساة ، فلا جرم كانوا لايشترون شيئا بأنفسهم مخافة أن يسامحوا لأجل دينهم ، فيكونوا قد أكلوا بالدين ، وكانوا يوكلون من يشترى لهم ويشترطون على الوكيل أن لايظهر أنه لمن يشترى ، نعم : إنما يحل أخذ مايعطى لأجل الدين إذا كان الآخذ بحيث لو علم المعطى من باطنه مايعلمه الله تعالى لم يقتض ذلك فتورا فى رأيه فيه ، والعاقل المنصف يعلم من نفسه أن ذلك ممتنع أو عزيز ، والمغرور الجاهل بنفسه أحرى بأن يكون جاهلا بأمر دينه فإن أقرب الأشياء إلى قالبه قلبه ، فإذا التبس عليه أمر قلبه فكيف ينكشف له غيره ، ومن عرف هذه الحقيقة لزمه لامحالة أن لا يأكل إلا من كسبه ليأمن من هذه الغائلة ، أو لا يأكل إلا من مال من يعلم قطعا أنه لو انكشف له عورات باطنه لم يمنعه ذلك عن مواساته ، فإن اضطر طالب الحلال ومريد طريق الآخرة إلى أخذ مال غيره ، فليصرح له وليقل إنك إن كنت تعطينى لما تعتقده في من الدين فلست مستحقا لذلك ، ولو كشف الله تعالى سترى لم ترنى بعين التوقير ، بل اعتقدت أنى شر الخلق أو من شرارهم ، فإن أعطاه مع ذلك فليأخذ فإنه ربما يرضى منه هذه الخصلة وهو اعترافه على نفسه بركاكة الدين ، وعدم استحقاقه لما يأخذه ، ولكن ههنا مكيدة للنفس بينة، ومخادعة فليتفطن لها ، وهو أنه قد يقول ذلك مظهرا أنه متشبه بالصالحين فى ذمهم نفوسهم واستحقارهم لها ، ونظرهم إليها بعين المقت والازدراء ، فتكون صورة الكلام صورة القدح والازدراء ، وباطنه وروحه هو عين المدح والإطراء ؛ فكم من ذام نفسه وهو لها مادح بعين ذمه ، فذم النفس فى الخلوة مع النفس هو المحمود ، وأما الذم فى الملأ فهو عين الرياء ، إلا إذا أورده إيرادا يحصل للمستمع يقينا بأنه مقترف للذنوب ، ومعترف بها ، وذلك مما يمكن تفهيمه بقرائن الأحوال ، ويمكن تلبيسه بقرائن الأحوال ، والصادق بينه وبين الله تعالى يعلم أن مخادعته لله عز وجل ، أو مخادعته لنفسه محال ، فلا يتعذر عليه الاحتراز عن أمثال ذلك ، فهذا هو القول فى أقسام السفر ، ونية المسافر ، وفضيلته .

الفصل الثانى

فى آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه، وهي أحد عشر أدباً

الأول : أن يبدأ برد المظالم ، وقضاء الديون ، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته ، ويرد الودائع إن كانت عنده ، ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب ، وليأخذ قدرا يوسع به على رفقائه ، قال ابن عمر رضي الله عنهما : من كرم الرجل طيب زاده فى سفره ، ولابد فى السفر من طيب الكلام ، وإطعام الطعام ، وإظهار مكارم الأخلاق فى السفر ، فإنه يخرج خبايا الباطن ، ومن صلح لصحبة السفر صلح لصحبة الحضر ، وقد يصلح فى الحضر من لا يصلح فى السفر . ولذلك قيل : إذا أثنى على الرجل معاملوه فى الحضر ، ورفقاؤه فى السفر ، فلا تشكوا فى صلاحه ، والسفر من أسباب الضجر ، ومن أحسن خلقه فى الضجر فهو الحسن الخلق ، وإلا فعند مساعدة الأمور على وفق الغرض قلما يظهر سوء الخلق ، وقد قيل : ثلاثة لا يلامون على الضجر ، الصائم ، والمريض ، والمسافر ، وتمام حسن خلق المسافر الإحسان إلى المكارى ، ومعاونة الرفقة بكل ممكن ، والرفق بكل منقطع بأن لا يجاوزه إلا بالإعانة بمركوب أو زاد أو توقف لأجله وتمام ذلك مع الرفقاء بمزاح ، ومطايبة فى بعض الأوقات من غير فحش ولا معصية ، ليكون ذلك شفاء لضجر السفر ومشاقه

الثانى : أن يختار رفيقا ، فلا يخرج وحده ، فالرفيق ثم الطريق ، وليكون رفيقه ممن يعينه على الدين ، فيذكره إذا نسي ، ويعينه ويساعده إذا ذكر ، فإن المرء على دين خليله ولا يعرف الرجل إلا برفيقه . وقد نهى صلى الله عليه وسلم [1] « عَنْ أَنْ يُسَافِرَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ » وقال[2] « الثَّلَاثَةُ نَفَرٌ » وقال أيضا[3] « إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فِي السَّفَرِ فَأَمِّرُوا أَحَدَكُمْ »

---

(١) حديث النهى عن أن يسافر الرجل وحده: أحمد من حديث ابن عمر بسند صحيح وهو عند البخارى بلفظ لو يعلم الناس ما فى الوحدة ماسار راكب بليل وحده

(٢) حديث الثلاثة نفر: رويناه من حديث على فى وصيته المشهورة وهو حديث موضوع والمعروف الثلاثة ركب رواه أبو داود والترمذى وحسنه النسائي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده

(٣) حديث اذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم: الطبرانى من حديث ابن مسعود باسناد حسن

(١) وكانوا يفعلون ذلك ، ويقولون : هذا أميرنا أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم وليؤمروا أحسنهم أخلاقا ، وأرفقهم بالأصحاب ، وأسرعهم إلى الإيثار ، وطلب الموافقة وإنما يحتاج إلى الأمير لأن الآراء تختلف فى تعيين المنازل ، والطرق ، ومصالح السفر ولا نظام إلا فى الوحدة ولا فساد إلا فى الكثرة ، وإنما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكل واحد و(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا (١)) ومهما كان المدبر واحدا انتظم أمر التدبير وإذا كثر المدبرون فسدت الأمور فى الحضر والسفر ، إلا أن مواطن الإقامة لا تخلو عن أمير عام كأمير البلد ، وأمير خاص كرب الدار ، وأما السفر : فلا يتعين له أمير إلا بالتأمير فلهذا وجب التأمير ليجتمع شتات الآراء ، ثم على الأمير أن لا ينظر إلا لمصلحة القوم ، وأن يجعل نفسه وقاية لهم ، كما نقل عن عبد الله المروزى أنه صحبه أبو على الرباطى ، فقال على أن تكون أنت الأمير أو أنا ، فقال بل أنت ، فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبى علي على ظهره فأمطرت السماء ذات ليلة ، فقام عبد الله طول الليل على رأس رفيقه ، وفى يده كساء يمنع عنه المطر ، فكلما قال له عبد الله لا تفعل ، يقول ألم تقل إن الإمارة مسلمة لى فلا تتحكم علي ولا ترجع عن قولك حتى قال أبو على : وددت أنى مت ولم أقل له أنت الأمير ، فهكذا ينبغى أن يكون الأمير ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) « خَيْرُ الْأَصْحَابِ أَرْبَعَةٌ » وتخصيص الأربعة من بين سائر الأعداد لا بد أن يكون له فائدة ، والذى ينقدح فيه أن المسافر لا يخلو عن رجل يحتاج إلى حفظه ، وعن حاجة يحتاج إلى التردد فيها ، ولو كانوا ثلاثة لكان المتردد فى الحاجة واحدا ، فيتردد فى السفر بلا رفيق ، فلا يخلو عن خطر وعن ضيق قلب ، لفقد أنس الرفيق ، ولو تردد فى الحاجة اثنان لكان الحافظ للرجل واحدا

---

(١) حديث كانوا يفعلون ذلك ويقولون هو أمير أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم: البزار والحاكم عن عمر أنه قال إذا كنتم ثلاثة فى سفر فأمروا عليكم أحدكم ذا أمير أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين

(٢) حديث خير الأصحاب أربعة: أبو داود والترمذى والحاكم من حديث ابن عباس قال الترمذى حسن غريب وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين

(١) الأنبياء : ٢٢

فلا يخلو أيضا عن الخطر وعن ضيق الصدر ، فإذاً مادون الأربعة لايفي بالمقصود ، ومافوق الأربعة يزيد ، فلا تجمعهم رابطة واحدة ، فلا ينعقد بينهم الترافق ، لأن الخامس زيادة بعد الحاجة ، ومن يستغنى عنه لاتنصرف الهمة إليه فلا تتم المرافقة معه ، نعم فى كثرة الرفقاء فائدة للأمن من المخاوف ، ولكن الأربعة خير للرفاقة الخاصة لا للرفاقة العامة ، وكم من رفيق فى الطريق عند كثرة الرفاق لايكلم ، ولا يخالط إلى آخر الطريق للاستغناء عنه .

الثالث : أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء، وليدع عند الوداع بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال بعضهم صحبت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة حرسها الله ، فلما أردت أن أفارقه شيعني، وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] يقول « قَالَ لُقْمَانُ إِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا اسْتُودِعَ شَيْئًا حَفِظَهُ وَإِنِّى أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ » وروى زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] أنه قال « إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ سَفَرًا فَلْيُوَدِّعْ إِخْوَانَهُ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَاعِلٌ لَهُ فِي دُعَائِهِمُ الْبَرَكَةَ » وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] كان إذا ودع رجلا قال « زَوَّدَكَ اللهُ التَّقْوَى وَغَفَرَ ذَنْبَكَ وَوَجَّهَكَ إِلَى الْخَيْرِ حَيْثُ تَوَجَّهْتَ » فهذا دعاء المقيم للمودع ، وقال موسى بن وردان أتيت أبا هريرة رضي الله عنه أودعه لسفر أردته ، فقال ألا أعلمك ياابن أخى شيئا علمنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الوداع ،فقلت بلى قال قل [٤] « أَسْتَوْدِعُكَ اللهَ الَّذِى لَا تَضِيعُ وَدَائِعُهُ » وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم [٥] فقال إنى أريد سفرا فأوصنى فقال له « فِي حِفْظِ اللهِ وَفِي كَنَفِهِ زَوَّدَكَ اللهُ التَّقْوَى وَغَفَرَ ذَنْبَكَ وَوَجَّهَكَ لِلْخَيْرِ حَيْثُ كُنْتَ أَوْ أَيْنَمَا كُنْتَ » شك فيه الراوى .

---

(١) حديث ابن عمر قال لقمان ان الله اذا استودع شيئا حفظه وانى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك : النسائى فى اليوم والليلة ورواه أبوداود مختصرا واسناده جيد

(٢) حديث زيد بن أرقم اذا أراد أحدكم سفرا فليودع اخوانه فان الله جاعل له فى دعائهم البركة : الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف

(٣) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده كان إذا ودع رجلا قال زودك الله التقوى : الخرائطى فى مكارم الأخلاق والمحاملى فى الدعاء وفيه ابن أبى لهيعة

(٤) حديث أبى هريرة أستودعك الله الذى لاتضيع ودائعه : ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة باسناد حسن

(٥) حديث أنس فى حفظ الله وفى كنفه زودك الله التقوى ـ الحديث : تقدم فى الحج فى الباب الثانى

وينبغي إذا استودع الله تعالى مايخلفه أن يستودع الجمع ولا يخصص ، فقد روي أن عمر رضي الله عنه ، كان يعطي الناس عطاياهم إذ جاءه رجل معه ابن له، فقال له عمر: مارأيت أحدا أشبه بأحد من هذا بك ، فقال له الرجل،أحدثك عنه ياأمير المؤمنين بأمر:إني أردت أن أخرج إلى سفر وأمه حامل به فقالت : تخرج وتدعني على هذه الحالة ، فقلت :أستودع الله مافي بطنك ، فخرجت ثم قدمت ، فإذا هي قد ماتت فجلسنا نتحدث ،فإذا نار على قبرها فقلت للقوم: ما هـذه النار ؟ فقالوا : هذه النار من قبر فلانة نراها كل ليـلة ، فقلت : والله إنها كانت لصوامة قوامة ؟ فأخذت المعول حتى انتهينا إلى القبر فحفرنا فإذا سراج وإذا هذ الغلام يدب ، فقيل لي إن هذه وديعتك ، ولو كنت استودعت أمه لوجدتها.فقال عمر رضي الله عنه ، لهو أشبه بك من الغراب بالغراب

الرابع . أن يصلي قبل سفره صلاة الاستخارة ، كما وصفناها في كتاب الصلاة ،ووقت الخروج يصلي لأجل السفر فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم [1] فقال إني نذرت سفرا وقد كتبتُ وصيتي فإلى أي الثلاثة أدفعها، إلى ابني، أم أخي ،أم أبي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مَا اسْتَخْلَفَ عَبْدٌ فِي أَهْلِهِ مِنْ خَلِيفَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ يُصَلِّيهِنَّ فِي بَيْتِهِ إِذَا شَدَّ عَلَيْهِ ثِيَابَ سَفَرِهِ يَقْرَأُ فِيهِنَّ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَقَرَّبُ بِهِنَّ إِلَيْكَ فَاخْلُفْنِي بِهِنَّ فِي أَهْلِي وَمَالِي فَهِيَ خَلِيفَتُهُ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَحِرْزٌ حَوْلَ دَارِهِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ »

الخامس : اذا حصل على باب الدار فليقل، بسم الله توكلت على الله ، ولا حـول ولا قوة إلا بالله ، رب أعوذ بك أن أضل أو أضل ، أو أزل أو أزل ، أو أظلم أو أظلم ،أو أجهل أو يجهل علي؟ فإذامشى قال: اللهم بك انتشرت،وعليك توكلت،وبك اعتصمت،وإليك توجهت اللهم أنت ثقتي، وأنت رجائي، فاكفني ما أهمني ومالا أهتم به ، وما أنت أعلم به مني،عز جارك وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ، اللهم زودني التقوى واغفر لي ذنبي ، ووجهني للخير أينما توجهت

---

(١) حديث أنس أن رجلا قال إني نذرت سفراً وقد كتبت وصيتي فالى أي الثلاثة أدفعها إلى أبي أم أخي أم ابني فقال ما استخلف عبد في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات ـ الحديث : الخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه من لا يعرف

وليدع بهذا الدعاء فى كل منزل يرحل عنه ، فإذا ركب الدابة فليقل . بسم الله وبالله والله أكبر ، توكلت على الله ، ولاحول ولاقوة إلابالله العلى العظيم ، ماشاءالله كان ومالم يشألم يكن (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ [١]) فإذا استوت الدابة تحته فليقل (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ [٢]) اللهم أنت الحامل على الظهر ، وأنت المستعان على الأمور

السادس : أن يرحل عن المنزل بكرة ، روى جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم [١] رحل يوم الخميس وهو يريد تبوك وبكر وقال « اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا » ويستحب أن يبتدىء بالخروج يوم الخميس فقد روى عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال « اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا يَوْمَ السَّبْتِ » وكان صلى الله عليه وسلم [٣] إذا بعث سرية بعثها أول النهار ، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم [٤] قال « اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا يَوْمَ خَمِيسِهَا » وقال عبد الله بن عباس إذا كان لك إلى رجل حاجة [٥] فاطلبها منه نهارا ، ولا تطلبها ليلا واطلبها بكرة فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا »

ولا ينبغى أن يسافر بعد طلوع الفجر من يوم الجمعة فيكون عاصيا بترك الجمعة

---

(١) حديث جابر انه صلى الله عليه وسلم رحل يوم الخميس يريد تبوك وقال اللهم بارك لأمتى فى بكورها رواه الخرائطى وفى السنن الأربعة من حديث صخر العامرى اللهم بارك لأمتى فى بكورها قال الترمذى حديث حسن

(٢) حديث كعب بن مالك قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى سفر إلايوم الخميس والسبت البزار مقتصرا على يوم خميسها والخرائطى مقتصرا على يوم السبت وكلاهما ضعيف

(٣) حديث كان اذا بعث سرية بعثها أول النهار: الأربعة من حديث صخر العامرى وحسنه الترمذى

(٤) حديث أبى هريرة اللهم بارك لأمتى فى بكورها يوم خميسها: ابن ماجه والخرائطى فى مكارم الأخلاق واللفظ له وقال ابن ماجه يوم الخميس وكلا الاسنادين ضعيف

(٥) حديث ابن عباس إذا كانت لك إلى رجل حاجة فاطلبها إليه نهارا ـ الحديث : البزار والطبرانى فى الكبير والخرائطى فى مكارم الأخلاق واللفظ له وإسناده ضعيف

---

(١) الزخرف : ١٣ ، ١٤ (٢) الاعراف : ٤٣

واليوم منسوب إليها فكان أوله من أسباب وجوبها، والتشييع للوداع مستحب وهو سنة ، قال صلى الله عليه وسلم [١] « لَأَنْ أُشَيِّعَ مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ اللهِ فَأَكْتَنِفَهُ عَلَى رَحْلِهِ غَدْوَةً أَوْ رَوْحَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا »

السابع: أن لا ينزل حتى يحمى النهار فهي السنة ويكون أكثر سيره بالليل ، قال صلى الله عليه وسلم [٢] « عَلَيْكُمْ بِالدُّلْجَةِ » فإن الأرض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار ، ومهما أشرف على المنزل فليقل : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما ذرين ، ورب البحار وماجرين ، أسألك خير هذا المنزل وخير أهله ، وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر مافيه ، اصرف عني شر شرارهم ، فإذا نزل المنزل فليصل فيه ركعتين ، ثم ليقل : اللهم إنى أعوذ بكلمات الله التامات التى لايجاوزهن بر ولا فاجر من شرماخلق، فإذا جن عليه الليل فليقل :ياأرض ربى وربك الله، أعوذ بالله من شرك ، ومن شر مافيك ، وشر مادب عليك ، أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب، ومن شر ساكنى البلد ووالد وماولد (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [١]) ومهما علا شرفا من الأرض فى وقت السير فينبغى أن يقول : اللهم لك الشرف على كل شرف ، ولك الحمد على كل حال ، ومهما هبط سبح، ومهما خاف الوحشة فى سفره قال: سبحان الملك القدوس، رب الملائكة والروح، جللت السموات بالعزة والجبروت

الثامن : أن يحتاط بالنهار ، فلا يمشى منفردا خارج القافلة ، لأنه ربما يغتال أو ينقطع ويكون بالليل متحفظا عند النوم ، كان صلى الله عليه وسلم [٣] إذا نام فى ابتداء الليل فى السفر افترش ذراعه ، وإن نام فى آخر الليل نصب ذراعه نصبا ، وجعل رأسه فى كفه والغرض من ذلك ، أن لايستثقل فى النوم فتطلع الشمس وهو نائم لايدرى ، فيكون مايفوته من الصلاة أفضل مما يطلبه بسفره

---

(١) حديث لأن أشيع مجاهدا فى سبيل الله فأكتنفه على رحله غدوة أو روحة أحب إلى من الدنيا ومافيها ابن ماجه بسند ضعيف من حديث معاذ بن أنس

(٢) حديث عليكم بالدلجة ـ الحديث : تقدم فى الباب الثانى من الحج

(٣) حديث كان اذا نام فى ابتداء الليل فى السفر افترش ذراعيه ـ الحديث : تقدم فى الحج

(١) الانعام : ١٣

والمستحب بالليل [١] أن يتناوب الرفقاء فى الحراسة ، فإذا نام واحد حرس آخر فهذه السنة ، ومهما قصده عدو أو سبع فى ليل أو نهار ، فليقرأ آية الكرسى ،وشهدالله،وسورة الإخلاص ، والمعوذتين ، وليقل بسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله ، حسبي الله ، توكلت على الله ، ماشاء الله ، لايأتى بالخيرات إلا الله ، ماشاء الله لايصرف السوء إلا الله ، حسبى الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، ليس وراء الله منتهى ،ولادون الله ملجأ.(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [١]) تحصنت بالله العظيم ، واستعنت بالحي القيوم الذى لايموت ، اللهم احرسنا بعينك التى لاتنام ، واكنفنا بركنك الذى لايرام ، اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك ، وأنت ثقتنا ورجاؤنا ، اللهم اعطف علينا قلوب عبادك وإمائك برأفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين

التاسع : أن يرفق بالدابة إن كان راكبا فلا يحملها مالا تطيق ، ولا يضربها فى وجهها فإنه منهي عنه ، ولا ينام عليها فإنه يثقل بالنوم ، وتتأذى به الدابة ،كان أهل الورع لاينامون على الدواب إلا غفوة، وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « لاَ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ كَرَاسِيَّ » ويستحب أن ينزل عن الدابة ، [٣] غدوة وعشية يروحها بذلك فهو سنة، وفيه آثار عن السلف ، وكان بعض السلف يكترى بشرط أن لاينزل ، ويوفى الأجرة ، ثم كان ينزل ليكون بذلك محسنا إلى الدابة ، فيوضع فى ميزان حسناته لا فى ميزان حسنات المكارى. ومن آذى بهيمة بضرب أو حمل مالاتطيق طولب به يوم القيامة ، إذ فى كل كبد حراء أجر ، قال أبو الدرداء رضي الله عنه لبعير له عند الموت ، أيها البعير لاتخاصمنى إلى ربك فإنى لم أك أحملك فوق طاقتك ، وفى النزول ساعة صدقتان ، إحداهما ، ترويح الدابة ، والثانية إدخال السرور على قلب المكارى ، وفيه فائدة أخرى ،وهى رياضة البدن، وتحريك الرجلين

(١) حديث تناوب الرفقاء فى الحراسة : تقدم فى الحج فى الباب الثانى

(٢) حديث لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسى ، تقدم فى الباب الثالث من الحج

(٣) حديث النزول عن الدابة غدوة وعشية : تقدم فيه

(١) المجادلة : ٢١

والحذر من خدر الأعضاء بطول الركوب ، وينبغى أن يقرر مع المكارى مايحمله عليها شيئاً شيئاً ويعرضه عليه ، ويستأجر الدابة بعقد صحيح ، لئلا يثور بينهما نزاع يؤذى القلب ويحمل على الزيادة فى الكلام ، فما يلفظ العبد من قول إلا لديه رقيب عتيد ، فليحترز عن كثرة الكلام واللجاج مع المكارى ، فلاينبغى أن يحمل فوق المشروط شيئا وإن خف، فإن القليل يجر الكثير ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، قال رجل لابن المبارك وهو على دابة أحمل لى هذه الرقعة إلى فلان فقال : حتى أستأذن المكارى ، فإنى لم أشارطه على هذه الرقعة، فانظر كيف لم يلتفت إلى قول الفقهاء إن هذا مما يتسامح فيه ولكن سلك طريق الورع

العاشر : ينبغى أن يستصحب ستة أشياء ، قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] إذا سافر حمل معه خمسة أشياء ، المرآة ، والمكحلة ، والمقراض والسواك ، والمشط ، وفى رواية أخرى عنها ستة أشياء المرآة ، والقارورة ، والمقراض والسواك ، والمكحلة ، والمشط ، وقالت أم سعد الأنصارية كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٢)] ، لايفارقه فى السفر المرآة والمكحلة ، وقال صهيب: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [(٣)] « عَلَيْكُمْ بِالْإِثْمِدِ عِنْدَ مَضْجَعِكُمْ فَإِنَّهُ مِمَّا يَزِيدُ فِي الْبَصَرِ وَيُنْبِتُ الشَّعْرَ » وروي أنه كان يكتحل ثلاثا ثلاثا : وفى رواية أنه اكتحل [(٤)] لليمنى ثلاثا ، ولليسرى ثنتين وقد زاد الصوفية الركوة والحبل ، وقال بعض الصوفية إذا لم يكن مع الفقير ركوة وحبل دل على نقصان دينه ، وإنما زادوا هذا لما رأوه من الاحتياط فى طهارة الماء وغسل الثياب فالركوة لحفظ الماء الطاهر ، والحبل لتجفيف الثوب المغسول ، ولنزع الماء من الآبار

---

(١) حديث عائشة كان إذا سافر حمل معه خمسة أشياء المرآة والمكحلة والمدرى والسواك والمشط وفى رواية ستة أشياء : الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى سننه والخرائطى فى مكارم الأخلاق واللفظ له وطرقه كلها ضعيفة

(٢) حديث أم سعد الأنصارية كان لايفارقه فى السفر المرآة والمكحلة : رواه الخرائطى وإسناده ضعيف

(٣) حديث صهيب عليكم بالاثمد عند مضجعكم فانه يزيد فى البصر وينبت الشعر : الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف وهو عند الترمذى وصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث ابن عباس وصححه ابن عبد البر وقال الخطابى صحيح الاسناد

(٤) حديث كان يكتحل لليمنى ثلاثا ولليسرى ثنتين : الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عمر بسند لين

وكان الأولون يكتفون بالتيمم ، ويغنون أنفسهم عن نقل الماء ، ولا يبالون بالوضوء من الغدران ومن المياه كلها ما لم يتيقنوا نجاستها ، حتى توضأ عمر رضي الله عنه من ماء فى جرة نصرانية وكانوا يكتفون بالأرض والجبال عن الحبل ، فيفرشون الثياب المغسولة عليها ، فهذه بدعة إلا أنها بدعة حسنة ، وإنما البدعة المذمومة ما تضاد السنن الثابتة ، وأما مايعين على الاحتياط فى الدين فستحسن ، وقد ذكرنا أحكام المبالغة فى الطهارات فى كتاب الطهارة ، وأن المتجرد لأمر الدين لاينبغى أن يؤثر طريق الرخصة ، بل يحتاط فى الطهارة ما لم يمنعه ذلك عن عمل أفضل منه ، وقيل : كان الخواص من المتوكلين ، وكان لايفارقه أربعة أشياء فى السفر والحضر ، الركوة ، والحبل ، والإبرة بخيوطها ، والمقراض ، وكان يقول هذه ليست من الدنيا .

الحادى عشر: فى آداب الرجوع من السفر كان النبى صلى الله عليه وسلم [١] إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة أو غيره يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ، ويقول: لاإله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، وإذا أشرف على مدينته ، فليقل : اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا حسنا ، ثم ليرسل إلى أهله من يبشرهم بقدومه ، كيلا يقدم عليهم بغتة فيرى مايكرهه ، ولا ينبغي له [٢] أن يطرقهم ليلا ، فقد ورد النهى عنه ، وكان صلى الله عليه وسلم [٣] إذا قدم دخل المسجد أولا وصلى ركعتين ثم دخل البيت ، وإذا دخل قال [٤] « تَوْباً تَوْباً لِرَبِّنَا أَوْباً أَوْباً لاَيُغَادِرُ عَلَيْنَا حَوْباً » وينبغى أن يحمل لأهل بيته وأقاربه تحفة من مطعوم أو غيره على قدر إمكانه فهو سنة

---

(١) حديث كان إذا قفل من حج أو غزو أو غيره يكبر ـ الحديث : تقدم فى الحج

(٢) حديث النهى عن طروق الأهل ليلا : تقدم

(٣) حديث كان إذا قدم من سفر دخل المسجد أولا وصلى ركعتين : تقدم

(٤) حديث كان إذا دخل قال توبا توبا لربنا أوبا لايغادر حوبا : ابن السنى فى اليوم والليلة والحاكم من حديث ابن عباس وقال صحيح على شرط الشيخين

فقد روي أنه إن لم يجد شيئا فليضع فى مخلاته [1] حجرا وكأن هذا مبالغة فى الاستحثاث على هذه المكرمة ، لأن الأعين تمتد إلى القادم من السفر ، والقلوب تفرح به فيتأكد الاستحباب فى تأكيد فرحهم ، وإظهار التفات القلب فى السفر إلى ذكرهم بما يستصحبه فى الطريق لهم ، فهذه جملة من الآداب الظاهرة

وأما الآداب الباطنة ففى الفصل الأول بيان جملة منها ، وجملته أن لايسافر إلا إذا كان زيادة دينه في السفر ، ومهما وجد قلبه متغيرا إلى نقصان فليقف ولينصرف ، ولا ينبغى أن يجاوز همه منزله بل ينزل حيث ينزل قلبه ، وينوى فى دخول كل بلدة أن يرى شيوخها ، ويجتهد أن يستفيد من كل واحد منهم أدبا أو كلمة لينتفع بها لاليحكي ذلك ، ويظهر أنه لقى المشايخ ولا يقيم ببلدة أكثر من أسبوع أو عشرة أيام ، إلا أن يأمره الشيخ المقصود بذلك ولا يجالس فى مدة الإقامة إلا الفقراء الصادقين ، وإن كان قصده زيارة أخ فلا يزيد على ثلاثة أيام فهو حد الضيافة ، إلا إذا شق على أخيه مفارقته ، وإذا قصد زيارة شيخ فلا يقيم عنده أكثر من يوم وليلة ، ولا يشغل نفسه بالعشرة ، فإن ذلك يقطع بركة سفره ، وكلما دخل بلدا لا يشتغل بشيء سوى زيارة الشيخ بزيارة منزله فإن كان فى بيته فلا يدق عليه بابه ، ولا يستأذن عليه إلى أن يخرج ، فإذا خرج تقدم إليه بأدب فسلم عليه ، ولا يتكلم بين يديه إلا أن يسأله فإن سأله أجاب بقدر السؤال ، ولا يسأله عن مسألة مالم يستأذن أولا ، وإذا كان فى السفر فلا يكثر ذكر أطعمة البلدان وأسخيائها ، ولا ذكر أصدقائه فيها، وليذكر مشايخها وفقراءها ولا يهمل فى سفره زيارة قبور الصالحين، بل يتفقدها فى كل قرية وبلدة، ولا يظهر حاجته إلا بقدر الضرورة ، ومع من يقدر على إزالتها ، ويلازم فى الطريق الذكر وقراءة القرءان بحيث لايسمع غيره ، وإذا كلمه إنسان فليترك الذكر وليجبه مادام يحدثه، ثم ليرجع إلى ما كان عليه ، فإن تبرمت نفسه بالسفر أو بالإقامة فليخالفها ، فالبركة فى مخالفة النفس وإذا تيسرت له خدمة قوم صالحين فلا ينبغى له أن يسافر تبرما بالخدمة. فذلك كفران نعمة ومهما وجد نفسه فى نقصان عما كان عليه فى الحضر فليعلم أن سفره معلول وليرجع إذ لو كان لحق لظهر أثره . قال رجل لأبى عثمان المغربى خرج فلان مسافرا : فقال

---

(١) حديث إطراق أهله عند القدوم ولو بحجر : الدار قطنى من حديث عائشة بإسناد ضعيف

السفر غربة ، والغربة ذلة ، وليس للمؤمن أن يذل نفسه ، وأشار به إلى أن من ليس له فى السفر زيادة دين فقد أذل نفسه ، وإلا فعز الدين لا ينال إلا بذلة الغربة ، فليكن سفر المريد من وطن هواه ومراده وطبعه ، حتى يعز فى هذه الغربة ولا يذل ؛ فإن من اتبع هواه فى سفره ذل لا محالة إما عاجلا وإما آجلا

الباب الثالث

فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات

اعلم أن المسافر يحتاج فى أول سفره إلى أن يتزود لدنياه ولآخرته ، أما زاد الدنيا فالطعام والشراب ، وما يحتاج إليه من نفقة ، فإن خرج متوكلا من غير زاد فلا بأس به إذا كان سفره فى قافلة ، أو بين قرى متصلة ، وإن ركب البادية وحده أو مع قوم لا طعام معهم ولا شراب ، فإن كان ممن يصبر على الجوع أسبوعا أو عشرا مثلا أو يقدر على أن يكتفى بالحشيش فله ذلك ، وإن لم يكن له قوة الصبر على الجوع ولا القدرة على الاجتزاء بالحشيش فخروجه من غير زاد معصية ، فإنه ألقى نفسه بيده إلى التهلكة ، ولهذا سر سيأتى فى كتاب التوكل ، وليس معنى التوكل التباعد عن الأسباب بالكلية ، ولو كان كذلك لبطل التوكل بطلب الدلو ، والحبل ، ونزع الماء من البئر ، ولوجب أن يصبر حتى يسخر الله له ملكا أو شخصا آخر حتى يصب الماء فى فيه ، فإن كان حفظ الدلو والحبل لا يقدح فى التوكل وهو آلة الوصول إلى المشروب فحمل عين المطعوم والمشروب حيث لا ينتظر له وجود أولى بأن لا يقدح فيه ، وستأتى حقيقة التوكل فى موضعها ، فإنه يلتبس إلا على المحققين من علماء الدين وأما زاد الآخرة فهو العلم الذى يحتاج إليه فى طهارته وصومه وصلاته وعباداته ، فلا بد وأن يتزود منه إذ السفر تارة يخفف عنه أمورا فيحتاج إلى معرفة القدر الذى يخففه السفر كالقصر ، والجمع ، والفطر ، وتارة يشدد عليه أمورا كان مستغنيا عنها فى الحضر ، كالعلم بالقبلة ، وأوقات الصلوات ، فإنه فى البلد يكتفى بغيره من محاريب المساجد ، وأذان المؤذنين وفى السفر قد يحتاج إلى أن يتعرف بنفسه فإذن ما يفتقر إلى تعلمه ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول

العلم برخص السفر

والسفر يفيد فى الطهارة رخصتين ، مسح الخفين ،والتيمم ، وفى صلاة الفرض رخصتين القصر ، والجمع ، وفى النفل رخصتين ، أداؤه على الراحلة ، وأداؤه ماشيا ، وفى الصوم رخصة واحدة وهي الفطر ، فهذه سبع رخص .

الرخصة الأولى : المسح على الخفين . قال صفوان بن عسال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] إذا كنا مسافرين أو سفرا ، أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن . فكل من لبس الخف على طهارة مبيحة للصلاة ثم أحدث ، فله أن يمسح على خفه من وقت حدثه ثلاثة أيام ولياليهن إن كان مسافرا ، أو يوما وليلة إن كان مقيما ، ولكن بخمسة شروط

الأول : أن يكون اللبس بعد كمال الطهارة ، فلو غسل الرجل اليمنى وأدخلها فى الخف ثم غسل اليسرى فأدخلها فى الخف ، لم يجز له المسح عند الشافعي رحمه الله حتى ينزع اليمنى ويعيد لبسه .

الثانى : أن يكون الخف قويا يمكن المشي فيه ، ويجوز المسح على الخف وإن لم يكن منعلا ، إذ العادة جارية بالتردد فيه فى المنازل لأن فيه قوة على الجملة ، بخلاف جورب الصوفية فإنه لا يجوز المسح عليه وكذا الجرموق الضعيف

الثالث : أن لا يكون فى موضع فرض الغسل خرق ، فإن تخرق بحيث انكشف محل الفرض لم يجز المسح عليه ، وللشافعي قول قديم أنه يجوز ما دام يستمسك على الرجل ، وهو مذهب مالك رضي الله عنه ، ولا بأس به لمسيس الحاجة إليه ، وتعذر الخرز فى السفر فى كل وقت ، والمداس المنسوج يجوز المسح عليه مهما كان ساترا لا تبدو بشرة القدم من خلاله

(الباب الثانى فيما لا بد للمسافر من تعلمه)

١) حديث صفوان بن عسال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنا مسافرين أو سفرا أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن : الترمذي وصححه وابن ماجه والنسائى فى الكبرى وابن خزيمة وابن حبان

وكذا المشقوق الذى يرد على محل الشق بشرج ، لأن الحاجة تمس إلى جميع ذلك، فلايعتبر إلا أن يكون ساترا إلى مافوق الكعبين كيفما كان ، فأما إذا ستر بعض ظهر القدم وستر الباقى باللفافة لم يجز المسح عليه

الرابع : أن لا ينزع الخف بعد المسح عليه ، فإن نزع فالأولى له استئناف الوضوء فإن اقتصر على غسل القدمين جاز

الخامس: أن يمسح على الموضع المحاذى لمحل فرض الغسل لاعلى الساق ، وأقله مايسمى مسحا على ظهر القدم من الخف ، وإذا مسح بثلاث أصابع أجزأه ، والأولى أن يخرج من شبهة الخلاف ، وأكمله أن يمسح أعلاه وأسفله دفعة واحدة من غير تكرار ، كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] ووصفه أن يبل اليدين ، ويضع رؤس أصابع اليمنى من يده على رؤس أصابع اليمنى من رجله ويمسحه ، بأن يجر أصابعه إلى جهة نفسه،ويضع رؤس أصابع يده اليسرى على عقبه من أسفل الخف ، ويمرها إلى رأس القدم، ومهما مسح مقيما ثم سافر،أو مسافرا ثم أقام غلب حكم الإقامة فليقتصر على يوم وليلة،وعدد الأيام الثلاثة محسوب من وقت حدثه بعد المسح على الخف ، فلو لبس الخف فى الحضر ومسح فى الحضر ثم خرج وأحدث فى السفر وقت الزوال مثلا مسح ثلاثة أيام ولياليهن من وقت الزوال إلى الزوال من اليوم الرابع ، فإذا زالت الشمس من اليوم الرابع لم يكن له أن يصلى إلا بعد غسل الرجلين فيغسل رجليه ، ويعيد لبس الخف ويراعى وقت الحدث ويستأنف الحساب من وقت الحدث ، ولو أحدث بعد لبس الخف فى الحضر ، ثم خرج بعد الحدث فله أن يمسح ثلاثة أيام ، لأن العادة قد تقتضى اللبس قبل الخروج ، ثم لايمكن الاحتراز من الحدث ، فأما إذا مسح فى الحضر ثم سافر اقتصر على مدة المقيمين ، ويستحب لكل من يريد لبس الخف فى حضر أو سفر ، أن ينكس الخف وينفض مافيه حذرا من حية أوعقرب ، أو شوكة ، فقد روي عن أبى أمامة أنه قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخفيه ، فلبس أحدهما فجاء غراب فاحتمل الآخر ثم رمى به فخرجت منه حية ، فقال

---

(١) حديث مسحه صلى الله عليه وسلم على الخف وأسفله : أبوداودوالترمذى وضعفه وابن ماجه من حديث المغيرة وهكذا ضعفه البخارى وأبوزرعة

صلى الله عليه وسلم [١] « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يَلْبَسُ خُفَّيْهِ حَتَّى يَنْفُضَهُمَا »

الرخصة الثانية التيمم بالتراب بدلا عن الماء عند العذر وإنما يتعذر الماء ، بأن يكون بعيدا عن المنزل بعدا لو مشي إليه لم يلحقه غوث القافلة ، إن صاح أو استغاث ، وهو البعد الذى لا يعتاد أهل المنزل فى ترددهم لقضاء الحاجة التردد إليه ، وكذا إن نزل على الماء عدو أو سبع فيجوز التيمم ، وإن كان الماء قريبا ، وكذا إن احتاج إليه لعطشه فى يومه أو بعد يومه لفقد الماء بين يديه فله التيمم ، وكذا إن احتاج إليه لعطش أحد رفقائه فلا يجوز الوضوء ويلزمه بذله إما بثمن أو بغير ثمن ، ولو كان يحتاج إليه لطبيخ مرقة أو لحم أو لبل فتيت يجمعه به لم يجز له التيمم ، بل عليه أن يجتزى بالفتيت اليابس ويترك تناول المرقة ، ومهما وهب له الماء وجب قبوله ، وإن وهب له ثمنه لم يجب قبوله ، لما فيه من المنة وإن بيع بثمن المثل لزمه الشراء ، وإن بيع بغبن لم يلزمه ، فإذا لم يكن معه ماء وأراد أن يتيمم فأول ما يلزمه طلب الماء مهما جوز الوصول إليه بالطلب وذلك بالتردد حوالى المنزل ، وتفتيش الرحل ، وطلب البقايا من الأوانى والمطاهر ، فإن نسي الماء فى رحله ، أو نسي بئرا بالقرب منه لزمه إعادة الصلاة لتقصيره فى الطلب ، وإن علم أنه سيجد الماء فى آخر الوقت فالأولى أن يصلي بالتيمم فى أول الوقت فإن العمر لا يوثق به ، وأول الوقت رضوان الله

تيمم ابن عمر رضي الله عنهما فقيل له أتتيمم وجدران المدينة تنظر إليك ؟ فقال أو أبقى إلى أن أدخلها ، ومهما وجد الماء بعد الشروع فى الصلاة لم تبطل صلاته ، ولم يلزمه الوضوء وإذا وجده قبل الشروع فى الصلاة لزمه الوضوء ، ومهما طلب فلم يجد فليقصد صعيدا طيبا عليه تراب يثور منه غبار ، وليضرب عليه كفيه بعد ضم أصابعهما ضربة فيمسح بهما وجهه ويضرب ضربة أخرى بعد نزع الخاتم ، ويفرج الأصابع ويمسح بها يديه إلى مرفقيه ، فإن لم يستوعب بضربة واحدة جميع يديه ضرب ضربة أخرى ، وكيفية التلطف فيه ماذكرناه فى كتاب الطهارة فلا نعيده ، ثم إذا صلى به فريضة واحدة فله أن يتنفل ماشاء بذلك التيمم وإن أراد الجمع بين فريضتين فعليه أن يعيد التيمم للصلاة الثانية فلا يصلى فريضتين إلا بتيممين

---

(١) حديث أبي أمامة من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما : رواه الطبرانى وفيه من لا يعرف

ولا ينبغي أن يتيمم لصلاة قبل دخول وقتها ، فإن فعل وجب عليه إعادة التيمم ولينو عند مسح الوجه استباحة الصلاة ، ولو وجد من الماء ما يكفيه لبعض طهارته فليستعمله ثم ليتيمم بعده تيمما تاما

الرخصة الثالثة : في الصلاة المفروضة القصر ، وله أن يقتصر في كل واحدة من الظهر والعصر والعشاء على ركعتين ولكن بشروط ثلاثة

الأول : أن يؤديها في أوقاتها فلو صارت قضاء فالأظهر لزوم الإتمام

الثاني : أن ينوي القصر فلو نوى الإتمام لزمه الإتمام ، ولو شك في أنه نوى القصر أو الإتمام لزمه الإتمام

الثالث : أن لا يقتدي بمقيم ولا بمسافر متم ، فإن فعل لزمه الإتمام ، بل إن شك في أن إمامه مقيم أو مسافر لزمه الإتمام، وإن تيقن بعده أنه مسافر، لأن شعار المسافر لا تخفى، فليكن متحققا عند النية ، وإن شك في أن إمامه هل نوى القصر أم لا بعد أن عرف أنه مسافر لم يضره ذلك ، لأن النيات لا يطلع عليها ، وهذا كله إذا كان في سفر طويل مباح ، وحد السفر من جهة البداية والنهاية فيه إشكال ، فلا بد من معرفته ، والسفر هو الانتقال من موضع الإقامة مع ربط القصد بمقصد معلوم ، فالهائم وراكب التعاسيف ليس له الترخص وهو الذي لا يقصد موضعا معينا ؛ ولا يصير مسافرا ما لم يفارق عمران البلد ، ولا يشترط أن يجاوز خراب البلدة وبساتينها التي يخرج أهل البلدة إليها للتنزه ، وأما القرية فالمسافر منها ينبغي أن يجاوز البساتين المحوطة دون التي ليست بمحوطة ، ولو رجع المسافر إلى البلد لأخذ شيء نسيه لم يترخص إن كان ذلك وطنه ما لم يجاوز العمران ، وإن لم يكن ذلك هو الوطن فله الترخص ، إذ صار مسافرا بالانزعاج والخروج منه

وأما نهاية السفر فبأحد أمور ثلاثة

الاول : الوصول إلى العمران من البلد الذي عزم على الإقامة به

الثاني : العزم على الإقامة ثلاثة أيام فصاعدا ، إما في بلد أو في صحراء

الثالث : صورة الإقامة وإن لم يعزم كما إذا أقام على موضع واحد ثلاثة أيام سوى يوم الدخول لم يكن له الترخص بعده وإن لم يعزم على الإقامة وكان له شغل وهو يتوقع كل يوم إنجازه ، ولكنه يتعوق عليه ويتأخر، فله أن يترخص وإن طالت المدة على أقيس القولين لأنه منزعج بقلبه ومسافر عن الوطن بصورته ، ولا مبالاة بصورة الثبوت على موضع واحد مع انزعاج القلب ، ولا فرق بين أن يكون هذا الشغل قتالا أو غيره ، ولا بين أن تطول المدة أو تقصر ، ولا بين أن يتأخر الخروج لمطر لا يعلم بقاؤه ثلاثة أيام أو لغيره ، إذ ترخص رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] فقصر فى بعض الغزوات ثمانية عشر يوما على موضع واحد ، وظاهر الأمر أنه لو تمادى القتال لتمادى ترخصه، إذ لا معنى للتقدير بثمانية عشر يوما والظاهر أن قصره كان لكونه مسافرا لا لكونه غازيا مقاتلا هذا معنى القصر

وأما معنى التطويل فهو أن يكون مرحلتين، كل مرحلة ثمانية فراسخ، وكل فرسخ ثلاثة أميال، وكل ميل أربعة آلاف خطوة، وكل خطوة ثلاثة أقدام . ومعنى المباح أن لا يكون عاقا لوالديه هاربا منهما ، ولا هاربا من مالكه ، ولا تكون المرأة هاربة من زوجها ، ولا أن يكون من عليه الدين هاربا من المستحق مع اليسار ، ولا يكون متوجها فى قطع طريق أو قتل إنسان أو طلب إدرار حرام من سلطان ظالم أو سعى بالفساد بين المسلمين

وبالجملة فلا يسافر الإنسان إلا فى غرض ، والغرض هو المحرك فإن كان تحصيل ذلك الغرض حراما ولولا ذلك الغرض لكان لا ينبعث لسفره فسفره معصية، ولا يجوز فيه الترخص

وأما الفسق فى السفر بشرب الخمر وغيره فلا يمنع الرخصة ، بل كل سفر ينهى الشرع عنه فلا يعين عليه بالرخصة، ولو كان له باعثان أحدهما مباح، والآخر محظور، وكان بحيث لو لم يكن الباعث له المحظور لكان المباح مستقلا بتحريكه، ولكان لا محالة يسافر لأجله فله الترخص

---

(١) حديث قصره صلى الله عليه وسلم في بعض الغزوات ثمانية عشر يوما على موضوع واحد : أبو داود من حديث عمران بن حصين فى قصة الفتح فأقام بمكة ثمانية عشر ليلة لا يصلى إلا ركعتين وللبخارى من حديث ابن عباس أقام بمكة تسعة عشر يوما يقصر الصلاة ولأبى داود سبعة عشر بتقديم السين وفى رواية له خمسة عشر

والمتصوفة الطوافون فى البلاد من غير غرض صحيح سوى التفرج لمشاهدة البقاع المختلفة فى ترخصهم خلاف ، والمختار أن لهم الترخص

الرخصة الرابعة : الجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما وبين المغرب والعشاء فى وقتيهما. فذلك أيضا جائز فى كل سفر طويل مباح ، وفى جوازه فى السفر القصير قولان ، ثم إن قدم العصر إلى الظهر فلينو الجمع بين الظهر والعصر فى وقتيهما قبل الفراغ من الظهر وليؤذن للظهر وليقم ، وعند الفراغ يقيم للعصر ، ويجدد التيمم أولا إن كان فرضه التيمم ولا يفرق بينهما بأكثر من تيمم وإقامة ، فإن قدم العصر لم يجز ، وإن نوى الجمع عند التحرّم بصلاة العصر جاز عند المزنى ، وله وجه فى القياس ، إذ لا مستند لإيجاب تقديم النية، بل الشرع جوز الجمع ، وهذا جمع ، وإنما الرخصة فى العصر ، فتكفى النية فيها ، وأما الظهر فجار على القانون ، ثم إذا فرغ من الصلاتين ، فينبغى أن يجمع بين سنن الصلاتين، أما العصر فلا سنة بعدها، ولكن السنة التى بعد الظهر يصليها بعد الفراغ من العصر ، إما راكبا أو مقيما، لأنه لو صلى راتبة الظهر قبل العصر لانقطعت الموالاة وهى واجبة على وجه ، ولو أراد أن يقيم الأربع المسنونة قبل الظهر والأربع المسنونة قبل العصر فليجمع بينهن قبل الفريضتين فيصلى سنة الظهر أولا ، ثم سنة العصر ، ثم فريضة الظهر ، ثم فريضة العصر ، ثم سنة الظهر الركعتان اللتان هما بعد الفرض ، ولا ينبغى أن يهمل النوافل فى السفر ، فما يفوته من ثوابها أكثر مما يناله من الربح ، لاسيما وقد خفف الشرع عليه ، وجوز له أداءها على الراحلة كي لا يتعوّق عن الرفقة بسببها ، وإن أخر الظهر إلى العصر فيجرى على هذا الترتيب ولا يبالى بوقوع راتبة الظهر بعد العصر فى الوقت المكروه ، لأن ماله سبب لا يكره فى هذا الوقت ، وكذلك يفعل فى المغرب والعشاء والوتر ، وإذا قدم أو أخر فبعد الفراغ من الفرض يشتغل بجميع الرواتب ويختم الجميع بالوتر ، وإن خطر له ذكر الظهر قبل خروج وقته فليعزم على أدائه مع العصر جمعا ، فهو نية الجمع ، لأنه إنما يخلو عن هذه النية ، إما بنية الترك ، أو بنية التأخير عن وقت العصر وذلك حرام، والعزم عليه حرام، وإن لم يتذكر الظهر حتى خرج وقته إما لنوم أو لشغل فله أن يؤدي الظهر مع العصر ولا يكون عاصيا

لأن السفر كما يشغل عن فعل الصلاة فقد يشغل عن ذكرها ، ويحتمل أن يقال إن الظهر إنما تقع أداء إذا عزم على فعلها قبل خروج وقتها ، ولكن الأظهر أن وقت الظهر والعصر صار مشتركا فى السفر بين الصلاتين ، ولذلك يجب على الحائض قضاء الظهر إذا طهرت قبل الغروب ، ولذلك ينقدح أن لاتشترط الموالاة ولا الترتيب بين الظهر والعصر عند تأخير الظهر ، أما إذا قدم العصر على الظهر لم يجز ، لأن ما بعد الفراغ من الظهر هو الذى جعل وقتا للعصر إذ يبعد أن يشتغل بالعصر من هو عازم على ترك الظهر أو على تأخيره وعذر المطر مجوز للجمع ، كعذر السفر ، وترك الجمعة أيضا من رخص السفر ، وهى متعلقة أيضا بفرائض الصلوات ، ولو نوى الإقامة بعد أن صلى العصر فأدرك وقت العصر فى الحضر فعليه أداء العصر ، وما مضى إنما كان مجزئا بشرط أن يبقى العذر إلى خروج وقت العصر .

الرخصة الخامسة : التنفل راكبا . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] يصلى على راحلته أينما توجهت به دابته ، وأوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الراحلة ، وليس على المتنفل الراكب فى الركوع والسجود إلا الإيماء ، وينبغى أن يجعل سجوده أخفض من ركوعه ولا يلزمه الانحناء إلى حد يتعرض به لخطر بسبب الدابة ، فإن كان فى مرقد فليتم الركوع والسجود فإنه قادر عليه

وأما استقبال القبلة فلا يجب لا فى ابتداء الصلاة ولا فى دوامها ، ولكن صوب الطريق بدل عن القبلة ، فليكن فى جميع صلاته إما مستقبلا للقبلة أو متوجها فى صوب الطريق لتكون له جهة يثبت فيها ، فلو حرف دابته عن الطريق قصدا بطلت صلاته ، إلا إذا حرفها إلى القبلة ، ولو حرفها ناسيا وقصر الزمان لم تبطل صلاته ، وإن طال ففيه خلاف ، وإن جمحت به الدابة فانحرفت لم تبطل صلاته ، لأن ذلك مما يكثر وقوعه ، وليس عليه سجود سهو ، إذ الجماح غير منسوب إليه ، بخلاف ما لو حرف ناسيا ، فإنه يسجد للسهو بالإيماء .

الرخصة السادسة : التنفل للماشى جائز فى السفر . ويومىء بالركوع والسجود ، ولا يقعد للتشهد ، لأن ذلك يبطل فائدة الرخصة ، وحكمه حكم الراكب ، لكن ينبغى أن يتحرم

---

(١) حديث كان يصلى على راحلته أينما توجهت به دابته وأوتر على الراحلة : متفق عليه من حديث ابن عمر

بالصلاة مستقبلا للقبلة ، لأن الانحراف فى لحظة لاعسر عليه فيه ، بخلاف الراكب فإن فى تحريف الدابة وإن كان العنان بيده نوع عسر ، وربما تكثر الصلاة فيطول عليه ذلك ولا ينبغى أن يمشى فى نجاسة رطبة عمدا ، فإن فعل بطلت صلاته ، بخلاف مالو وطئت دابة الراكب نجاسة ، وليس عليه أن يشوش المشي على نفسه بالاحتراز من النجاسات التى لاتخلو الطريق عنها غالبا ، وكل هارب من عدو أو سيل أو سبع فله أن يصلي الفريضة راكبا أو ماشيا كما ذكرناه فى التنفل

الرخصة السابعة: الفطر وهو فى الصوم فللمسافر أن يفطر إلا إذا أصبح مقيما ثم سافر فعليه إتمام ذلك اليوم ، وإن أصبح مسافرا صائما ثم أقام فعليه الإتمام وإن أقام مفطرا فليس عليه الإمساك بقية النهار ، وإن أصبح مسافرا على عزم الصوم لم يلزمه ، بل له أن يفطر إذا أراد ، والصوم أفضل من الفطر ، والقصر أفضل من الإتمام ، للخروج عن شبهة الخلاف ولأنه ليس فى عهدة القضاء ، بخلاف المفطر فإنه فى عهدة القضاء ، وربما يتعذر عليه ذلك بعائق فيبقى فى ذمته إلا إذا كان الصوم يضر به فالإفطار أفضل

فهذه سبع رخص ، تتعلق ثلاث منها بالسفر الطويل ، وهى القصر ، والفطر ، والمسح ثلاثة أيام، وتتعلق اثنتان منها بالسفر طويلا كان أو قصيرا وهما سقوط الجمعة، وسقوط القضاء عند أداء الصلاة بالتيمم ، وأما صلاة النافلة ماشيا وراكبا ففيه خلاف والأصح جوازه فى القصير ، والجمع بين الصلاتين فيه خلاف ، والأظهر اختصاصه بالطويل ، وأما صلاة الفرض راكبا وماشيا للخوف فلا تتعلق بالسفر، وكذا أكل الميتة ، وكذا أداء الصلاة فى الحال بالتيمم عند فقد الماء ، بل يشترك فيها الحضر والسفر مهما وجدت أسبابها

فإن قلت : فالعلم بهذه الرخص هل يجب على المسافر تعلمه قبل السفر أم يستحب له ذلك

فاعلم : أنه إن كان عازما على ترك المسح والقصر والجمع والفطر وترك التنفل راكبا وماشيا لم يلزمه علم شروط الترخص فى ذلك ، لأن الترخص ليس بواجب عليه ، وأما علم رخصة التيمم فيلزمه ، لأن فقد الماء ليس إليه إلا أن يسافر على شاطىء نهر يوثق ببقاء مائه أو يكون معه فى الطريق عالم يقدر على استفتائه عند الحاجة ، فله أن يؤخر إلى وقت الحاجة أما إذا كان يظن عدم الماء ولم يكن معه عالم فيلزمه التعلم لا محالة

فإن قلت : التيمم يحتاج إليه لصلاة لم يدخل بعد وقتها ، فكيف يجب علم الطهارة لصلاة بعد لم تجب وربما لاتجب

فأقول : من بينه وبين الكعبة مسافة لاتقطع إلا فى سنة فيلزمه قبل أشهر الحج ابتداء السفر ، ويلزمه تعلم المناسك لا محالة ، إذا كان يظن أنه لا يجد فى الطريق من يتعلم منه لأن الأصل الحياة واستمرارها ، وما لايتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب ، وكل ما يتوقع وجوبه توقعا ظاهرا غالبا على الظن ، وله شرط لا يتوصل إليه إلا بتقديم ذلك الشرط على وقت الوجوب فيجب تقديم تعلم الشرط لا محالة ، كعلم المناسك قبل وقت الحج وقبل مباشرته فلا يحل إذا للمسافر أن ينشىء السفر ما لم يتعلم هذا القدر من علم التيمم ، وإن كان عازما على سائر الرخص فعليه أن يتعلم أيضا القدر الذى ذكرناه من علم التيمم وسائر الرخص ، فإنه إذا لم يعلم القدر الجائز لرخصة السفر لم يمكنه الاقتصار عليه

فإن قلت : إنه إذ لم يتعلم كيفية التنفل راكباً وماشياً ماذا يضره وغايته إن صلى أن تكون صلاته فاسدة وهى غير واجبة فكيف يكون علمها واجبا

فأقول : من الواجب أن لايصلى النفل على نعت الفساد ، فالتنفل مع الحدث والنجاسة وإلى غير القبلة ومن غير إتمام شروط الصلاة وأركانها حرام ، فعليه أن يتعلم ما يحترز به عن النافلة الفاسدة حذرا عن الوقوع فى المحظور ، فهذا بيان علم ماخفف عن المسافر فى سفره

القسم الثانى

ما يتجدد من الوظيفة بسبب السفر

وهو علم القبلة والأوقات وذلك أيضا واجب فى الحضر ، ولكن فى الحضر من يكفيه من محراب متفق عليه ، يغنيه عن طلب القبلة ، ومؤذن يراعى الوقت فيغنيه عن طلب علم الوقت ، والمسافر قد تشتبه عليه القبلة ، وقد يلتبس عليه الوقت ، فلابد له من العلم بأدلة القبلة والمواقيت

أما أدلة القبلة فهى ثلاثة أقسام ، أرضية ، كالاستدلال بالجبال ، والقرى ، والأنهار ، وهوائية

كالاستدلال بالرياح شمالها وجنوبها ، وصباها ودبورها ، وسماوية ، وهى النجوم

فأما الأرضية والهوائية فتختلف باختلاف البلاد ، فرب طريق فيه جبل مرتفع يعلم أنه على يمين المستقبل ، أو شماله أو ورائه ، أو قدّامه ، فليعلم ذلك وليفهمه ، وكذلك الرياح قد تدل فى بعض البلاد فليفهم ذلك ، ولسنا نقدر على استقصاء ذلك إذ لكل بلد وإقليم حكم آخر

وأما السماوية ، فأدلتها تنقسم إلى نهارية وإلى ليلية . أما النهارية فالشمس ، فلا بد أن يراعي قبل الخروج من البلد أن الشمس عند الزوال أين تقع منه ، أهي بين الحاجبين ، أو على العين اليمنى ، أو اليسرى ، أو تميل إلى الجبين ميلا أكثر من ذلك ، فإن الشمس لا تعدو فى البلاد الشمالية هذه المواقع ، فإذا حفظ ذلك فمهما عرف الزوال بدليله الذى سنذكره عرف القبلة به ، وكذلك يراعى مواقع الشمس منه وقت العصر ، فإنه فى هذين الوقتين يحتاج إلى القبلة بالضرورة ، وهذا أيضا لما كان يختلف بالبلاد فليس يمكن استقصاؤه ، وأما القبلة وقت المغرب فإنها تدرك بموضع الغروب وذلك بأن يحفظ أن الشمس تغرب عن يمين المستقبل ، أو هي مائلة إلى وجهه ، أو قفاه ؟ وبالشفق أيضا تعرف القبلة للعشاء الأخيرة وبمشرق الشمس تعرف القبلة لصلاة الصبح ، فكأن الشمس تدل على القبلة فى الصلوات الخمس ولكن يختلف ذلك بالشتاء والصيف ، فإن المشارق والمغارب كثيرة ، وإن كانت محصورة فى جهتين فلا بد من تعلم ذلك أيضا ، ولكن قد يصلى المغرب والعشاء بعد غيبوبة الشفق فلا يمكنه أن يستدل على القبلة به ، فعليه أن يراعي موضع القطب وهو الكوكب الذى يقال له الجدي ، فإنه كوكب كالثابت لا تظهر حركته عن موضعه ، وذلك إما أن يكون على قفا المستقبل ، أو على منكبه الأيمن من ظهره ، أو منكبه الأيسر فى البلاد الشمالية من مكة ، وفى البلاد الجنوبية كاليمن وما والاها ، فيقع فى مقابلة المستقبل ، فيتعلم ذلك ، وما عرفه فى بلده فليعول عليه فى الطريق كله إلا إذا طال السفر ، فإن المسافة إذا بعدت اختلفت موقع الشمس ، وموقع القطب ، ، وموقع المشارق والمغارب ، إلا أن ينتهى فى أثناء سفره إلى بلاد فينبغى أن يسأل أهل البصيرة ، أو يراقب هذه الكواكب ، وهو مستقبل محراب جامع البلد ، حتى يتضح له ذلك فمهما تعلم هذه الأدلة فله أن يعول عليها ، فإن بان له

أنه أخطأ من جهة القبلة إلى جهة أخرى من الجهات الأربع فينبغى أن يقضى، وإن انحرف عن حقيقة محاذاة القبلة ولكن لم يخرج عن جهتها لم يلزمه القضاء

وقد أورد الفقهاء خلافا فى أن المطلوب جهة الكعبة أو عينها ، وأشكل معنى ذلك على قوم ، إذ قالوا إن قلنا أن المطلوب العين ، فمتى يتصور هذا مع بعد الديار، وإن قلنا أن المطلوب الجهة ، فالواقف فى المسجد إن استقبل جهة الكعبة وهو خارج ببدنه عن موازاة الكعبة لا خلاف فى أنه لا تصح صلاته ، وقد طولوا فى تأويل معنى الخلاف فى الجهة والعين ، ولا بد أولا من فهم معنى مقابلة العين ومقابلة الجهة ، فمعنى مقابلة العين . أن يقف موقفا لو خرج خط مستقيم من بين عينيه إلى جدار الكعبة لاتّصل به وحصل من جانبي الخط زاويتان متساويتان ، وهذه صورته ، والخارج من موقف المصلي يقدر أنه خارج من بين عينيه فهذه صورة مقابلة العين
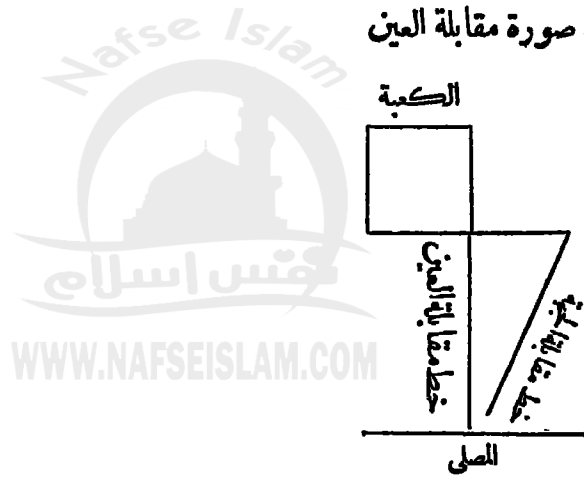
وأما مقابلة الجهة فيجوز فيها أن يتصل طرف الخط الخارجى من بين العينين إلى الكعبة من غير أن يتساوى الزاويتان عن جهتي الخط ، بل لا يتساوى الزاويتان إلا إذا انتهى الخط إلى نقطة معينة هي واحدة ، فلو مد هذا الخط على الاستقامة إلى سائر النقط من يمينها أو شمالها كانت إحدى الزاويتين أضيق ، فيخرج عن مقابلة العين ولكن لا يخرج عن مقابلة الجهة ، كالخط الذى كتبنا عليه مقابلة الجهة فإنه لو قدر الكعبة على طرف ذلك الخط لكان الواقف مستقبلا لجهة الكعبة لا لعينها ، وحد تلك الجهة مايقع بين خطين يتوهمهما الواقف مستقبلا لجهة خارجين من العينين فيلتقى طرفاهما فى داخل الرأس بين العينين على زاوية قائمة

فما يقع بين الخطين الخارجين من العينين فهو داخل فى الجهة، وسعة ما بين الخطين تتزايد بطول الخطين ، وبالبعد عن الكعبة ، وهذه صورته
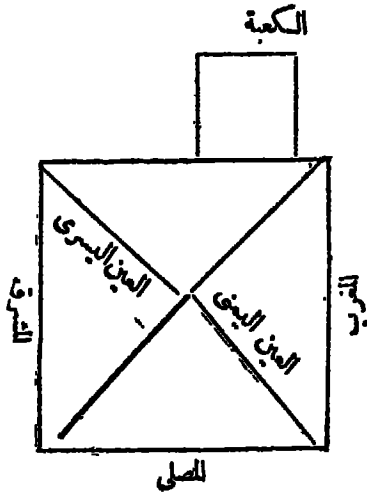
فإذا فهم معنى العين والجهة فأقول الذى يصح عندنا فى الفتوى أن المطلوب العين إذ كانت الكعبة مما يمكن رؤيتها ، وإن كان يحتاج إلى الاستدلال عليها لتعذر رؤيتها فيكفى استقبال الجهة

فأما طلب العين عند المشاهدة فمجمع عليه ، وأما الاكتفاء بالجهة عند تعذر المعاينة فيدل عليه الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضي الله عنهم والقياس

أما الكتاب : فقوله تعالى(وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ [1]) أي نحوه ومن قابل جهة الكعبة يقال قد ولى وجهه شطرها

وأما السنة ، فما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] أنه قال لأهل المدينة «مَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ قِبْلَةٌ » والمغرب يقع على يمين أهل المدينة ، والمشرق على يسارهم ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ما يقع بينهما قبلة ، ومساحة الكعبة لا تفى بما بين المشرق والمغرب ، وإنما يفى بذلك جهتها ، وروي هذا اللفظ أيضا عن عمر وابنه رضي الله عنهما

(١) حديث ما بين المشرق والمغرب قبلة: الترمذى وصححه والنسائى وقال منكر وابن ماجه من حديث أبى هريرة.

(1) البقرة : ١٥٠

وأما فعل الصحابة رضي الله عنهم : فما روي[1] أن أهل مسجد قباء كانوا فى صلاة الصبح بالمدينة مستقبلين لبيت المقدس ، مستدبرين الكعبة ، لأن المدينة بينهما ، فقيل لهم الآن قد حولت القبلة إلى الكعبة فاستداروا فى أثناء الصلاة من غير طلب دلالة، ولم ينكر عليهم وسمي مسجدهم ذا القبلتين ، ومقابلة العين من المدينة إلى مكة لا تعرف إلا بأدلة هندسية يطول النظر فيها ، فكيف أدركوا ذلك على البديهة فى أثناء الصلاة وفى ظلمة الليل ، ويدل أيضا من فعلهم أنهم بنوا المساجد حوالي مكة وفى سائر بلاد الإسلام ، ولم يحضروا قط مهندسا عند تسوية المحاريب ، ومقابلة العين لا تدرك إلا بدقيق النظر الهندسى

وأما القياس: فهو أن الحاجة تمس إلى الاستقبال و بناء المساجد فى جميع أقطار الأرض ولا يمكن مقابلة العين إلا بعلوم هندسية لم يرد الشرع بالنظر فيها، بل ربما يزجر عن التعمق فى علمها ، فكيف ينبنى أمر الشرع عليها فيجب الاكتفاء بالجهة للضرورة

وأما دليل صحة الصورة التى صورناها وهو حصر جهات العالم فى أربع جهات ، فقوله عليه السلام فى آداب قضاء الحاجة[2] « لَا تَسْتَقْبِلُوا بِهَا الْقِبْلَةَ وَلاَ تَسْتَدْبِرُوهَا وَلَـكِنْ شَرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا » وقال هذا بالمدينة ، والمشرق على يسار المستقبل بها ، والمغرب على يمينه ، فنهى عن جهتين ورخص فى جهتين ، ومجموع ذلك أربع جهات، ولم يخطر ببال أحد أن جهات العالم يمكن أن تفرض فى ست ، أو سبع ، أو عشر ، وكيفما كان فما حكم الباقى بل الجهات تثبت فى الاعتقادات بناء على خلقة الإنسان ، وليس له إلا أربع جهات ، قدام وخلف ويمين وشمال ، فكانت الجهات بالإضافة إلى الإنسان فى ظاهر النظر أربعا، والشرع لا يبنى إلا على مثل هـذه الاعتقادات ، فظهر أن المطلوب الجهـة ، وذلك يسهل أمر الاجتهاد فيها وتعلم به أدلة القبلة

فأما مقابلة العين : فإنها تعرف بمعرفة مقدار عرض مكة عن خط الاستواء ، ومقدار درجات طولها ، وهو بعدها عن أول عمارة فى المشرق، ثم يعرف ذلك أيضا فى موقف المصلى

---

(٢) حديث ان أهل قبا كانوا فى صلاة الصبح مستقبلين لبيت المقدس فقيل لهم إلا أن القبلة قد حولت إلى الكعبة فاستداروا ـ الحديث: مسلم من حديث أنس واتفقا عليه من حديث ابن عمر مع اختلاف

(٣) حديث لا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا متفق عليه من حديث أبي أيوب

ثم يقابل أحدهما بالآخر ، ويحتاج فيه إلى آلات وأسباب طويلة ، والشرع غير مبني عليها قطعا ، فإذاً القدر الذى لا بد من تعلمه من أدلة القبلة موقع المشرق والمغرب فى الزوال ، وموقع الشمس وقت العصر ، فبهذا يسقط الوجوب

فإن قلت : فلو خرج المسافر من غير تعلم ذلك هل يعصى

فأقول : إن كان طريقه على قرى متصلة فيها محاريب أو كان معه فى الطريق بصير بأدلة القبلة موثوق بعدالته وبصيرته ، ويقدر على تقليده فلا يعصى ، وإن لم يكن معه شيء من ذلك عصى ، لأنه سيتعرض لوجوب الاستقبال ولم يكن قد حصل علمه فصار ذلك كعلم التيمم وغيره ، فإن تعلم هذه الأدلة واستبهم عليه الأمر بغيم مظلم ، أو ترك التعلم ولم يجد فى الطريق من يقلده ، فعليه أن يصلي فى الوقت على حسب حاله ، ثم عليه القضاء سواء أصاب أم أخطأ ، والأعمى ليس له إلا التقليد ، فليقلد من يوثق بدينه وبصيرته إن كان مقلده مجتهدا فى القبلة ، وإن كانت القبلة ظاهرة فله اعتماد قول كل عدل يخبره بذلك فى حضر أو سفر ، وليس للأعمى ولا للجاهل أن يسافر فى قافلة ليس فيها من يعرف أدلة القبلة حيث يحتاج إلى الاستدلال ، كما ليس للعامي أن يقيم ببلدة ليس فيها فقيه عالم بتفصيل الشرع بل يلزمه الهجرة إلى حيث يجد من يعلمه دينه ، وكذا إن لم يكن فى البلد إلا فقيه فاسق ، فعليه الهجرة أيضا إذ لا يجوز له اعتماد فتوى الفاسق ، بل العدالة شرط لجواز قبول الفتوى ، كما فى الرواية ، وإن كان معروفا بالفقه مستور الحال فى العدالة والفسق فله القبول مهما لم يجد مَن له عدالة ظاهرة ، لأن المسافر فى البلاد لا يقدر أن يبحث عن عدالة المفتين فإن رآه لابسا للحرير ، أو ما يغلب عليه الإبريسم ، أو راكبا لفرس عليه مركب ذهب فقد ظهر فسقه وامتنع عليه قبول قوله ، فليطلب غيره ، وكذلك إذا رآه يأكل على مائدة سلطان أغلب ماله حرام ، أو يأخذ منه إدرارا ، أو صلة من غير أن يعلم أن الذى يأخذه من وجه حلال ، فكل ذلك فسق يقدح فى العدالة ويمنع من قبول الفتوى والرواية والشهادة .

وأما معرفة أوقات الصلوات الخمس فلا بد منها

فوقت الظهر يدخل بالزوال ، فإن كل شخص لابد أن يقع له فى ابتداء النهار ظل مستطيل فى جانب المغرب ، ثم لايزال ينقص إلى وقت الزوال ، ثم يأخذ فى الزيادة فى جهة المشرق ، ولايزال يزيد إلى الغروب ، فليقم المسافر فى موضع أو لينصب عودا مستقيما وليعلم على رأس الظل ، ثم لينظر بعد ساعة فإن رآه فى النقصان فلم يدخل بعد وقت الظهر

وطريقه فى معرفة ذلك أن ينظر فى البلد وقت أذان المؤذن المعتمد ظل قامته ، فإن كان مثلا ثلاثة أقدام بقدمه فمهما صار كذلك فى السفر وأخذ فى الزيادة صلى ، فإن زاد عليه ستة أقدام ونصفا بقدمه دخل وقت العصر ، إذ ظل كل شخص بقدمه ستة أقدام و نصف بالتقريب ثم ظل الزوال يزيد كل يوم إن كان سفره من أول الصيف ، وإن كان اول الشتاء فينقص كل يوم ، وأحسن ما يعرف به ظل الزوال الميزان ، فليستصحبه المسافر ، وليتعلم اختلاف الظل به فى كل وقت ، وإن عرف موقع الشمس من مستقبل القبلة وقت الزوال وكان فى السفر فى موضع ظهرت القبلة فيه بدليل آخر ، فيمكنه أن يعرف الوقت بالشمس بأن تصير بين عينيه مثلا إن كانت كذلك فى البلد

وأما وقت المغرب : فيدخل بالغروب ، ولكن قد تحجب الجبال المغرب عنه فينبغى أن ينظر إلى جانب المشرق فمهما ظهر سواد فى الأفق مرتفع من الأرض قدر رمح فقد دخل وقت المغرب .

وأما العشاء: فيعرف بغيبوبة الشفق وهو الحمرة فإن كانت محجوبة عنه بجبال فيعرفه بظهور الكواكب الصغار وكثرتها ، فإن ذلك يكون بعد غيبوبة الحمرة

وأما الصبح : فيبدو فى الأول مستطيلا كذنب السرحان فلا يحكم به إلى أن ينقضى زمان ، ثم يظهر بياض معترض لايعسر إدراكه بالعين لظهوره ، فهذا أول الوقت ، قال صلى الله عليه وسلم [1] « لَيْسَ الصُّبْحُ هَكَذَا » وجمع بين كفيه « وَإِنَّمَا الصُّبْحُ هَكَذَا »

---

(١) حديث ليس الصبح هكذا وجمع كفه إنما الصبح هكذا ووضع احدى سبابتيه على الأخرى وفتحهما وأشار به إلى أنه معترض: ابن ماجه من حديث ابن مسعود باسناد صحيح مختصر دون الاشارة بالكف والسبابتين ولأحمد من حديث طلق بن على ليس الفجر المستطيل في الأفق لكنه المعترض الأحمر واسناده حسن

ووضع إحدى سبابتيه على الأخرى وفتحهما ، وأشار به إلى أنه معترض ، وقد يستدل عليه بالمنازل، وذلك تقريب لاتحقيق فيه ، بل الاعتماد على مشاهدة انتشار البياض عرضا لأن قوما ظنوا أن الصبح يطلع قبل الشمس بأربع منازل ، وهذا خطأ لأن ذلك هو الفجر الكاذب، والذى ذكره المحققون أنه يتقدم على الشمس بمنزلتين، وهذا تقريب ولكن لا اعتماد عليه فإن بعض المنازل تطلع معترضة منحرفة فيقصر زمان طلوعها ، وبعضها منتصبة فيطول زمان طلوعها ، ويختلف ذلك فى البلاد اختلافا يطول ذكره ، نعم : تصلح المنازل لأن يعلم بها قرب وقت الصبح وبعده ، فأما حقيقة أول الصبح فلا يمكن ضبطه بمنزلتين أصلا

وعلى الجملة فإذا بقيت أربع منازل إلى طلوع قرن الشمس بمقدار منزلة يتيقن أنه الصبح الكاذب ، وإذا بقي قريب من منزلتين ، يتحقق طلوع الصبح الصادق ، ويبقى بين الصبحين قدر ثلثى منزلة بالتقريب يشك فيه أنه من وقت الصبح الصادق أو الكاذب، وهو مبدأ ظهور البياض وانتشاره قبل اتساع عرضه ، فمن وقت الشك ينبغى أن يترك الصائم السحور ويقدم القائم الوتر عليه ، ولا يصلى صلاة الصبح حتى تنقضى مدة الشك ، فإذا تحقق صلى ، ولو أراد مريد أن يقدر على التحقيق وقتا معينا يشرب فيه متسحرا ، ويقوم عقيبه ويصلى الصبح متصلا به ، لم يقدر على ذلك ، فليس معرفة ذلك فى قوة البشر أصلا بل لابد من مهلة للتوقف والشك ، ولا اعتماد إلا على العيان ولا اعتماد فى العيان إلا على أن يصير الضوء منتشرا فى العرض حتى تبدو مبادى الصفرة

وقد غلط فى هذا جمع من الناس كثير ، يصلون قبل الوقت ، ويدل عليه ماروى أبو عيسى الترمذى فى جامعه بإسناده عن طلق بن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[1] « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا يَهِيْنَكُمُ السَّاطِعُ الْمُصْعِدُ وَكُلُوا واشْرَبُوا حَتَّى يَعْتَرِضَ لَكُمُ الْأَحْمَرُ » وهذا صريح فى رعاية الحمرة ، قال أبو عيسى وفى الباب عن عدي بن حاتم ، وأبى ذر ، وسمرة ابن جندب ، وهو حديث حسن غريب ، والعمل على هذا عند أهل العلم

---

(١) حديث طلق بن على كلوا واشربوا ولا يهينكم الساطع المصعد وكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر قال المصنف رواه أبو عيسى الترمذى فى جامعه وقال حسن غريب وهو كما ذكر ورواه أبو داود أيضا

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، كلوا واشربوا مادام الضوء ساطعا ، قال صاحب الغريبين : أي مستطيلا. فإذاً لا ينبغى أن يعول إلا على ظهور الصفرة ، وكأنها مبادى الحمرة، وإنما يحتاج المسافر إلى معرفة الأوقات ، لأنه قد يبادر بالصلاة قبل الرحيل حتى لا يشق عليه النزول أو قبل النوم حتى يستريح ، فإن وطّن نفسه على تأخير الصلاة إلى أن يتيقن فتسمح نفسه بفوات فضيلة أول الوقت ، ويتجشم كلفة النزول ، وكلفة تأخير النوم إلى التيقن ، استغنى عن تعلم علم الأوقات ، فإن المشكل أوائل الأوقات لا أوساطها

تم كتاب آداب السفر ، ويليه كتاب آداب السماع والوجد

کتاب آداب السماع والوجد

كتاب آداب السماع والوجد

وهو الكتاب الثامن من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحرق قلوب أوليائه بنار محبته ، واسترق هممهم وأرواحهم بالشوق إلى لقائه ومشاهدته ، ووقف أبصارهم وبصائرهم على ملاحظة جمال حضرته ، حتى أصبحوا من تنسم روح الوصال سكرى ، وأصبحت قلوبهم من ملاحظة سبحات الجلال والهة حيرى فلم يروا فى الكونين شيئا سواه ، ولم يذكروا فى الدارين إلا إياه ، إن سنحت لأبصارهم صورة عبرت إلى المصور بصائرهم ، وإن قرعت أسماعهم نغمة سبقت إلى المحبوب سرائرهم وإن ورد عليهم صوت مزعج أو مقلق أو مطرب أو محزن أو مبهج أو مشوق أو مهيج لم يكن انزعاجهم إلا إليه ، ولا طربهم إلا به ، ولا قلقهم إلا عليه ، ولا حزنهم إلا فيه ، ولا شوقهم إلا إلى ما لديه ، ولا انبعاثهم إلا له ولا ترددهم إلا حواليه ، فمنه سماعهم ، وإليه استماعهم فقد أقفل عن غيره أبصارهم وأسماعهم ، أولئك الذين اصطفاهم الله لولايته ، واستخلصهم من بين أصفيائه وخاصته ، والصلاة على محمد المبعوث برسالته وعلى آله وصحبه أئمة الحق وقادته ، وسلم كثيراً .

أما بعد : فإن القلوب والسرائر ، خزائن الأسرار ومعادن الجواهر ، وقد طويت فيها جواهرها كما طويت النار فى الحديد والحجر ، وأخفيت كما أخفي الماء تحت التراب والمدر ولا سبيل إلى استثارة خفاياها إلا بقوادح السماع ، ولا منفذ إلى القلوب إلا من دهليز الأسماع فالنغمات الموزونة المستلذة تخرج ما فيها ، وتظهر محاسنها أو مساويها ، فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه ، كما لا يرشح الاناء إلا بما فيه ، فالسماع للقلب محك صادق ، ومعيار ناطق ، فلا يصل نفس السماع إليه ، إلا وقد تحرك فيه ما هو الغالب عليه ، وإذا كانت القلوب بالطباع مطيعة للإسماع حتى أبدت بواردلتها مكامنها ، وكشفت بها عن مساويها وأظهرت محاسنها

وجب شرح القول فى السماع والوجد وبيان ما فيهما من الفوائد والآفات ، وما يستحب فيهما من الآداب والهيئات ، وما يتطرق إليهما من خلاف العلماء فى أنهما من المحظورات أو المباحات ، ونحن نوضح ذلك فى بابين

الباب الأول : فى إباحة السماع

الباب الثانى : فى آداب السماع وآثاره فى القلب بالوجد وفي الجوارح بالرقص والزعق وتمزيق الثياب .

الباب الأول

فى ذكر اختلاف العلماء فى إباحة السماع وكشف الحق فيه

بيان أقاويل العلماء والمتصوفة فى تحليله وتحريمه

اعلم أن السماع هو أول الأمر ، ويثمر السماع حالة فى القلب تسمى الوجد ، ويثمر الوجد تحريك الأطراف ، أما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب ، وأما موزونة فتسمى التصفيق والرقص ، فلنبدأ بحكم السماع وهو الأول وننقل فيه الأقاويل المعربة عن المذاهب فيه ، ثم نذكر الدليل على إباحته ، ثم نردفه بالجواب عما تمسك به القائلون بتحريمه ، فأما نقل المذاهب

فقد حكى القاضى أبو الطيب الطبرى عن الشافعي ، ومالك ، وأبى حنيفة ، وسفيان وجماعة من العلماء ألفاظا يستدل بها على أنهم رأوا تحريمه ، وقال الشافعي رحمه الله فى كتاب آداب القضاء ، إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ، ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته وقال القاضى أبو الطيب : استماعه من المرأة التى ليست بمحرم له لا يجوز عند أصحاب الشافعي رحمه الله بحال ، سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب ، وسواء كانت حرة أو مملوكة وقال قال الشافعي رضي الله عنه صاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته وقال وحكي عن الشافعي أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب • ويقول • وضعته الزنادقة

ليشتغلوا به عن القرءان ، وقال الشافعي رحمه الله ويكره من جهة الخبر اللعب بالنرد أكثر مما يكره اللعب بشيء من الملاهى ، ولا أحب اللعب بالشطرنج ، وأكره كل مايلعب به الناس، لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين ولا المروءة ، وأما مالك رحمه الله فقد نهى عن الغناء، وقال إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها، وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد وحده، وأما أبو حنيفة رضي الله عنه فإنه كان يكره ذلك، ويجعل سماع الغناء من الذنوب، وكذلك سائر أهل الكوفة، سفيان الثورى وحماد، وإبراهيم، والشعبي، وغيرهم

فهذا كله نقله القاضى أبو الطيب الطبرى ، ونقل أبو طالب المكى إباحة السماع عن جماعة فقال : سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم ، وقال قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابى وتابعى بإحسان، وقال لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع فى أفضل أيام السنة ، وهي الأيام المعدودات التى أمر الله عباده فيها بذكره ، كأيام التشريق ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هـذا ، فأدركنا أبا مروان القاضى وله جوار يسمعن الناس التلحين قد أعدهن للصوفية ، قال وكان لعطاء جاريتان يلحنان فكان إخوانه يستمعون إليهما، قال وقيل لأبى الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسري السقطي وذو النون يستمعون ، فقال وكيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير منى ، فقد كان عبد الله ابن جعفر الطيار يسمع ، وإنما أنكر اللهو اللعب فى السماع ، وروى عن يحيى بن معاذ أنه قال فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها ولا أراها تزداد إلا قلة حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الديانة ، وحسن الأخاء مع الوفاء ، ورأيت فى بعض الكتب هـذا محكيا بعينه عن الحارث المحاسبي وفيه مايدل على تجويزه السماع مع زهده ، وتصاونه وجده فى الدين وتشميره ، قال وكان ابن مجاهد لايجيب دعوة إلا أن يكون فيه سماع ، وحكى غير واحد أنه قال اجتمعنا فى دعوة ومعنا أبو القاسم ابن بنت منيع ، وأبو بكر بن داود ، وابن مجاهد فى نظرائهم فحضر سماع فجعل ابن مجاهد يحرض ابن بنت منيع على ابن داود فى أنه يسمع فقال ابن داود حدثنى أبى عن أحمد بن حنبل أنه كره السماع ، وكان أبى يكرهه

وأنا على مذهب أبى، فقال أبو القاسم ابن بنت منيع أماجدى أحمد بن بنت منيع فحدثنى عن صالح ابن أحمد، أن أباه كان يسمع قول ابن الخبازة، فقال ابن مجاهد لابن داود دعنى أنت من أبيك وقال لابن بنت منيع دعنى أنت من جدك أى شيء تقول ياأبا بكر فيمن أنشد بيت شعر أهو حرام، فقال ابن داود لا، قال: فإن كان حسن الصوت حرم عليه إنشاده، قال لا، قال فإن أنشده وطوله وقصر منه الممدود ومد منه المقصور أيحرم عليه؟ قال أنا لم أقو لشيطان واحد فكيف أقوى لشيطانين، قال وكان أبو الحسن العسقلانى الأسود من الأولياء يسمع ويوله عند السماع، وصنف فيه كتابا ورد فيه على منكريه، وكذلك جماعة منهم صنفوا فى الرد على منكريه

وحكي عن بعض الشيوخ أنه قال: رأيت أباالعباس الخضر عليه السلام، فقلت له ماتقول فى هذا السماع الذى اختلف فيه أصحابنا، فقال هو الصفو الزلال الذى لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء

وحكي عن ممشاد الدينورى أنه قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت يارسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئا؟ فقال ماأنكر منه شيئا، ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرءان ويختمون بعده بالقرءان

وحكي عن طاهر بن بلال الهمدانى الوراق وكان من أهل العلم أنه قال: كنت معتكفا فى جامع جدة على البحر، فرأيت يوما طائفة يقولون فى جانب منه قولا ويستمعون، فأنكرت ذلك بقلبي، وقلت فى بيت من بيوت الله، يقولون الشعر، قال فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة وهو جالس فى تلك الناحية، وإلى جنبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وإذا أبو بكر يقول شيئا من القول والنبى صلى الله عليه وسلم يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواجد بذلك. فقلت فى نفسى. ما كان ينبغى لى أن أنكر على أولئك الذين كانوا يستمعون وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع وأبو بكر يقول، فالتفت إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: هذا حق بحق أو قال حق من حق أنا أشك فيه، وقال الجنيد: تنزل الرحمة على هذه الطائفة فى ثلاثة مواضع، عند الأكل، لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، وعند المذاكرة، لأنهم لا يتحاورون إلا فى مقامات الصديقين، وعند السماع

لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقا ، وعن ابن جريج أنه كان يرخص فى السماع فقيل له: أيؤتى يوم القيامة فى جملة حسناتك أو سيئاتك ؟ فقال : لا فى الحسنات ولا فى السيئات لأنه شبيه باللغو ، وقال الله تعالى(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ [١]) هذا ما نقل من الأقاويل ومن طلب الحق فى التقليد فمهما استقصى تعارضت عنده هذه الأقاويل ، فيبقى متحيرا أو مائلا إلى بعض الأقاويل بالتشهى ، وكل ذلك قصور بل ينبغى أن يطلب الحق بطريقه وذلك بالبحث عن مدارك الحظر والإباحة كما سنذكره

بيان الدليل على إباحة السماع

اعلم أن قول القائل : السماع حرام . معناه أن الله تعالى يعاقب عليه ، وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع ، ومعرفة الشرعيات محصورة فى النص ، أو القياس على المنصوص وأعنى بالنص ما أظهره صلى الله عليه وسلم بقوله ، أو فعله ، وبالقياس ، المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله ، فإن لم يكن فيه نص ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه وبقى فعلا لا حرج فيه كسائر المباحات ، ولا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس ويتضح ذلك فى جوابنا عن أدلة المائلين إلى التحريم ، ومهما تم الجواب عن أدلتهم كان ذلك مسلكا كافيا فى إثبات هذا الغرض ، لكن نستفتح ونقول قد دل النص والقياس جميعا على إباحته .

أما القياس : فهو أن الغناء اجتمعت فيه معان ينبغى أن يبحث عن أفرادها ، ثم عن مجموعها ، فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى ، محرك للقلب ، فالوصف الأعم أنه صوت طيب ، ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره ، والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات

أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب فلا ينبغى أن يحرم، بل هو حلال بالنص والقياس أما القياس. فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع ، بإدراك ما هو مخصوص به وللإنسان عقل وخمس حواس، ولكل حاسة إدراك ، وفى مدركات تلك الحاسة ما يستلذ، فلذة النظر فى المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجارى والوجه الحسن

---
(١) البقرة ٢٢٥

وبالجملة سائر الألوان الجميلة وهي في مقابلة ما يكره من الألوان الكدرة القبيحة، وللشم الروائح الطيبة، وهي في مقابلة الأنتان المستكرهة، وللذوق الطعوم اللذيذة كالدسومة والحلاوة والحموضة ، وهي في مقابلة المرارة المستبشعة ، وللمس لذة اللين والنعومة والملاسة ، وهي في مقابلة الخشونة والضراسة ، وللعقل لذة العلم والمعرفة ، وهي في مقابلة الجهل والبلادة فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة كصوت العنادل والمزامير، ومستكرهة كنهيق الحمير وغيرها ، فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها

وأما النص : فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن امتنان الله تعالى على عباده به ، إذ قال (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ [1]) فقيل هو الصوت الحسن ، وفي الحديث[1] « مَا بَعَثَ اللّٰهُ نَبِياً إلاَّ حَسَنَ الصَّوْتِ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « لَلّٰهُ أَشَدُّ أُذُناً لِلرَّجُلِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْءانِ مِنْ صَاحِبِ الْقَينَةِ لِقَيْنَتِهِ » وفي الحديث في معرض المدح لداود عليه السلام [3] أنه كان حسن الصوت في النياحة على نفسه ، وفي تلاوة الزبور حتى كان يجتمع الإنس والجن والوحوش والطير لسماع صوته ، وكان يُحمل في مجلسه أربعمائة جنازة وما يقرب منها في الأوقات ، وقال صلى الله عليه وسلم في مدح أبي موسى الأشعري [4] « لَقَدْ اعْطَى مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » وقول الله تعالى (إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ [2]) يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن ، ولو جاز أن يقال إنما أبيح ذلك بشرط أن يكون في القرءان للزمه أن يحرم سماع صوت العندليب ، لأنه ليس من القرءان ، وإذا جاز سماع

---

(١) حديث ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت : الترمذي في الشمائل عن قتادة وزاد قوله وكان نبيكم حسن الوجه حسن الصوت ورويناه متصلا في الغيلانيات من رواية قيادة عن أنس والصواب الأول قاله الدار قطني ورواه ابن مردويه في التفسير من حديث على بن أبي طالب وطرقه كلها ضعيفة .

(٢) حديث لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرءان من صاحب القينة إلى قينته : تقدم في كتاب تلاوة القرءان .

(٣) حديث كان داود حسن الصوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزبور ـ الحديث : لم أجد له أصلا

(٤) حديث لقد أوتى مزمارا من مزامير آل داود : قاله في مدح أبي موسى تقدم في تلاوة القرءان

---

(١) فاطر : ١ (٢) لقمان : ١٩

صوت غفل لا معنى له فلم لا يجوز سماع صوت يفهم منه الحكمة ، والمعانى الصحيحة،وإن من الشعر لحكمة ، فهذا نظر فى الصوت من حيث إنه طيب حسن

الدرجة الثانية : النظر فى الصوت الطيب الموزون ، فإن الوزن وراء الحسن ، فكم من صوت حسن خارج عن الوزن ، وكم من صوت موزون غير مستطاب ، والأصوات الموزونة باعتبار مخارجها ثلاثة ، فإنها إما أن تخرج من جماد كصوت المزامير والأوتار وضرب القضيب والطبل وغيره ، وإماأن تخرج من حنجرة حيوان وذلك الحيوان إما إنسان أو غيره كصوت العنادل والقمارى وذات السجع من الطيور ، فهى مع طيبها موزونة متناسبة المطالع والمقاطع ، فلذلك يستلذ سماعها، والأصل فى الأصوات حناجر الحيوانات،وإنما وضعت المزامير على أصوات الحناجر ، وهو تشبيه للصنعة بالخلقة ، ومامن شىء توصل أهل الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلا وله مثال فى الخلقة التى استأثر الله تعالى باختراعها ، فمنه تعلم الصناع وبه قصدوا الاقتداء ، وشرح ذلك يطول ، فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة فلا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور ،ولافرق بين حنجرة وحنجرة ، ولا بين جماد وحيوان ، فينبغى أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمي ، كالذى يخرج من حلقه أو من القضيب والطبل والدف وغيره ، ولا يستثنى من هذه [١] إلا الملاهى والأوتار والمزامير التى ورد الشرع بالمنع منها ، لا للذتها ، إذ لوكان للذة لقيس عليها كل ما يلتذبه الإنسان ، ولكن حرمت الخمور واقتضت ضراوة الناس بها المبالغة فى الفطام عنها حتى انتهى الأمر فى الابتداء

---

(١) حديث النع من اللاهى والأوتار والمزامير : البخارى من حديث أبى عامر أو أبى مالك الأشعرى ليكونن فى أمتى أقوام يستحلون الخز والحرير والمعازف صورته عند البخارى صورة التعليق ولذلك ضعفه ابن حزم ووصله أبو داود والاسماعيلى والمعازف الملاهى. قاله الجوهري ولأحمد من حديث ابى أمامة ان الله أمرنى أن أمحق المزامير والكبارات يعنى البرابط والمعازف وله من حديث قيس بن سعد بن عبادة ان ربى حرم على الخمر والكوبة والقنين وله فى حديث لأبى أمامة باستحلالهم الخمور وضربهم بالدفوف وكلها ضعيفة ولأبى الشيخ من حديث مكحول مرسلا الاستماع الي اللاهى معصية ـ الحديث : ولابى داود من حديث ابن عمر سمع مزمارا فوضع أصبعيه على أذنيه قال أبو داود وهو منكر

إلى كسر الدنان ، فحرم معها ما هو شعار أهل الشرب وهى الأوتار والمزامير فقط ، وكان تحريمها من قبل الاتباع ، كما حرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة الجماع ، وحرم النظر إلى الفخذ لاتصاله بالسوأتين ، وحرم قليل الخمر وإن كان لا يسكر لأنه يدعو إلى السكر ، وما من حرام إلا وله حريم يطيف به ، وحكم الحرمة ينسحب على حريمه ، ليكون حمى للحرام ووقاية له ، وحظارا مانعا حوله ، كما قال صلى الله عليه وسلم [(1)] « إنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ » فهى محرمة تبعا لتحريم الخمر لثلاث علل

إحداها : أنها تدعو إلى شرب الخمر ، فإن اللذة الحاصلة بها إنما تتم بالخمر ، ولمثل هذه العلة حرم قليل الخمر .

الثانية : أنها فى حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر مجالس الأنس بالشرب ، فهى سبب الذكر ، والذكر سبب انبعاث الشوق ، وانبعاث الشوق إذا قوي فهو سبب الإقدام ولهذه العلة نهى عن الانتباذ [(2)] فى المزفت ، والحنتم ، والنقير ، وهى الأوانى التى كانت مخصوصة بها ، فمعنى هذا أن مشاهدة صورتها تذكرها ، وهذه العلة تفارق الأولى ، إذ ليس فيها اعتبار لذة فى الذكر إذ لا لذة فى رؤية القنينة وأوانى الشرب ، لكن من حيث التذكر بها ، فإن كان السماع يذكر الشرب تذكيرا يشوق إلى الخمر عند من ألف ذلك مع الشرب فهو منهي عن السماع لخصوص هذه العلة فيه

الثالثة : الاجتماع عليها لما أن صار من عادة أهل الفسق ، فيمنع من التشبه بهم لأن من تشبه بقوم فهو منهم ، وبهذه العلة نقول بترك السنة مهما صارت شعاراً لأهل البدعة، خوفا من التشبه بهم ، وبهذه العلة يحرم ضرب الكوبة ، وهو طبل مستطيل دقيق الوسط واسع الطرفين ، وضربها عادة المخنثين ، ولولا ما فيه من التشبه لكان مثل طبل الحجيج والغزو ، وبهذه العلة نقول لو اجتمع جماعة وزينوا مجلسا ، وأحضروا آلات الشرب وأقداحه وصبوا فيها السكنجبين ، ونصبوا ساقيا يدور عليهم ويسقيهم ، فيأخذون من الساقي ويشربون ، ويحيي بعضهم بعضا بكلماتهم المعتادة بينهم حرم ذلك عليهم

---

(١) حديث إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه : تقدم فى كتاب الحلال والحرام

(٢) حديث النهي عن الحنتم والمزفت والنقير : متفق عليه من حديث ابن عباس

وإن كان المشروب مباحا فى نفسه لأن فى هذا تشبها بأهل الفساد ، بل لهذا ينهى عن لبس القباء وعن ترك الشعر على الرأس قزعا فى بلاد صار القباء فيها من لباس أهل الفساد ولا ينهى عن ذلك فيما وراء النهر ، لاعتياد أهل الصلاح ذلك فيهم

فبهذه المعانى حرم المزمار العراقى والأوتار كلها كالعود والصنج والرباب والبربط وغيرها وماعدا ذلك فليس فى معناها كشاهين الرعاة ، والحجيج وشاهين الطبالين، وكالطبل والقضيب وكل آلة يستخرج منها صوت مستطاب موزون سوى مايعتاده أهل الشرب ، لأن كل ذلك لايتعلق بالخمر، ولايذكر بها ولا يشوق إليها ولا يوجب التشبه بأربابها فلم يكن فى معناها فبقى على أصل الإباحة ، قياسا على أصوات الطيور وغيرها، بل أقول سماع الأوتار ممن يضربها على غير وزن متناسب مستلذ حرام أيضا، وبهذا يتبين أنه ليست العلة فى تحريمها مجرد اللذة الطيبة بل القياس تحليل الطيبات كلها ، إلا ما فى تحليله فساد قال الله تعالى (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ [١]) فهذه الأصوات لاتحرم من حيث إنها أصوات موزونة ، وإنما تحرم بعارض آخر كما سيأتى فى العوارض المحرمة

الدرجة الثالثة : الموزون والمفهوم وهو الشعر ، وذلك لايخرج إلا من حنجرة الإنسان فيقطع بإباحة ذلك لأنه مازاد إلا كونه مفهوما والكلام المفهوم غير حرام، والصوت الطيب الموزون غير حرام ، فإذا لم يحرم الآحاد فمن أين يحرم المجموع ، نعم ينظر فيما يفهم منه.فإن كان فيه أمر محظور حرم نثره ونظمه وحرم النطق به ، سواء كان بألحان أو لم يكن

والحق فيه ماقاله الشافعي رحمه الله ، إذ قال: الشعر كلام، فحسنه حسن، وقبيحه قبيح ، ومهما جاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز إنشاده مع الألحان ، فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان ذلك المجموع مباحا ، ومهما انضم مباح لم يحرم إلا إذا تضمن المجموع محظورا لاتتضمنه الآحاد ولا محظور ههنا، وكيف ينكر إنشاد الشعر وقد أنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)

---

(١) حديث انشاد الشعر بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم متفق عليه من حديث أبى هريرة ان عمر مر بحسان وهو ينشد الشعر فى المسجد فلحظ اليه فقال قدكنت أنشد وفيه من هو خير منك ـ الحديث : ولمسلم من حديث عائشة انشاد حسن

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

---

(١) الأعراف : ٣٢

وقال عليه السلام (١) « إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً » وأنشدت عائشة رضي الله عنها

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم   وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

وروي فى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) المدينة ، وعك أبو بكر وبلال رضي الله عنهما ، وكان بها وباء ، فقلت يا أبت كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ فكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أخذته الحمى يقول

كل امرىء مصبح فى أهله   والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمي يرفع عقيرته ويقول

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة   بواد وحولى أذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة   وهل يبدون لى شامة وطفيل

قالت عائشة رضي الله عنها فأخبرت بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد

القصيدة وإنشاد حسان أيضا

وإن سنام المجد من آل هاشم   بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

وللبخارى إنشاد ابن رواحة

وفينا رسول الله يتلو كتابه   إذا انشق معروف من الفجر ساطع

الأبيات .

(١) حديث ان من الشعر لحكمة : البخارى من حديث أبي بن كعب وتقدم فى العلم

(٢) حديث عائشة فى الصحيحين لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال الحديث : وفيه انشاد أبو بكر

كل امريء مصبح فى أهله   والموت أدنى من شراك نعله

وانشاد بلال

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   بواد وحولى اذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة   وهل يبدون لى شامة وطفيل

قلت هو فى الصحيحين كما ذكر المصنف لكن أصل الحديث والشعر عند البخاري فقط ليس عند مسلم

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] ينقل اللبن مع القوم فى بناء المسجد ، وهو يقول

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبرر بنا وأطهر

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم مرة أخرى

لَاهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَةِ فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ

وهذه فى الصحيحين وكان النبى صلى الله عليه وسلم[٢] يضع لحسان منبرا فى المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو ينافح ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ الْقُدُسِ مَا نَافَحَ أَوْ فَاخَرَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » ولما أنشده النابغة شعره قال له صلى الله عليه وسلم[٣] « لَا يَفْضُضِ اللهُ فَاكَ »

---

(١) حديث كان صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع القوم فى بناء المسجد وهو يقول

هذا الحمال لاحمال خيبر هذا أبرر بنا وأطهر

وقال صلى الله عليه وسلم مرة أخرى

اللهم ان العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

قال المصنف والبيتان فى الصحيحين قلت البيت الأول انفرد به البخارى فى قصة الهجرة من رواية عروة مرسلا وفيه البيت الثانى أيضا إلا أنه قال الأجر بدل العيش تمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لى قال ابن شهاب ولم يبلغنا فى الأحاديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت والبيت الثانى فى الصحيحين من حديث أنس يرتجزون ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم يقولون

اللهم لاخير إلاخير الآخره فانصر الأنصار والمهاجره

وليس البيت الثانى موزونا وفى الصحيحين أيضا أنه قال فى حفر الخندق بلفظ فبارك فى الأنصار والمهاجرة وفى رواية فاغفر وفى رواية لمسلم فأكرم ولهما من حديث سهل بن سعد فاغفر للمهاجرين والأنصار

(٢) حديث كان يضع لحسان منبرا فى المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ينافح ـ الحديث : البخارى تعليقا وأبو داود والترمذى والحاكم متصلا من حديث عائشة وقال الترمذى حسن صحيح وقال الحاكم صحيح الاسناد وفى الصحيحين انها قالت انه كان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٣) حديث انه قال للنابغة لما أنشده شعرا لايفضض الله فاك : البغوى فى معجم الصحابة وابن عبد البر فى الاستيعاب باسناد ضعيف من حديث النابغة واسمه قيس بن عبد الله قال أنشدت النبى صلى الله عليه وسلم

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

الأبيات ورواه البزار بلفظ علونا العباد عفة وتكرما

وقالت عائشة رضي الله عنها : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] يتناشدون عنده الأشعار وهو يتبسم ، وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت ، كل ذلك يقول هيه هيه ، ثم قال إن كاد في شعره ليسلم ، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم [3] كان يحدى له وأن أنجشة كان يحدو بالنساء ، والبراء بن مالك كان يحدو بالرجال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أَنْجَشَةُ رُوَيْدَكَ سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ » ولم يزل الحداء وراء الجمال من عادة العرب في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزمان الصحابة رضي الله عنهم ، وما هو إلا أشعار تؤدى بأصوات طيبة ، وألحان موزونة ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره ، بل ربما كانوا يلتمسون ذلك تارة لتحريك الجمال ، وتارة للاستلذاذ ، فلا يجوز أن يحرم من حيث إنه كلام مفهوم مستلذ مؤدى بأصوات طيبة ، وألحان موزونة

الدرجة الرابعة : النظر فيه من حيث إنه محرك للقلب ، ومهيج لما هو الغالب عليه فأقول لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً فمن الأصوات ما يفرح ، ومنها ما يحزن ومنها ما ينوم ، ومنها ما يضحك ويطرب ، ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس ، ولا ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم معاني الشعر ، بل هذا جار في الأوتار ، حتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره ، والعود وأوتاره ، فهو فاسد المزاج ، ليس له علاج ، وكيف يكون ذلك لفهم المعنى ، وتأثيره مشاهد

الأبيات وفيه فقال أحسنت يا أبا ليلى لا يفضض الله فاك وللحاكم من حديث خزيم بن أوس سمعت العباس يقول يارسول الله اني أريد أن أمتدحك فقال قل لا يفضض الله فاك فقال العباس

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق

الأبيات

(۱) حديث عائشة كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتناشدون الأشعار وهو يتبسم الترمذي من حديث جابر بن سمرة وصححه ولم أقف عليه من حديث عائشة

(۲) حديث الشريد أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن ابي الصلت كل ذلك يقول هيه هيه ـ الحديث : رواه مسلم

(۳) حديث أنس كان يحدى له في السفر وأن أنجشة كان يحدو بالنساء وكان البراء بن مالك يحدو بالرجال الحديث : أبو داود الطيالسي واتفق الشيخان منه على قصة أنجشة دون ذكر البراء بن مالك

فى الصبي فى مهده ، فإنه يسكته الصوت الطيب عن بكائه ، وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه ، والجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثرا يستخف معه الأحمال الثقيلة،ويستقصر لقوة نشاطه فى سماعه المسافات الطويلة ، وينبعث فيه من النشاط مايسكره ويولهه ،فتراها إذا طالت عليها البوادى ، واعتراها الأعياء والكلال ، تحت المحامل والأحمال ، إذا سمعت منادى الحداء تمد أعناقها ، وتصغى إلى الحادى ، ناصبة آذانها ، وتسرع فى سيرها حتى تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها ، وربما تتلف أنفسها من شدة السير ، وثقل الحمل ، وهى لاتشعر به لنشاطها ، فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالرق رضي الله عنه ، قال : كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب ، فأضافنى رجل منهم وأدخلنى خباءه ، فرأيت فى الخباء عبداً أسود مقيدا بقيد ، ورأيت جمالا قد ماتت بين يدي البيت وقد بقى منها جمل وهو ناحل ذابل ، كأنه ينزع روحه ، فقال لى الغلام أنت ضيف ولك حق فتشفع في إلى مولاى ، فإنه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك فى هذا القدر ، فعساه يحل القيد عنى ، قال فلما أحضروا الطعام امتنعت ، وقلت لا آكل ما لم أشفع فى هذا العبد فقال إن هذا العبد قد أفقرنى وأهلك جميع مالى ، فقلت ماذا فعل ؟ فقال : إن له صوتا طيبا وإنى كنت أعيش من ظهور هذه الجمال فحملها أحمالا ثقالا ، وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة ، من طيب نغمته ، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد ، ولكن أنت ضيفى فلكرامتك قد وهبته لك ، قال فأحببت أن أسمع صوته فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقى الماء من بئر هناك ، فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ، ووقعت أنا على وجهى ، فما أظن أنى سمعت قط صوتا أطيب منه

فإذاً تأثير السماع فى القلب محسوس ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية ، زائد فى غلظ الطبع ، وكثافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة ، ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته ، ومهما كان النظر فى السماع باعتبار تأثيره فى القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقا بإباحة ولا تحريم ، بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص ، واختلاف طرق النغمات

فحكمه حكم مافى القلب ، قال أبو سليمان : السماع لايجعل فى القلب ماليس فيه ، ولكن يحرك ماهو فيه ، فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد فى مواضع ،لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار فى القلب ، وهى سبعة مواضع

الأول:غناء الحجيج: فإنهم أولا يدورون فى البلاد بالطبل ، والشاهين ، والغناء، وذلك مباح ، لأنها أشعار نظمت فى وصف الكعبة ، والمقام ، والحطيم ،وزمزم،وسائر المشاعر ووصف البادية وغيرها ، وأثر ذلك يهيج الشوق إلى حج بيت الله تعالى ، واشتعال نيرانه إن كان ثم شوق حاصل ، أو استثارة الشوق واجتلابه إن لم يكن حاصلا ، وإذا كان الحج قربة والشوق إليه محمودا كان التشويق إليه بكل مايشوق محمودا ، وكما يجوز للواعظ أن ينظم كلامه فى الوعظ ، ويزينه بالسجع ، ويشوق الناس إلى الحج،بوصف البيت والمشاعر ووصف الثواب عليه ، جاز لغيره ذلك على نظم الشعر ، فإن الوزن إذا انضاف إلى السجع صار الكلام أوقع فى القلب ، فإذا أضيف إليه صوت طيب ونغمات موزونة زاد وقعه،فإن أضيف إليه الطبل والشاهين وحركات الإيقاع زاد التأثير ، وكل ذلك جائز مالم يدخل فيه المزامير والأوتار التى هى من شعار الأشرار ، نعم :إن قصد به تشويق من لايجوز له الخروج إلى الحج كالذى أسقط الفرض عن نفسه ولم يأذن له أبواه فى الخروج فهذا يحرم عليه الخروج فيحرم تشويقه إلى الحج بالسماع وبكل كلام يشوق إلى الخروج، فإن التشويق إلى الحرام حرام وكذلك إن كانت الطريق غير آمنة وكان الهلاك غالبا لم يجز تحريك القلوب ومعالجتها بالتشويق

الثانى: مايعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو ، وذلك أيضا مباح، كما للحاج ولكن ينبغى أن تخالف أشعارهم وطرق ألحانهم أشعار الحاج وطرق ألحانهم ، لأن استثارة داعية الغزو بالتشجيع وتحريك الغيظ والغضب فيه على الكفار ، وتحسين الشجاعة، واستحقار النفس والمال بالإضافة إليه بالأشعار المشجعة مثل قول المتنبى

فإن لاتمت تحت السيوف مكرما ... تمت وتقاس الذل غير مكرم

وقوله أيضا

يرى الجبناء أن الجبن حزم ... وتلك خديعة الطبع اللئيم

وأمثال ذلك ، وطرق الأوزان المشجعة تخالف الطرق المشوقة ، وهـذا أيضا مباح فى وقت يباح فيه الغزو ، ومندوب إليه فى وقت يستحب فيه الغزو ، ولـكن فى حق من يجوز له الخروج إلى الغزو

الثالث : الرجزيات التى يستعملها الشجعان فى وقت اللقاء، والغرض منها التشجيع للنفس وللأنصار ، وتحريك النشاط فيهم للقتال ، وفيه التمدح بالشجاعة والنجدة ، وذلك إذا كان بلفظ رشيق ، وصوت طيب ، كان أوقع فى النفس ، وذلك مباح فى كل قتال مباح، ومندوب فى كل قتال منـدوب ، ومحظور فى قتال المسلمين ، وأهل الذمة ، وكل قتال محظور ، لأن تحريك الدواعى إلى المحظور محظور ، وذلك منقول عن شجعان الصحابة رضي الله عنهم كعلى ، وخالد رضي الله عنهما ، وغـيرهما ولذلك نقول ينبغى أن يمنع من الضرب بالشاهين فى معسكر الغزاة ، فإن صوته مرقق محزن يحلل عقدة الشجاعة ، ويضعف صرامة النفس ويشوق إلى الأهل والوطن ، ويورث الفتور فى القتال ، وكذا سائر الأصوات والألحان المرققة للقلب ، فالألحان المرققة المحزنة تباين الألحان المحـركة المشجعة ، فمن فعل ذلك على قصد تغيير القلوب وتفتير الآراء عن القتال الواجب فهو عاص ، ومن فعله على قصد التفتير عن القتال المحظور فهو بذلك مطيع

الرابع أصوات النياحة ونغماتها ، وتأثيرها فى تهييج الحزن والبكاء ، وملازمة الكآبة والحزن قسمان : محمود ، ومـذموم ، فأما المذموم فـكالحزن على مافات ، قال الله تعالى : (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ[1]) والحزن على الأموات من هذا القبيل ، فإنه تسخط لقضاء الله تعالى، وتأسف على مالا تدارك له ، فهذا الحزن لما كان مذموما كان تحريكه بالنياحة مذموما ، فلذلك ورد النهى الصريح [1] عن النياحة ، وأما الحزن المحمود: فهو حزن الإنسان على تقصيره فى أمر دينه ، وبكاؤه على خطاياه ، والبكاء والتباكى والحزن والتحازن على ذلك محمود ، وعليه بكاء آدم عليه السلام ، وتحريك هـذا الحزن وتقويته محمود ، لأنه يبعث على

---

(١) حديث النهى عن النياحة متفق عليه من حديث أم عطية أخذ علينا النبي صلى الله عليه وسلم فى البيعة أن لانتوح

---

(١) الحديد : ٢٣

التشمير للتدارك ، ولذلك كانت نياحة داود عليه السلام محمودة ، إذ كان ذلك مع دوام الحزن وطول البكاء بسبب الخطايا والذنوب ، فقد كان عليه السلام يبكي ويبكي ، ويحزن ويحزن حتى كانت الجنائز ترفع من مجالس نياحته ، وكان يفعل ذلك بألفاظه وألحانه ، وذلك محمود ، لأن المفضى إلى المحمود محمود ، وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيب الصوت أن ينشد على المنبر بألحانه الأشعار المحزنة المرققة للقلب ، ولا أن يبكي ويتباكى ، ليتوصل به إلى تبكية غيره وإثارة حزنه

الخامس : السماع فى أوقات السرور تأكيدا للسرور وتهييجا له : وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحا ، كالغناء فى أيام العيد ، وفى العرس ، وفى وقت قدوم الغائب ، وفى وقت الوليمة ، والعقيقة ، وعند ولادة المولود ، وعند ختانه ، وعند حفظه القرءان العزيز ، وكل ذلك مباح ، لأجل إظهار السرور به ، ووجه جوازه أن من الألحان ما يثير الفرح والسرور والطرب ، فكل ما جاز السرور به جاز إثارة السرور فيه ، ويدل على هذا من النقل إنشاد[1] النساء على السطوح بالدف والألحان عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

فهذا إظهار السرور لقدومه صلى الله عليه وسلم وهو سرور محمود ، فإظهاره بالشعر والنغمات والرقص والحركات أيضا محمود ، فقد نقل عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنهم[2] حجلوا فى سرور أصابهم كما سيأتى فى أحكام الرقص ، وهو جائز فى قدوم كل قادم يجوز الفرح به ، وفى كل سبب مباح من أسباب السرور ، ويدل على هذا ما روي فى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم[3] يسترنى بردائه ، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد حتى أكون أنا الذى أسأمه ، فاقدروا قدر

---

(١) حديث أنشاد النساء عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع ... وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

البيهقى فى دلائل النبوة من حديث عائشة معضلا وليس فيه ذكر الدف والالحان

(٢) حديث حجل جماعة من الصحابة فى سرور أصابهم : أبو داود من حديث على وسيأتى فى الباب الثانى

(٣) حديث عائشة رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد ـ الحديث : هو كما ذكره المصنف أيضا فى الصحيحين لكن قوله انه فيهما من رواية

الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو إشارة إلى طول مدة وقوفها ، وروى البخاري ومسلم أيضا في صحيحيهما حديث عقيل عن الزهري ، عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها ، وعندها جاريتان في أيام منى تدففان وتضربان ، والنبي صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر رضي الله عنه ، فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجهه ، وقال « دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّهَا أَيَّامُ عِيدٍ » وقالت عائشة رضي الله عنها رأيت النبي صلى الله عليه وسلم [1] يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر رضي الله عنه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أَمِنًا يَا بَنِي أَرْفِدَةَ » يعني من الأمن [2] ومن حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب نحوه ، وفيه تغنيان وتضربان ، وفي حديث أبي طاهر عن ابن وهب ، والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] يقوم على باب حجرتي ، والحبشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسترني بثوبه أو بردائه ، لكي أنظر إلى لعبهم ثم يقوم من أجلي ، حتى أكون أنا الذي أنصرف .

وروي عن عائشة رضي الله عنها ، قالت كنت ألعب بالبنات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم [4] قالت وكان يأتيني صواحب لي ، فكن يتقنعن من رسول الله صلى الله عليه وسلم

عقيل عن الزهري ليس كما ذكر بل هو عند البخاري كما ذكر وعند مسلم من رواية عمرو بن الحارث عنه

(١) حديث عائشة رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترني بثوبه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم أمنا يابني أرفدة : تقدم قبله بحديث دون زجر عمر لهم الى آخره فرواه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله أمنا يابني أرفدة بل قال دعهم ياعمر زاد النسائي فانما هم بنو أرفدة ولهما من حديث عائشة دونكم يابني أرفدة وقد ذكره المصنف بعد هذا

(٢) حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب نحوه وفي يغنيان ويضربان : رواه مسلم وهو عند البخاري من رواية الأوزاعي عن ابن شهاب

(٣) حديث أبي طاهر عن ابن وهب والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحرابهم ـ الحديث : رواه مسلم أيضا

(٤) حديث عائشة كنت ألعب بالبنات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : وهو في الصحيحين كما ذكر المصنف لكن مختصر الى قولها فيلعبن معي وأما الرواية المطولة التي ذكرها المصنف بقوله وفي رواية فليست من الصحيحين انما رواها أبو داود باسناد صحيح

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرّ لجيئهن إلىّ ، فيلعبن معى ، وفى رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها يوما « مَا هَذَا » قالت بناتى قال « فَمَا هَذَا الَّذِى أَرَى فِي وَسَطِهِنَّ » قالت فرس ، قال « مَا هَذَا الَّذِى عَلَيْهِ » قالت جناحان قال « فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ » قالت أوما سمعت أنه كان لسليمان بن داود عليه السلام خيل لها أجنحة، قالت فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، والحديث محمول عندنا على عادة الصبيان فى اتخاذ الصورة من الخزف والرقاع من غير تكميل صورته ، بدليل ماروى فى بعض الروايات أن الفرس كان له جناحان من رقاع، وقالت عائشة رضي الله عنها دخل عَلَىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] وعندى جاريتان ، تغنيان بغناء بعاث ، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه، فدخل أبو بكر رضي الله عنه فانتهرنى ، وقال مزمار الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « دَعْهُمَا » فلما غفل غمزتهما ، فخرجتا ، وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدرق والحراب ، فإما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم وإما قال تشتهين تنظرين ، فقلت نعم فأقامنى وراءه ، وخدى على خده ، ويقول « دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ » حتى إذا مللت قال « حَسْبُكِ » قلت نعم قال « فَاذْهَبِي » وفى صحيح مسلم فوضعت رأسى على منكبه ، فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا الذى انصرفت

فهذه الأحاديث كلها فى الصحيحين ، وهو نص صريح فى أن الغناء واللعب ليس بحرام وفيها دلالة على أنواع من الرخص

الأول : اللعب ولا يخفى عادة الحبشة فى الرقص واللعب

والثانى : فعل ذلك فى المسجد

والثالث : قوله صلى الله عليه وسلم « دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ » وهذا أمر باللعب والتماس له ، فكيف يقدر كونه حراما

---

(١) حديث عائشة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث ـ الحديث : هو فى الصحيحين كما ذكر المصنف والرواية التى عزاها بها مسلم كما ذكر

والرابع : منعه لأبى بكر وعمر رضي الله عنهما عن الإنكار والتغيير ، وتعليله بأنه يوم عيد أى هو وقت سرور ، وهذا من أسباب السرور

والخامس : وقوفه طويلا فى مشاهدة ذلك وسماعه لموافقة عائشة رضي الله عنها ، وفيه دليل عَلَى أن حسن الخلق فى تطييب قلوب النساء والصبيان بمشاهدة اللعب أحسن من خشونة الزهد والتقشف فى الامتناع والمنع منه

والسادس : قوله صلى الله عليه وسلم ابتداء لعائشة « أَتَشْتَهِينَ أَنْ تَنْظُرِى » ولم يكن ذلك عن اضطرار إلى مساعدة الأهل خوفا عن غضب أو وحشة، فإن الالتماس إذا سبق ربما كان الرد سبب وحشة وهو محذور، فيقدم محذور على محذور، فأما ابتداء السؤال فلا حاجة فيه

والسابع : الرخصة فى الغناء والضرب بالدف من الجاريتين مع أنه شبه ذلك بمزمار الشيطان وفيه بيان أن المزمار المحرم غير ذلك

والثامن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرع سمعه صوت الجاريتين وهو مضطجع ولو كان يضرب بالأوتار فى موضع لما جوز الجلوس ثم لقرع صوت الأوتار سمعه فيدل هذا على أن صوت النساء غير محرم تحريم صوت المزامير ، بل إنما يحرم عند خوف الفتنة

فهذه المقاييس والنصوص تدل على إباحة الغناء والرقص ، والضرب بالدف ، واللعب بالدرق والحراب والنظر إلى رقص الحبشة والزنوج فى أوقات السرور كلها قياسا على يوم العيد فإنه وقت سرور، وفى معناه يوم العرس ، والوليمة ، والعقيقة ، والختان، ويوم القدوم من السفر وسائر أسباب الفرح، وهو كل ما يجوز به الفرح شرعا ، ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقائهم واجتماعهم فى موضع واحد على طعام أو كلام ، فهو أيضا مظنة السماع

السادس : سماع العشاق تحريكا للشوق ، وتهييجا للمشق ، وتسلية للنفس ، فإن كان فى مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللذة ، وإن كان مع المفارقة فالغرض تهييج الشوق والشوق وإن كان ألما ففيه نوع لذة إذا انضاف إليه رجاء الوصال، فإن الرجاء لذيذ، واليأس مؤلم ، وقوة لذة الرجاء بحسب قوة الشوق ، والحب للشىء المرجو ، ففى هذا السماع تهييج العشق ، وتحريك الشوق ، وتحصيل لذة الرجاء المقدر فى الوصال مع الإطناب فى وصف

حسن المحبوب ، وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يباح وصاله ، كمن يعشق زوجته أو سريته فيصغى إلى غنائها لتضاعف لذته فى لقائها ، فيحظى بالمشاهدة البصر، وبالسماع الأذن ويفهم لطائف معانى الوصال والفراق القلب ، فتترادف أسباب اللذة ، فهذه أنواع تمتع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها ، وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وهذا منه ، وكذلك إن غضبت منه جارية ، أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب فله أن يحرك بالسماع شوقه ، وأن يستثير به لذة رجاء الوصال ، فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده ، إذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء ، وأما من يتمثل فى نفسه صورة صبي أو امرأة لا يحل له النظر إليها ، وكان ينزل مايسمع على ماتمثل فى نفسه ، فهذا حرام ، لأنه محرك للفكر فى الأفعال المحظورة ومهيج للداعية إلى مالا يباح الوصول إليه ، وأكثر العشاق والسفهاء من الشباب فى وقت هيجان الشهوة لا ينفكون عن إضمار شيء من ذلك ، وذلك ممنوع فى حقهم ، لما فيه من الداء الدفين ، لا لأمر يرجع إلى نفس السماع ، ولذلك سئل حكيم عن العشق ، فقال : دخان يصعد إلى دماغ الإنسان ، يزيله الجماع ويهيجه السماع

السابع: سماع من أحب الله وعشقه ، واشتاق إلى لقائه ، فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه سبحانه ، ولا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منه أو فيه، فالسماع فى حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه وحبه ، ومور زناد قلبه ، ومستخرج منه أحوالا من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها ، يعرفها من ذاقها ، وينكرها من كل حسه عن ذوقها ، وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية وجدا مأخوذ من الوجود ، والمصادفة أى صادف من نفسه أحوالا لم يكن يصادفها قبل السماع ، ثم تكون تلك الأحوال أسبابا لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقيه من الكدرات ، كما تنقى النار الجواهر المعروضة عليها من الخبث ، ثم يتبع الصفاء الحاصل به مشاهدات ومكاشفات ، وهى غاية مطالب المحبين لله تعالى، ونهاية ثمرة القربات كلها ، فالمفضى إليها من جملة القربات ، لا من جملة المعاصى والمباحات ، وحصول هذه الأحوال للقلب بالسماع سببه سر الله تعالى فى مناسبة النغمات الموزونة للارواح ، وتسخير الأرواح لها وتأثرها بها شوقا ، وفرحا وحزنا ، وانبساطا وانقباضا، ومعرفة السبب فى تأثر الأرواح

بالأصوات من دقائق علوم المكاشفات ، والبليد الجامد القاسى القلب ، المحروم عن لذة السماع ، يتعجب من التذاذ المستمع ووجده ،واضطراب حاله ، وتغير لونه ، تعجب البهيمة من لذة اللوز ينج ، وتعجب العنين من لذة المباشرة ،وتعجب الصبي من لذة الرياسة واتساع أسباب الجاه ، وتعجب الجاهل من لذة معرفة الله تعالى ومعرفة جلاله وعظمته ، وعجائب صنعه ؛ ولكل ذلك سبب واحد، وهو أن اللذة نوع إدراك ، والإدراك يستدعى مدركا ويستدعى قوة مدركة ، فمن لم تكمل قوة إدراكه لم يتصور منه التلذذ ، فكيف يدرك لذة الطعوم من فقد الذوق ، وكيف يدرك لذة الألحان من فقد السمع ، ولذة المعقولات من فقد العقل ، وكذلك ذوق السماع بالقلب بعد وصول الصوت إلى السمع يدرك بحاسة باطنة فى القلب فمن فقدها عدم لا محالة لذته ، ولعلك تقول كيف يتصور العشق فى حق الله تعالى حتى يكون السماع محركا له فاعلم أن من عرف الله أحبه لا محالة ، ومن تأكدت معرفته تأكدت محبته بقدر تأكد معرفته ، والمحبة إذا تأكدت سميت عشقا ، فلا معنى للعشق إلا محبة مؤكدة مفرطة،ولذلك قالت العرب: إن محمدا قد عشق ربه لما رأوه يتخلى للعبادة فى جبل حراء

واعلم أن كل جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال ، والله تعالى جميل يحب الجمال ولكن الجمال إن كان بتناسب الخلقة ، وصفاء اللون ، أدرك بحاسة البصر ، وإن كان الجمال بالجلال والعظمة ، وعلو الرتبة ، وحسن الصفات والأخلاق و إرادة الخيرات لكافة الخلق ، وإفاضتها عليهم على الدوام ، إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب ، ولفظ الجمال قد يستعار أيضا لها ، فيقال إن فلانا حسن وجميل ، ولا تراد صورته ، وإنما يعنى به أنه جميل الأخلاق محمود الصفات ، حسن السيرة ، حتى قد يحب الرجل بهذه الصفات الباطنة استحسانا لها ، كما تحب الصورة الظاهرة ، وقد تتأكد هذه المحبة فتسمى عشقا ، وكم من الغلاة فى حب أرباب المذاهب ، كالشافعى ،ومالك ، وأبى حنيفة ، رضي الله عنهم حتى يبذلوا أموالهم وأرواحهم فى نصرتهم وموالاتهم ، ويزيدوا على كل عاشق فى الغلو والمبالغة ، ومن العجب أن يعقل عشق شخص لم تشاهد قط صورته ، أجميل هو أم قبيح وهو الآن ميت ولكن لجمال صورته الباطنة ، وسيرته المرضية ، والخيرات الحاصلة من عمله لأهل الدين

وغير ذلك من الخصال ، ثم لا يعقل عشق من ترى الخيرات منه ، بل على التحقيق من لا خير ولا جمال ولا محبوب فى العالم إلا وهو حسنة من حسناته ، وأثر من آثار كرمه وغرفة من بحر جوده ، بل كل حسن وجمال فى العالم أدرك بالعقول والأبصار والأسماع وسائر الحواس من مبتدإ العالم إلى منقرضه ، ومن ذروة الثريا إلى منتهى الثرى ، فهو ذرة من خزائن قدرته ، ولمعة من أنوار حضرته

فليت شعرى كيف لا يعقل حب من هذا وصفه ، وكيف لا يتأكد عند العارفين بأوصافه حبه ، حتى يجاوز حداً يكون إطلاق اسم العشق عليه ظلما فى حقه ، لقصوره عن الأنباء عن فرط محبته ، فسبحان من احتجب عن الظهور بشدة ظهوره ، واستتر عن الأبصار بإشراق نوره ، ولولا احتجابه بسبعين حجابا من نوره لأحرقت سبحات وجهه أبصار الملاحظين لجمال حضرته ولولا أن ظهوره سبب خفائه لبهتت العقول ، ودهشت القلوب وتخاذلت القوى ، وتنافرت الأعضاء ، ولو ركبت القلوب من الحجارة والحديد لأصبحت تحت مبادى أنوار تجليه دكا دكا ، فأنى تطيق كنه نور الشمس أبصار الخفافيش ، وسيأتى تحقيق هذه الإشارة فى كتاب المحبة ، ويتضح أن محبة غير الله تعالى قصور وجهل ، بل المتحقق بالمعرفة لا يعرف غير الله تعالى ، إذ ليس فى الوجود تحقيقاً إلا الله وأفعاله ، ومن عرف الأفعال من حيث إنها أفعال لم يجاوز معرفة الفاعل إلى غيره ، فمن عرف الشافعي مثلا رحمه الله وعلمه وتصنيفه من حيث إنه تصنيفه ، لا من حيث إنه بياض وجلد وحبر وورق وكلام منظوم ولغة عربية ، فلقد عرفه ولم يجاوز معرفة الشافعي إلى غيره ، ولا جاوزت محبته إلى غيره ، فكل موجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وفعله ، وبديع أفعاله فمن عرفها من حيث هى صنع الله تعالى فرأى من الصنع صفات الصانع كما يرى من حسن التصنيف فضل المصنف ، وجلالة قدره ، كانت معرفته ومحبته مقصورة على الله تعالى ، غير مجاوزة إلى سواه ، ومن حد هذا العشق أنه لا يقبل الشركة ، وكل ما سوى هذا العشق فهو قابل للشركة ، إذ كل محبوب سواه يتصور له نظير ، إما فى الوجود ، وإما فى الإمكان ، فأما هذا الجمال فلا يتصور له ثان ، لا فى الإمكان ولا فى الوجود ، فكان اسم العشق على حب غيره

مجازاً محضاً لا حقيقة ، نعم الناقص القريب فى نقصانه من البهيمة ، قد لا يدرك من لفظة العشق إلا طلب الوصال ، الذى هو عبارة عن تماس ظواهر الأجسام ، وقضاء شهوة الوقاع فمثل هذا الحمار ينبغى أن لا يستعمل معه لفظة العشق ، والشوق ، والوصال ، والأنس ، بل يجنب هذه الألفاظ والمعانى ، كما تجنب البهيمة النرجس والريحان ، وتخصص بالقت والحشيش وأوراق القضبان ، فإن الألفاظ إنما يجوز إطلاقها فى حق الله تعالى ، إذا لم تكن موهمة معنى يجب تقديس الله تعالى عنه ، والأوهام تختلف باختلاف الأفهام فليتنبه لهذه الدقيقة فى أمثال هذه الألفاظ ، بل لا يبعد أن ينشأ من مجرد السماع لصفات الله تعالى وجد غالب ينقطع بسببه نياط القلب ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] أنه ذكر غلاما كان فى بنى اسرائيل على جبل ، فقال لأمه . من خلق السماء ؟ قالت الله عز وجل ، قال : فمن خلق الأرض ؟ قالت الله عز وجل ، قال : فمن خلق الجبال ؟ قالت الله عز وجل ، قال : فمن خلق الغيم ؟ قالت الله عز وجل ، قال : إنى لأسمع لله شأنا ثم رمى بنفسه من الجبل فتقطع ، وهذا كأنه سمع ما دل على جلال الله تعالى وتمام قدرته فطرب لذلك ووجد ، فرمى بنفسه من الوجد . وما أنزلت الكتب إلا ليطربوا بذكر الله تعالى . قال بعضهم رأيت مكتوبا فى الإنجيل غنينا لكم فلم تطربوا ، وزمرنا لكم فلم ترقصوا ، أي شوقنا كم بذكر الله تعالى فلم تشتاقوا ، فهذا ما أردنا أن نذكره من أقسام السماع ، وبواعثه ، ومقتضياته ، وقد ظهر على القطع إباحته فى بعض المواضع ، والندب إليه فى بعض المواضع .

فإن قلت : فهل له حالة يحرم فيها

فأقول : إنه يحرم بخمسة عوارض عارض فى المسمع ، وعارض فى آلة الإسماع ، وعارض فى نظم الصوت ، وعارض فى نفس المستمع أو فى مواظبته ، وعارض فى كون الشخص من عوام الخلق ، لأن أركان السماع هى المسمع ، والمستمع ، وآلة الإسماع

---

(١) حديث أبى هريرة ان غلاما كان فى بنى اسرائيل على جبل فقال لأمه من خلق السماء فقالت الله الحديث : وفيه ثم رمى نفسه من الجبل فتقطع رواه ابن حبان

العارض الأول : أن يكون المسمع امرأة لايحل النظر إليها ، وتخشى الفتنة من سماعها وفى معناها الصبي الأمرد الذى تخشى فتنته ، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة وليس ذلك لأجل الغناء بل لو كانت المرأة بحيث يفتن بصوتها فى المحاورة من غير ألحان فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ، ولا سماع صوتها فى القرءان أيضا ، وكذلك الصبي الذى تخاف فتنته .

فإن قلت : فهل تقول إن ذلك حرام بكل حال حسما للباب ، أو لايحرم إلا حيث تخاف الفتنة فى حق من يخاف العنت

فأقول : هذه مسألة محتملة من حيث الفقه يتجاذبها أصلان :

أحدهما : أن الخلوة بالأجنبية والنظر إلى وجهها حرام ، سواء خيفت الفتنة أو لم تخف لأنها مظنة الفتنة على الجملة ، فقضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصور .

والثانى : أن النظر إلى الصبيان مباح إلا عند خوف الفتنة ، فلا يلحق الصبيان بالنساء فى عموم الجسم ، بل يتبع فيه الحال وصوت المرأة دائر بين هذين الأصلين ، فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب ، وهو قياس قريب ، ولكن بينهما فرق ، إذ الشهوة تدعو إلى النظر في أول هيجانها ، ولا تدعو إلى سماع الصوت ، وليس تحريك النظر لشهوة المماسة ، كتحريك السماع بل هو أشد ، وصوت المرأة فى غير الغناء ليس بعورة فلم تزل النساء فى زمن الصحابة رضي الله عنهم يكلمن الرجال فى السلام ، والاستفتاء ، والسؤال والمشاورة ، وغير ذلك ، ولكن للغناء مزيد أثر فى تحريك الشهوة ، فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى ، لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب ، كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات ، فينبغى أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه ، هذا هو الأقيس عندى ، ويتأيد بحديث الجاريتين المغنيتين فى بيت عائشة رضى الله عنها إذ يعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع أصواتهما ولم يحترز منه ، ولكن لم تكن الفتنة مخوفة عليه ، فلذلك لم يحترز ، فإذاً يختلف هذا بأحوال المرأة ، وأحوال الرجل فى كونه شابا وشيخا ، ولا يبعد أن يختلف الأمر فى مثل هذا بالأحوال ، فإنا نقول للشيخ أن يقبل زوجته وهو صائم ، وليس للشاب ذلك لأن القبلة تدعو إلى الوقاع فى الصوم ، وهو محظور . والسماع يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام فيختلف ذلك أيضا بالأشخاص

العارض الثانى: فى الآلة بأن تكون من شمار أهل الشرب ، أو المخنثين ، وهى المزامير والأوتار وطبل الكوبة ، فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدف ، وإن كان فيه الجلاجل ، وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات

العارض الثالث: فى نظم الصوت وهو الشعر ،فإن كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجو أو ماهو كذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم،أو على الصحابة رضي الله عنهم كما رتبه الروافض فى هجاء الصحابة وغيرهم،فسماع ذلك حرام ، بألحان وغير ألحان والمستمع شريك للقائل ، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها ، فإنه لا يجوز وصف المرأة بين يدي الرجال ، وأما هجاء الكفار وأهل البدع فذلك جائز ، فقد كان حسان بن ثابت رضي الله عنه ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهاجى الكفار وأمره صلى الله عليه وسلم[١] بذلك ، فأما النسيب: وهو التشبيب بوصف الخدود والأصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء ، فهذا فيه نظر ، والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة ، فإن نزله فلينزله على من يحل له من زوجته وجاريته فإن نزله على أجنبية فهو العاصى بالتنزيل ، وإجالة الفكر فيه ، ومن هذا وصفه فينبغى أن يجتنب السماع رأسا فإن من غلب عليه عشق نزل كل ما يسمعه عليه سواء كان اللفظ مناسبا له أو لم يكن إذ ما من لفظ إلا ويمكن تنزيله على معان بطريق الاستعارة ، فالذى يغلب على قلبه حب الله تعالى يتذكر بسواد الصدغ مثلا ظلمة الكفر ، وبنضارة الخد نور الإيمان وبذكر الوصال لقاء الله تعالى ، وبذكر الفراق الحجاب عن الله تعالى فى زمرة المردودين وبذكر الرقيب المشوش لروح الوصال عوائق الدنيا وآفاتها المشوشة لدوام الأنس بالله تعالى ، ولا يحتاج فى تنزيل ذلك عليه إلى استنباط وتفكر ومهلة ،بل تسبق المعانى الغالبة على القلب إلى فهمه مع اللفظ ، كما روى عن بعض الشيوخ أنه مر فى السوق فسمع واحدا يقول : الخيار عشرة بحبة ، فغلبه الوجد . فسئل عن ذلك ، فقال : إذا كان الخيار عشرة بحبة فما قيمة الأشرار واجتاز بعضهم فى السوق فسمع قائلا يقول : ياسعتر برى ، فغلبه الوجد

---

(١) حديث أمره صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت بهجاء المشركين: متفق عليه من حديث البراء انه صلى الله عليه وسلم قال لحسان اهجم أوهاجهم وجبريل معك

فقيل له على ماذا كان وجدك ؟ فقال سمعته كانه يقول ياسعتر برى ، حتى أن العجمى قد يغلب عليه الوجد على الأبيات المنظومة بلغة العرب ، فإن بعض حروفها يوازن الحروف العجمية فيفهم منها معان أخر. أنشد بعضهم :

وما زارنى فى الليل إلا خيــــاله

فتواجد عليه رجل أعجمي، فسئل عن سبب وجده ، فقال إنه يقول مازاريم ، وهو كما يقول ، فإن لفظ زار يدل فى العجمية على المشرف على الهلاك ، فتوهم أنه يقول كلنا مشرفون على الهلاك فاستشعر عنـد ذلك خطر هلاك الآخرة ، والمحترق فى حب الله تعالى وجـدُه بحسب فهمه وفهمه بحسب تخيله ، وليس من شرط تخيله أن يوافق مراد الشاعر ولغتـه فهذا الوجد حق وصدق ، ومن استشعر خطر هلاك الآخرة لجدير بأن يتشوش عليه عقله وتضطرب عليه أعضاؤه ، فإذاً ليس فى تغيير أعيان الألفاظ كبير فائدة، بل الذى غلب عليه عشق مخلوق ينبغى أن يحترز من السماع بأي لفظ كان ، والذى غلب عليه حب الله تعالى فلا تضره الألفاظ ، ولا تمنعه عن فهم المعانى اللطيفة المتعلقة بمجارى همته الشريفة

العارض الرابع فى المستمع ، وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه ، وكان فى غرة الشباب وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها ، فالسماع حرام عليه سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب، فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصدغ، والخد ، والفراق والوصال إلا ويحرك ذلك شهوته ، وينزله على صورة معينة ، ينفخ الشيطان بها فى قلبـه ، فتشتعل فيه نار الشهوة ، وتحتد بواعث الشر، وذلك هو النصرة لحزب الشيطان ، والتخذيل للعقل المـانع منه الذى هو حزب الله تعالى ، والقتال فى القلب دائم بين جنود الشيطان وهي الشهوات وبين حزب الله تعـالى وهو نور العقل ، إلا فى قلب قد فتحـه أحد الجندين ، واستولى عليه بالـكلية ، وغالب القلوب الآن قد فتحها جند الشيطان ، وغلب عليها ، فتحتاج حينئذ إلى أن تستأنف أسباب القتال لإزعاجها ، فكيف يجوز تكثير أسلحتها وتشحيذ سيوفها وأسنتها، والسماع مشحذ لأسلحة جند الشيطان فى حق مثل هذا الشخص ، فليخرج مثل هذا عن مجمع السماع فإنه يستضربه

العارض الخامس : أن يكون الشخص من عوام الخلق ، ولم يغلب عليه حب الله تعالى فيكون السماع له محبوبا ، ولا غلبت عليه شهوة فيكون في حقه محظورا ، ولكنه أبيح في حقه كسائر أنواع اللذات المباحة ، إلا أنه إذا اتخذه ديدنه وهجيراه وقصر عليه أكثر أوقاته فهذا هو السفيه الذي ترد شهادته ، فإن المواظبة على اللهو جناية ، وكما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرة فكذلك بعض المباحات بالمداومة يصير صغيرة ، وهو كالمواظبة على متابعة الزنوج والحبشة والنظر إلى لعبهم على الدوام ، فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعا إذ فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن هذا القبيل اللعب بالشطرنج ، فإنه مباح ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة ، ومهما كان الغرض اللعب والتلذذ باللهو فذلك إنما يباح لما فيه من ترويح القلب ، إذ راحة القلب معالجة له في بعض الأوقات ، لتنبعث دواعيه فتشتغل في سائر الأوقات بالجد في الدنيا كالكسب والتجارة ، أو في الدين كالصلاة والقراءة . واستحسان ذلك فيما بين تضاعيف الجد كاستحسان الخال على الخد ، ولو استوعبت الخيلان الوجه لشوهته ، فما أقبح ذلك ، فيعود الحسن قبحا بسبب الكثرة ، فما كل حسن يحسن كثيره ولا كل مباح يباح كثيره ، بل الخبز مباح والاستكثار منه حرام ، فهذا المباح كسائر المباحات

فإن قلت : فقد أدى مساق هذا الكلام إلى أنه مباح في بعض الأحوال دون بعض فلم أطلقت القول أولا بالإباحة ، إذ إطلاق القول في المفصل بلا أو بنعم خلف وخطأ

فاعلم أن هذا غلط ، لأن الإطلاق إنما يمتنع لتفصيل ينشأ من عين ما فيه النظر ، فأما ما ينشأ من الأحوال العارضة المتصلة به من خارج فلا يمنع الإطلاق ، ألا ترى أنا إذا سئلنا عن العسل أهو حلال أم لا ، قلنا : إنه حلال على الإطلاق مع أنه حرام على المحرور الذي يستضر به ، وإذا سئلنا عن الخمر قلنا : إنها حرام مع أنها تحل لمن غص بلقمة أن يشربها مهما لم يجد غيرها ، ولكن هي من حيث إنها خمر ، حرام ، وإنما أبيحت لعارض الحاجة والعسل من حيث إنه عسل حلال ، وإنما حرم لعارض الضرر ، وما يكون لعارض فلا يلتفت إليه ، فإن البيع حلال ويحرم بعارض الوقوع في وقت النداء يوم الجمعة ، ونحوه من العوارض ، والسماع من جملة المباحات من حيث إنه سماع صوت طيب موزون مفهوم

وإنما تحريمه لعارض خارج عن حقيقة ذاته ، فإذا انكشف الغطاء عن دليل الإباحة فلا نبالى بمن يخالف بعد ظهور الدليل

وأما الشافعى رضي الله عنه فليس تحريم الغناء من مذهبه أصلا ، وقد نص الشافعي وقال فى الرجل يتخذه صناعة: لا تجوز شهادته ، وذلك لأنه من اللهو المكروه الذى يشبه الباطل ، ومن اتخذه صنعة كان منسوبا إلى السفاهة وسقوط المروءة ، وإن لم يكن محرما بين التحريم ، فإن كان لا ينسب نفسه إلى الغناء ، ولا يؤتى لذلك ، ولا يأتى لأجله ، وإنما يعرف بأنه قد يطرب فى الحال فيترنم بها لم يسقط هذا مروءته ، ولم يبطل شهادته ، واستدل بحديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان فى بيت عائشة رضي الله عنها .وقال يونس بن عبد الأعلى: سألت الشافعي رحمه الله عن إباحة أهل المدينة للسماع ، فقال الشافعى : لا أعلم أحدا من علماء الحجاز كره السماع إلا ما كان منه فى الأوصاف ، فأما الحداء ، وذكر الأطلال والمرابع ، وتحسين الصوت بألحان الأشعار فمباح ، وحيث قال إنه لهو مكروه يشبه الباطل ، فقوله لهو ، صحيح ، ولكن اللهو من حيث إنه لهو ليس بحرام ، فلعب الحبشة ورقصهم لهو ، وقد كان صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ولا يكرهه ، بل اللهو واللغو لا يؤاخذ الله تعالى به إن عنى به أنه فعل ما لا فائدة فيه ، فإن الإنسان لو وظف على نفسه أن يضع يده على رأسه فى اليوم مائة مرة فهذا عبث لا فائدة له ولا يحرم ، قال الله تعالى (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ[1]) فإذا كان ذكر اسم الله تعالى على الشيء على طريق القسم من غير عقد عليه ولا تصميم ، والمخالفة فيه مع أنه لا فائدة فيه لا يؤاخذ به ، فكيف يؤاخذ بالشعر والرقص ؟ وأما قوله يشبه الباطل ، فهذا لا يدل على اعتقاد تحريمه ، بل لو قال هو باطل صريحا لما دل على التحريم ، وإنما يدل على خلوه عن الفائدة ، فالباطل ما لا فائدة فيه ، فقول الرجل لامرأته مثلا بعت نفسى منك وقولها اشتريت ، عقد باطل مهما كان القصد اللعب والمطايبة ، وليس بحرام إلا إذا قصد به التمليك المحقق الذى منع الشرع منه ، وأما قوله مكروه فينزل على بعض المواضع التى ذكرتها لك ، أو ينزل على التنزيه ، فإنه نص على إباحة لعب الشطرنج ، وذكر أنى أكره

---

(١) البقرة : ٢٢٥

كل لعب، وتعليله يدل عليه ، فإنه قال ليس ذلك من عادة ذوى الدين والمروءة ، فهذا يدل على التنزيه ، ورده الشهادة بالمواظبة عليه لايدل على تحريمه أيضا، بل قد ترد الشهادة بالأكل فى السوق ، ومايخرم المروءة ، بل الحياكة مباحة ، وليست من صنائع ذوى المروءة ، وقد ترد شهادة المحترف بالحرفة الخسيسة ، فتعليله يدل على أنه أراد بالكراهة التنزيه ، وهذا هو الظن أيضا بغيره من كبار الأئمة ، وإن أرادوا التحريم فما ذكرناه حجة عليهم

بيان حجج القائلين

بتحريم السماع والجواب عنها

احتجوا بقوله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ[1]) قال ابن مسعود والحسن البصرى ، والنخعى ، رضي الله عنهم: إن لهو الحديث هو الغناء ، وروت عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم[1] قال: « إِنَّ اللهَ تَعَالَى حَرَّمَ الْقَيْنَةَ وَبَيْعَهَا وَثَمَنَهَا وَتَعْلِيمَهَا » فنقول أما القينة : فالمراد بها الجارية التى تغنى للرجال فى مجلس الشرب . وقد ذكرنا أن غناء الأجنبية للفساق ومن يخاف عليهم الفتنة حرام ، وهم لا يقصدون بالفتنة إلا ما هو محظور ، فأما غناء الجارية لمالكها فلا يفهم تحريمه من هذا الحديث ، بل لغير مالكها سماعها عند عدم الفتنة ، بدليل ماروى فى الصحيحين من غناء الجاريتين فى بيت عائشة رضي الله عنها

وأما شراء لهو الحديث بالدين استبدالا به ليضل به عن سبيل الله فهو حرام مذموم وليس النزاع فيه ، وليس كل غناء بدلا عن الدين مشترى به ، ومضلا عن سبيل الله تعالى، وهو المراد فى الآية ، ولو قرأ القرءان ليضل به عن سبيل الله لكان حراما

حكي عن بعض المنافقين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا سورة عبس لما فيها من العتاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم عمر بقتله ، ورأى فعله حراما لما فيه من الإضلال ، فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم

---

(١) حديث عائشة ان الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها الطبرانى فى الأوسط باسناد ضعيف قال البيهقي ليس بمحفوظ

(١) لقمان : ٦

واحتجوا بقوله تعالى (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ[١]) قال ابن عباس رضي الله عنهما هو الغناء بلغة حمير، يعنى السمد، فنقول ينبغى أن يحرم الضحك وعدم البكاء أيضا، لأن الآية تشتمل عليه

فإن قيل : إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم، فهذا أيضا مخصوص بأشعارهم وغنائهم فى معرض الاستهزاء بالمسلمين، كما قال تعالى (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ[٢]) وأراد به شعراء الكفار، ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر فى نفسه

واحتجوا بما روى جابر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم[١] قال « كَانَ إِبْلِيسُ أَوَّلَ مَنْ نَاحَ وَأَوَّلَ مَنْ تَغَنَّى » فقد جمع بين النياحة والغناء، قلنا لا جرم كما استثنى منه نياحة داود عليه السلام، ونياحة المذنبين على خطاياهم، فكذلك يستثنى الغناء الذى يراد به تحريك السرور والحزن والشوق، حيث يباح تحريكه، بل كما استثنى غناء الجاريتين يوم العيد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وغناؤهن عند قدومه عليه السلام بقولهن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

واحتجوا بما روى أبو أمامة عنه صلى الله عليه وسلم[٢] أنه قال « مَا رَفَعَ أَحَدٌ صَوْتَهُ بِغِنَاءٍ إِلَّا بَعَثَ اللهُ لَهُ شَيْطَانَيْنِ عَلَى مَنْكِبَيْهِ يَضْرِبَانِ بِأَعْقَابِهِمَا عَلَى صَدْرِهِ حَتَّى يُمْسِكَ »

قلنا: هو منزل على بعض أنواع الغناء الذى قدمناه، وهو الذى يحرك من القلب ماهو مراد الشيطان من الشهوة، وعشق المخلوقين، فأما ما يحرك الشوق إلى الله والسرور بالعيد أو حدوث الولد، أو قدوم الغائب، فهذا كله يضاد مراد الشيطان، بدليل قصة الجاريتين والحبشة، والأخبار التى نقلناها من الصحاح، فالتجويز فى موضع واحد نص فى الإباحة

---

(١) حديث جابر كان ابليس أول من ناح وأول من تغنى لم أجد له أصلا من حديث جابر وذكره صاحب الفردوس من حديث على بن أبى طالب ولم يخرجه ولده فى مسنده

(٢) حديث أبى أمامة مارفع أحد عقيرته بغناء الا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على منكبية يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك ابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى والطبرانى فى الكبير وهو ضعيف

(١) النجم : ٥٩، ٦٠، ٦١ (٢) الشعراء : ٢٢٤

و المنع فى ألف موضع محتمل للتأويل ومحتمل للتنزيل ، أما الفعل فلاتأويل له، إذ ما حرم فعله إنما يحل بعارض الإكراه فقط ، وما أبيح فعله يحرم بعوارض كثيرة حتى النيات والقصود

واحتجوا بما روى عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم[١] قال « كُلُّ شَيْءٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا تَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ وَرَمْيَهُ بِقَوْسِهِ وَمُلَاعَبَتَهُ لِامْرَأَتِهِ »

قلنا: فقوله باطل لايدل على التحريم بل يدل على عدم الفائدة ، وقد يسلم ذلك على أن التلهى بالنظر إلى الحبشة خارج عن هذه الثلاثة وليس بحرام، بل يلحق بالمحصور غير المحصور قياسا كقوله صلى الله عليه وسلم[٢] « لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ » فإنه يلحق به رابع وخامس، فكذلك ملاعبة امرأته لافائدة له إلا التلذذ ، وفى هـذا دليل على أن التفرج فى البساتين ، وسماع أصوات الطيور ، وأنواع المداعبات ، مما يلهو به الرجل لايحرم عليه شيء منها وإن جاز وصفه بأنه باطل

واحتجوا بقول عثمان رضي الله عنه : ما تغنيت ، ولا تمنيت ، ولا مسست ذكري بيميني مذبايعت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم

قلنا : فليكن التمنى ، ومس الذكر باليمنى حراما ، إن كان هذا دليل تحريم الغناء ، فمن أين يثبت أن عثمان رضي الله عنه كان لايترك إلا الحرام

واحتجوا بقول ابن مسعود رضى الله عنه[٣] الغناء ينبت فى القلب النفاق ، وزاد بعضهم كما ينبت الماء البقل ، ورفعه بعضهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو غير صحيح

قالوا ومر على ابن عمر رضى الله عنهما قوم محرمون وفيهم رجل يتغنى، فقال: ألا لاأسمع الله لكم ألا لاأسمع الله لكم

---

(١) حديث عقبة بن عامر كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل الا تأديبه فرسه ورمية بقوسه وملاعبته زوجته أصحاب السنن الاربعة وفيه اضطراب

(٢) حديث لا يحل دم امرىء إلا باحدى ثلاث متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٣) حديث ابن مسعود الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل قال المصنف والمرفوع غير صحيح لان فى إسناده من لم يسم: رواه أبو داود وهو فى زواية ابن العبد ليس فى روايه اللؤلؤى وراوه البيهقى مرفوعا وموقوفا

وعن نافع أنه قال كنت مع ابن عمر رضى الله عنهما [1] فى طريق ، فسمع زمارة راع ، فوضع أصبعيه فى أذنيه ، ثم عدل عن الطريق ، فلم يزل يقول يانافع أتسمع ذلك حتى قلت لا فأخرج أصبعيه وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع ،وقال الفضيل ابن عياض رحمه الله: الغناء رقية الزنا ، وقال بعضهم الغناء رائد من رواد الفجور ، وقال يزيد ابن الوليد : إياكم والغناء ، فإنه ينقص الحياء ، ويزيد الشهوة ، ويهدم المروءة ،وإنه لينوب عن الخمر ، ويفعل مايفعله السكر ، فإن كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء ،فإن الغناء داعية الزنا، فنقول قول ابن مسعود رضى الله عنه ينبت النفاق أراد به فى حق المغنى ، فإنه فى حقه ينبت النفاق إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره ، ويروج صوته عليه ولا يزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا فى غنائه ، وذلك أيضا لايوجب تحريما ، فإن لبس الثياب الجميلة وركوب الخيل المهملجة ، وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحرث والأنعام والزرع ،وغير ذلك ينبت فى القلب النفاق والرياء ، ولا يطلق القول بتحريم ذلك كله ، فليس السبب فى ظهور النفاق فى القلب المعاصى فقط . بل المباحات التي هى مواقع نظر الخلق أكثر تأثيرا ، ولذلك نزل عمر رضى الله عنه عن فرس هملج تحته ، وقطع ذنبه ، لأنه استشعر فى نفسه الخيلاء لحسن مشيته ، فهذا النفاق من المباحات ، وأما قول ابن عمر رضى الله عنهما ألا لاأسمع الله لكم ، فلا يدل على التحريم من حيث إنه غناء بل كانوا محرمين ، ولا يليق بهم الرفث ، وظهر له من مخايلهم أن سماعهم لم يكن لوجد وشوق إلى زيارة بيت الله تعالى بل لمجرد اللهو فأنكر ذلك عليهم لكونه منكرا بالإضافة إلى حالهم وحال الإحرام، وحكايات الأحوال تكثر فيها وجوه الاحتمال ، وأما وضعه أصبعيه فى أذنيه فيعارضه أنه لم يأمر نافعا بذلك ولا أنكر عليه سماعه ، وإنما فعل ذلك هو لأنه رأى أن ينزه سمعه فى الحال وقلبه عن صوت ربما يحرك اللهو ، ويمنعه عن فكر كان فيه أو ذكر هو أولى منه ، وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه لم يمنع ابن عمر ، لايدل أيضا على التحريم ، بل يدل على أن الأولى تركه

---

(١) حديث نافع كنت وابن عمر فى طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعه فى أذنيه ـ الحديث ، ورفعه أبو داود وقال هذا حديث منكر

ونحن نرى أن الأولى تركه فى أكثر الأحوال، بل أكثر مباحات الدنيا الأولى تركها إذا علم أن ذلك يؤثر فى القلب ، فقد خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبى جهم ، إذ كانت عليه أعلام شغلت قلبه ، أفترى أن ذلك يدل على تحريم الأعلام على الثوب ، فلعله صلى الله عليه وسلم كان فى حالة كان صوت زمارة الراعى يشغله على تلك الحالة ، كما شغله العلم عن الصلاة ، بل الحاجة إلى استثارة الأحوال الشريفة من القلب بحيلة السماع قصور بالإضافة إلى من هو دائم الشهود للحق ، وإن كان كمالا بالإضافة إلى غيره ، ولذلك قال الحصرى ماذا أعمل بسماع ينقطع إذا مات من يسمع منه إشارة إلى أن السماع من الله تعالى هو الدائم : فالأنبياء عليهم السلام على الدوام فى لذة السمع والشهود ، فلا يحتاجون إلى التحريك بالحيلة ، وأما قول الفضيل هو رقية الزنا وكذلك ماعداه من الأقاويل القريبة منه فهو منزل على سماع الفساق والمغتلمين من الشبان ولو كان ذلك عاما لما سمع من الجاريتين فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأما القياس : فغاية مايذكر فيه أن يقاس على الأوتار ، وقد سبق الفرق ، أو يقال هو لهو ولعب وهو كذلك ، ولكن الدنيا كلها لهو ولعب ، قال عمر رضي الله عنه لزوجته : إنما أنت لعبة فى زاوية البيت ، وجميع الملاعبة مع النساء لهو إلا الحراثة التى هى سبب وجود الولد ، وكذلك المزح الذى لا فحش فيه حلال ، نقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] وعن الصحابة ، كما سيأتى تفصيله فى كتاب آفات اللسان إن شاء الله ، وأى لهو يزيد على لهو الحبشة والزنوج فى لعبهم ، وقد ثبت بالنص إباحته ؟ على أنى أقول : اللهو مروح للقلب ، ومخفف عنه أعباء الفكر ، والقلوب إذا أكرهت عميت ، وترويحها إعانة لها على الجد ؛ فالمواظب على التفقه مثلا ، ينبغى أن يتعطل يوم الجمعة ، لأن عطلة يوم تبعث على النشاط فى سائر الأيام ، والمواظب على نوافل الصلوات فى سائر الأوقات ، ينبغى أن يتعطل فى بعض الأوقات ولأجله كرهت الصلاة فى بعض الأوقات ، فالعطلة معونة على العمل واللهو معين على الجد ، ولا يصبر على الجد المحض ، والحق المر الا نفوس الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) حديث خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبى جهم اد كان عليه أعلام سغلت قلبه تقدم فى الصلاة

(٢) حديث مزاحه صلى الله عليه وسلم يأتى فى آفات اللسان كما قال المصنف

فاللهو دواء القلب من داء الأعياء والملال ، فينبغي أن يكون مباحا ، ولكن لا ينبغي أن يستكثر منه كما لا يستكثر من الدواء ، فإذاً اللهو على هذه النية يصير قربة ، هذا في حق من لا يحرك السماع من قلبه صفة محمودة يطلب تحريكها ، بل ليس له إلا اللذة والاستراحة المحضة فينبغي أن يستحب له ذلك ليتوصل به إلى المقصود الذي ذكرناه ، نعم : هذا يدل على نقصان عن ذروة الكمال ، فإن الكامل هو الذي لا يحتاج أن يروح نفسه بغير الحق ، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ومن أحاط بعلم علاج القلوب ، ووجوه التلطف بها لسياقتها إلى الحق ، علم قطعا أن ترويحها بأمثال هذه الأمور دواء نافع لا غنى عنه

الباب الثاني

في آثار السماع وآدابه

اعلم أن أول درجة السماع فهم المسموع وتنزيله على معنى يقع للمستمع ، ثم يثمر الفهم الوجد ، ويثمر الوجد الحركة بالجوارح ، فلينظر في هذه المقامات الثلاثة

المقام الأول في الفهم

وهو يختلف باختلاف أحوال المستمع ، وللمستمع أربعة أحوال

إحداها : أن يكون سماع بمجرد الطبع ، أي لا حظ له في السماع إلا استلذاذ الألحان والنغمات وهذا مباح ، وهو أخس رتب السماع ، إذ الإبل شريكة له فيه وكذا سائر البهائم ، بل لا يستدعي هذا الذوق إلا الحياة ، فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة

الحالة الثانية : أن يسمع بفهم ولكن ينزله على صورة مخلوق إما معينا ، وإما غير معين وهو سماع الشباب وأرباب الشهوات ، ويكون تنزيلهم للمسموع على حسب شهواتهم ومقتضى أحوالهم ، وهذه الحالة أخس من أن نتكلم فيها إلا ببيان خستها والنهي عنها

الحالة الثالثة : أن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملته لله تعالى ، وتقلب أحواله في التمكن مرة والتعذر أخرى ، وهذا سماع المريدين لاسيما المبتدئين ، فإن للمريد لا محالة مرادا هو مقصده ، ومقصده معرفة الله سبحانه ، ولقاؤه والوصول إليه بطريق المشاهدة

بالسر وكشف الغطاء، وله فى مقصده طريق هو سالكه، ومعاملات هو مثابر عليها وحالات تستقبله فى معاملاته، فإذا سمع ذكر عتاب أو خطاب، أو قبول أو رد أو وصل أو هجر، أو قرب أو بعد، أو تلهف على فائت أو تعطش إلى منتظر، أو شوق إلى وارد أو طمع أو يأس، أو وحشة أو استئناس، ووفاء بالوعد، أو نقض للعهد، أو خوف فراق، أوفرح بوصال، أو ذكر ملاحظة الحبيب، ومدافعة الرقيب، أو همول العبرات أو ترادف الحسرات، أوطول الفراق، أو عدة الوصال، أو غير ذلك مما يشتمل على وصفه الأشعار، فلا بد أن يوافق بعضها حال المريد فى طلبه، فيجرى ذلك مجرى القدح الذى يورى زناد قلبه، فتشتعل به نيرانه، ويقوى به انبعاث الشوق وهيجانه، ويهجم عليه بسببه أحوال مخالفة لعادته، ويكون له مجال رحب فى تنزيل الألفاظ على أحواله، وليس على المستمع مراعاة مراد الشاعر من كلامه، بل لكل كلام وجوه، ولكل ذى فهم فى اقتباس المعنى منه حظوظ، ولنضرب لهذه التنزيلات والفهوم أمثلة كي لا يظن الجاهل أن المستمع لأبيات فيها ذكر الفم والخد والصدغ إنما يفهم منها ظواهرها، ولا حاجة بنا إلى ذكر كيفية فهم المعانى من الأبيات، ففى حكايات أهل السماع مايكشف عن ذلك

فقد حكي أن بعضهم سمع قائلا يقول،

قال الرسول غدا تزو ... ر فقلت تعقل ماتقول

فاستفزه اللحن والقول، وتواجد وجعل يكرر ذلك ويجعل مكان التاء نونا، فيقول قال الرسول غدا نزور، حتى غشي عليه من شدة الفرح واللذة والسرور، فلما أفاق سئل عن وجده مم كان، فقال ذكرت قول الرسول صلى الله عليه وسلم [1] إن أهل الجنة يزورون ربهم فى كل يوم جمعة مرة

• وحكى الرقى عن ابن الدراج أنه قال كنت أنا وابن الفوطى مارين على دجلة بين البصرة والأبلة، فإذا بقصر حسن له منظرة، وعليه رجل بين يديه جارية تغني وتقول

كل يوم تتلون ... غير هذا بك أحسن

(١) حديث ان أهل الجنة يزورون ربهم فى كل جمعة: الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وفيه عبد الحميد بن حبيب بن أبى العشرين مختلف فيه وقال الترمذى لانعرفه إلا من هذا الوجه قال وقد روى سويد بن عمرو عن الأوزاعى شيئاً من هذا

فإذا شاب حسن تحت المنظرة ، وبيده ركوة ، وعليه مرقعة يستمع، فقال ياجارية بالله وبحياة مولاك ألا أعدت علي هذا البيت . فأعادت فكان الشاب يقول هـذا والله تلوّنى مع الحق فى حالى، فشهق شهقة ومات ، قال فقلنا قد استقبلنا فرض فوقفنا ، فقال صاحب القصر للجارية أنت حرة لوجه الله تعالى ، قال ثم إن أهل البصرة خرجوا فصلوا عليه فلما فرغوا من دفنه قال صاحب القصر: أشهدكم أن كل شىء لى فى سبيل الله ، وكل جواري أحرار ، وهذا القصر للسبيل، قال ثم رمى بثيابه ، واتزر بإزار ، وارتدى بآخر ، ومر على وجهه والناس ينظرون إليه، حتى غاب عن أعينهم وهم يبكون فلم يسمع له بعد خبر

والمقصود أن هذا الشخص كان مستغرق الوقت بحاله مع الله تعالى، ومعرفة عجزه عن الثبوت على حسن الأدب فى المعاملة ، وتأسفه على تقلب قلبه ، وميله عن سنن الحق ، فلما قرع سمعه مايوافق حاله سمعه من الله تعالى كأنه يخاطبه ، ويقول له :

كل يوم تتلون   غير هذا بك أحسن

ومن كان سماعه من الله تعالى وعلى الله وفيه ، فينبغى أن يكون قد أحكم قانون العلم فى معرفة الله تعالى ، ومعرفة صفاته، وإلا خطر له من السماع فى حق الله تعالى ما يستحيل عليه ويكفر به ، ففى سماع المريد المبتدى خطر ، إلا إذا لم ينزل مايسمع إلا على حاله من حيث لا يتعلق بوصف الله تعالى ، ومثال الخطأ فيه هذا البيت بعينه، فلو سمعه فى نفسه وهو يخاطب به ربه عزوجل، فيضيف التلون إلى الله تعالى فيكفر ، وهذا قد يقع عن جهل محض مطلق غير ممزوج بتحقيق ، وقد يكون عن جهل ساقه إليه نوع من التحقيق ، وهو أن يرى تقلب أحوال قلبه، بل تقلب أحوال سائر العالم من الله وهو حق ، فإنه تارة يبسط قلبه ، وتارة يقبضه ، وتارة ينوره ، وتارة يظلمه ، وتارة يقسيه ، وتارة يلينه ، وتارة يثبته على طاعته ويقويه عليها ، وتارة يسلط الشيطان عليه ليصرفه عن سنن الحق ، وهذا كله من الله تعالى ومن يصدر منه أحوال مختلفة فى أوقات متقاربة فقد يقال له فى العادة إنه ذو بداوات وأنه متلون ، ولعل الشاعر لم يرد به إلا نسبة محبوبه إلى التلون فى قبوله ورده ، وتقريبه وإبعاده ، وهذا هو المعنى فسماع هذا كذلك فى حق الله تعالى كفر محض ، بل ينبغى أن

يعلم أنه سبحانه وتعالى يلون ولا يتلون ، ويغير ولا يتغير ، بخلاف عباده وذلك العلم يحصل للمريد باعتقاد تقليدي إيماني ، ويحصل للعارف البصير بيقين كشفي حقيقي ، وذلك من أعاجيب أوصاف الربوبية وهو المغير من غير تغير ، ولا يتصور ذلك إلا في حق الله تعالى بل كل مغير سواه فلا يغيره مالم يتغير ، ومن أرباب الوجد من يغلب عليه حال مثل السكر المدهش، فيطلق لسانه بالعتاب مع الله تعالى ، ويستنكر اقتهاره القلوب وقسمته للأحوال الشريفة على تفاوت ، فإنه المستصفي لقلوب الصديقين ، والمبعد لقلوب الجاحدين والمغرورين فلا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولم يقطع التوفيق عن الكفار لجناية متقدمة، ولا أمد الأنبياء عليهم السلام بتوفيقه ونور هدايته لوسيلة سابقة ، ولكنه قال (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ[1]) وقال عز وجل : (وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ[2]) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ[3]) فإن خطر ببالك أنه لم اختلفت السابقة ، وهم في ربقة العبودية مشتركون نوديت من سرادقات الجلال لاتجاوز حد الأدب ، فإنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

ولعمري تأدب اللسان والظاهر مما يقدر عليه الأكثرون ، فأما تأدب السر عن إضمار الاستبعاد ، بهذا الاختلاف الظاهر في التقريب والإبعاد ، والإشقاء والإسعاد مع بقاء السعادة والشقاوة أبد الآباد، فلا يقوى عليه إلا العلماء الراسخون في العلم، ولهذا قال الخضر عليه السلام لما سئل عن السماع في المنام أنه الصفو الزلال الذي لايثبت عليه إلا أقدام العلماء ، لأنه محرك لأسرار القلوب ومكامنها ، ومشوش لها تشويش السكر المدهش الذي يكاد يحل عقدة الأدب عن السر، إلا ممن عصمه الله تعالى بنور هدايته ، ولطيف عصمته ولذلك قال بعضهم ليتنا نجونا من هذا السماع رأسا برأس ، ففي هذا الفن من السماع خطر يزيد على خطر السماع المحرك للشهوة ، فإن غاية ذلك معصية وغاية الخطأ هاهنا كفر

واعلم أن الفهم قد يختلف بأحوال المستمع ، فيغلب الوجد على مستمعين لبيت واحد وأحدهما مصيب في الفهم ، والآخر مخطيء ، أو كلاهما مصيبان ، وقد فهما معنيين مختلفين متضادين

---

[1] الصفات : ١٧١ [2] السجدة : ١٣ [3] الأنبياء : ١٠١

ولكنه بالإضافة إلى اختلاف أحوالهما لا يتناقض، كما حكي عن عتبة الغلام أنه سمع رجلا يقول

سبحان جبار السما إن المحب لفى عنا

فقال : صدقت ، وسمعه رجل آخر فقال : كذبت ، فقال بعض ذوى البصائر أصابا جميعا وهو الحق ، فالتصديق كلام محب غير ممكّن من المراد ، بل مصدود متعب بالصد والهجر ، والتكذيب كلام مستأنس بالحب مستلذ لما يقاسيه بسبب فرط حبه غير متأثر به ، أو كلام محب غير مصدود عن مراده فى الحال ، ولا مستشعر بخطر الصد فى المآل وذلك لاستيلاء الرجاء وحسن الظن على قلبه ، فباختلاف هذه الأحوال يختلف الفهم

وحكى عن أبى القاسم بن مروان وكان قد أصحب أبا سعيد الخراز رحمه الله وترك حضور السماع سنين كثيرة ، فحضر دعوة وفيها إنسان يقول

واقف فى الماء عطشا ن ولكن ليس يسقى

فقام القوم وتواجدوا ، فلما سكنوا سألهم عن معنى ماوقع لهم من معنى البيت، فأشاروا إلى التعطش إلى الأحوال الشريفة والحرمان منها مع حضور أسبابها فلم يقنعه ذلك ، فقالوا له فماذا عندك فيه ؟ فقال أن يكون فى وسط الأحوال ، ويكرم بالكرامات ، ولا يعطى منها ذرة ، وهذه إشارة إلى إثبات حقيقة وراء الأحوال والكرامات ، والأحوال سوابقها والكرامات تسنح فى مباديها ، والحقيقة بعد لم يقع الوصول إليها ، ولا فرق بين المعنى الذى فهمه وبين ماذكروه ، إلا فى تفاوت رتبة المتعطش إليه ، فإن المحروم عن الأحوال الشريفة أولا يتعطش إليها ، فإن مكن منها تعطش إلى ماوراءها، فليس بين المعنيين اختلاف فى الفهم، بل الاختلاف بين الرتبتين

وكان الشبلى رحمه الله كثيرا مايتواجد على هذا البيت :

ودادكم هجر وحبكم قلى ووصلكم صرم وسلمكم حرب

وهذا البيت يمكن سماعه على وجوه مختلفة ، بعضها حق وبعضها باطل ، وأظهرها أن يفهم هذا فى الخلق ، بل فى الدنيا بأسرارها ، بل فى كل ماسوى الله تعالى، فإن الدنيا مكارة

خداعة ، قتالة لأربابها ، معادية لهم فى الباطن ، ومظهرة صورة الود ،[١] فما امتلأت منها دار حبرة إلا امتلأت عبرة ، كما ورد فى الخبر ، وكما قال الثعلبي في وصف الدنيا

تنح عن الدنيا فلا تخطبنها ... ولا تخطبن قتالة من تناكح

فليس يفى مرجوّها بمخوفها ... ومكروهها إما تأملت راجح

لقد قال فيها الواصفون فأكثروا ... وعندي لها وصف لعمري صالح

سلاف قصاراها زعاف ومركب ... شهي إذا استذللته فهو جامح

وشخص جميل يؤثر الناس حسنه ... ولكن له أسرار سوء قبائح

والمعنى الثانى : أن ينزله على نفسه فى حق الله تعالى ، فإنه إذا تفكر فمعرفته جهل ، إذ ماقدروا الله حق قدره ، وطاعته رياء ، إذ لايتقى الله حق تقاته ، وحبه معلول إذ لايدع شهوة من شهواته فى حبه ، ومن أراد الله به خيرا بصره بعيوب نفسه ، فيرى مصداق هذا البيت فى نفسه ، وإن كان على المرتبة بالإضافة إلى الغافلين ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم[٢] « لاَ أُحْصِى ثَنَاء عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » وقال عليه الصلاه والسلام[٣] « إِنِّى لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِى الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً » وإنما كان استغفاره عن أحوال هى درجات بُعْد بالإضافة إلى مابعدها ، وإن كانت قربا بالإضافة إلى ماقبلها ، فلا قرب إلا ويبقى وراءه قرب لانهاية له ، إذ سبيل السلوك إلى الله تعالى غير متناه ، والوصول إلى أقصى درجات القرب محال

والمعنى الثالث : أن ينظر فى مبادى أحواله فيرتضيها ، ثم ينظر فى عواقبها فيزدريها ، لاطلاعه على خفايا الغرور فيها ، فيرى ذلك من الله تعالى ، فيستمع البيت فى حق الله تعالى شكاية من القضاء والقدر ، وهذا كفر ، كما سبق بيانه ، وما من بيت إلا ويمكن تنزيله على معان ، وذلك بقدر غزارة علم المستمع وصفاء قلبه

الحالة الرابعة : سماع من جاوز الأحوال والمقامات ، فعزب عن فهم ماسوى الله تعالى حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها ، وكان كالمدهوش الغائص فى بحر عين الشهود

---

(١) حديث ماامتلأت دار منها حبرة إلا امتلأت عبرة : ابن المبارك عن عكرمة بن عمار عن يحيى بن أبي كثير مرسلا

(٢) حديث لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك : رواه مسلم وقد تقدم

(٣) حديث إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة : تقدم فى الباب الثانى من الأذكار

الذى يضاهى حاله حال النسوة اللاتى قطعن أيديهن فى مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهشن وسقط إحساسهن ، وعن مثل هذه الحالة تعبر الصوفية بأنه قد فنى عن نفسه ومهما فنى عن نفسه فهو عن غيره أفنى ، فكأنه فنى عن كل شيء إلا عن الواحد المشهود، وفنى أيضا عن الشهود ،فإن القلب أيضا إذا التفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مشاهد، فقد غفل عن المشهود ، فالمستهتر بالمرئى لا التفات له فى حال استغراقه إلى رؤيته ، ولا إلى عينه التى بها رؤيته ، ولا إلى قلبه الذى به لذته ، فالسكران لا خبر له من سكره، والمتلذذ لا خبر له من التذاذه ، وإنما خبره من المتلذذ به فقط ، ومثاله العلم بالشيء فإنه مغاير للعلم بالعلم بذلك الشيء ، فالعالم بالشيء مهما ورد عليه العلم بالعلم بالشيء كان معرضا عن الشيء ، ومثل هذه الحاله قد تطرأ فى حق المخلوق ، وتطرأ أيضا فى حق الخالق ، ولكنها فى الغالب تكون كالبرق الخاطف الذى لا يثبت ولا يدوم ، وإن دام لم تطقه القوة البشرية ، فربما اضطرب تحت أعبائه اضطرابا تهلك به نفسه، كما روي عن أبى الحسن النورى أنه حضر مجلسا فسمع هذا البيت

مازلت أنزل من ودادك منزلا تتحير الألباب عند نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه ،فوقع فى أجمة قصب قد قطع ،وبقيت أصوله مثل السيوف فصار يعدو فيها، ويعيد البيت إلى الغداة ، والدم يخرج من رجليه حتى ورمت قدماه وساقاه ، وعاش بعد ذلك أياما ومات رحمه الله

فهذه درجة الصديقين فى الفهم والوجد، فهى أعلى الدرجات، لأن السماع على الأحوال نازل من درجات الكمال، وهى ممتزجة بصفات البشرية وهو نوع قصور ، وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله، أعنى أنه ينساها فلا يبقى له التفات إليها كما لم يكن للنسوة التفات إلى الأيدى والسكاكين فيسمع لله، وبالله، وفى الله، ومن الله، وهذه رتبة من خاض لجة الحقائق، وعبر ساحل الأحوال والأعمال واتحد بصفاء التوحيد ، وتحقق بمحض الإخلاص، فلم يبق فيه منه شيء أصلا بل خمدت بالكلية بشريته ، وفنى التفاته إلى صفات البشرية رأسا ، ولست أعنى بفنائه فناء جسده بل فناء قلبه ، ولست أعنى بالقلب اللحم والدم بل سر لطيف له إلى القلب الظاهر نسبة خفية وراءها سر الروح الذى هو من أمر الله عز وجل ، عرفها من عرفها ، وجهلها من جهلها

ولذلك السر وجود ، وصورة ذلك الوجود مايحضر فيه ، فإذا حضر فيه غيره فكأنه لا وجود إلا للحاضر ، ومثاله المرآة المجلوة إذ ليس لها لون فى نفسها ، بل لونها لون الحاضر فيها وكذلك الزجاجة ، فإنها تحكى لون قرارها ، ولونها لون الحاضر فيها ، وليس لها فى نفسها صورة بل صورتها قبول الصور ، ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان ، ويعرب عن هذه الحقيقة أعنى سر القلب بالإضافة إلى ما يحضر فيه ، قول الشاعر :

رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وهذا مقام من مقامات علوم المكاشفة ، منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد ، وقال أنا الحق وحوله يدندن كلام النصارى فى دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت ، أو تدرعها بها أو حلولها فيها ، على ما اختلفت فيهم عباراتهم ، وهو غلط محض ، يضاهى غلط من يحكم على المرآة بصورة الحمرة ، إذ ظهر فيها لون الحمرة من مقابلها ، وإذا كان هذا غير لائق بعلم المعاملة فلنرجع إلى الغرض فقد ذكرنا تفاوت الدرجات فى فهم المسموعات

المقام الثانى

بعد الفهم والتنزيل ... الوجد

وللناس كلام طويل فى حقيقة الوجد ، أعنى الصوفية ، والحكماء الناظرين فى وجه مناسبة السماع للأرواح ، فلننقل من أقوالهم ألفاظا ، ثم لنكشف عن الحقيقة فيه

أما الصوفية : فقد قال ذو النون المصرى رحمه الله : فى السماع أنه وارد حق جاء يزعج القلوب إلى الحق ، فمن أصغى إليه بحق تحقق ، ومن أصغى إليه بنفس تزندق ، فكأنه عبّر عن الوجد بانزعاج القلوب إلى الحق ، وهو الذى يجده عند ورود وارد السماع ، إذ سمى السماع وارد حق ، وقال أبو الحسين الدراج مخبراً عما وجده فى السماع : الوجد عبارة عما يوجد عند السماع ، وقال جال بى السماع فى ميادين البهاء ، فأوجدنى وجود الحق عند العطاء فسقانى بكأس الصفاء ، فأدركت به منازل الرضاء ، وأخرجنى إلى رياض التنزه والفضاء

وقال الشبلي رحمه الله : السماع ظاهره فتنة ، وباطنه عبرة ، فمن عرف الإشارة حل له استماع العبارة ، وإلا فقد استدعى الفتنة ، وتعرض للبلية ، وقال بعضهم : السماع غذاء الأرواح لأهل المعرفة ، لأنه وصف يدق عن سائر الأعمال ، ويدرك برقة الطبع لرقته ، وبصفاء السر لصفائه ولطفه عند أهله ، وقال عمرو بن عثمان المكى : لا يقع على كيفية الوجد عبارة ، لأنه سر الله عند عباده المؤمنين الموقنين ، وقال بعضهم : الوجد مكاشفات من الحق

وقال أبو سعيد بن الأعرابي : الوجد رفع الحجاب ، ومشاهدة الرقيب ، وحضور الفهم ، وملاحظة الغيب ، ومحادثة السر ، وإيناس المفقود ، وهو فناؤك من حيث أنت ، وقال أيضا : الوجد أول درجات الخصوص ، وهو ميراث التصديق بالغيب ، فلما ذاقوه وسطع فى قلوبهم نوره زال عنهم كل شك وريب ، وقال أيضا : الذى يحجب عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالعلائق والأسباب ، لأن النفس محجوبة بأسبابها ، فإذا انقطعت الأسباب وخلص الذكر وصحا القلب ، ورق وصفا ، ونجعت الموعظة فيه ، وحل من المناجاة في محل قريب وخوطب وسمع الخطاب بأذن واعية ، وقلب شاهد ، وسر ظاهر ، فشاهد ما كان منه خاليا فذلك هو الوجد ، لأنه قد وجد ما كان معدوما عنده ، وقال أيضا : الوجد ما يكون عند ذكر مزعج ، أو خوف مقلق ، أو توبيخ على زلة ، أو محادثة بلطيفة ، أو إشارة إلى فائدة أو شوق إلى غائب ، أو أسف على فائت ، أو ندم على ماض ، أو استجلاب إلى حال ، أو داع إلى واجب ، أو مناجاة بسر ، وهو مقابلة الظاهر بالظاهر ، والباطن بالباطن ، والغيب بالغيب ، والسر بالسر ، واستخراج مالك بما عليك ، مما سبق لك السعي فيه فيكتب ذلك لك بعد كونه منك ، فيثبت لك قدم بلا قدم ، وذكر بلا ذكر ، إذ كان هو المبتدىء بالنعم والمتولى وإليه يرجع الأمر كله ، فهذا ظاهر علم الوجد ، وأقوال الصوفية من هذا الجنس فى الوجد كثيرة .

وأما الحكماء فقال بعضهم : فى القلب فضيلة شريفة لم تقدر قوة النطق على إخراجها باللفظ فأخرجتها النفس بالألحان ، فلما ظهرت سرت وطربت إليها فاستمعوا من النفس وناجوها ودعوا مناجاة الظواهر ، وقال بعضهم نتائج السماع استنهاض العاجز من الرأى

واستجلاب العازب من الأفكار ، وحدة الكال من الأفهام والآراء حتى يثوب ماعزب وينهض ماعجز ، ويصفو ما كدر ، ويمرح فى كل رأى ونية ، فيصيب ولا يخطىء ، ويأتى ولا يبطىء ، وقال آخر . كما أن الفكر يطرق العلم إلى المعلوم ، فالسماع يطرق القلب إلى العالم الروحانى ، وقال بعضهم : وقد سئل عن سبب حركة الأطراف بالطبع على وزن الألحان والإيقاعات ، فقال: ذلك عشق عقلى ، والعاشق العقلى لايحتاج إلى أن يناغى معشوقه بالمنطق الجرمى ، بل يناغيه ويناجيه بالتبسم ، واللحظ ، والحركة اللطيفة بالحاجب والجفن والإشارة ، وهذه نواطق أجمع إلا أنها روحانية ، وأما العاشق البهيمى ، فإنه يستعمل المنطق الجرمى ليعبر به عن ثمرة ظاهر شوقه الضعيف ، وعشقه الزائف ، وقال آخر من حزن فليسمع الألحان ، فإن النفس إذا دخلها الحزن خمد نورها ، وإذا فرحت اشتعل نورها ، وظهر فرحها فيظهر الحنين بقدر قبول القابل ، وذلك بقدر صفائه ونقائه من الغش والدنس

والأقاويل المقررة فى السماع والوجد كثيرة ، ولا معنى للاستكثار من إيرادها ، فلنشتغل بتفهيم المعنى الذى الوجد عبارة عنه فنقول : إنه عبارة عن حالة يثمرها السماع ، وهو وارد حق جديد عقيب السماع يجده المستمع من نفسه ، وتلك الحالة لاتخلو عن قسمين ، فإنها إما أن ترجع إلى مكاشفات ومشاهدات ، هى من قبيل العلوم والتنبيهات ، وإما أن ترجع إلى تغيرات وأحوال ليست من العلوم ، بل هى كالشوق والخوف ، والحزن والقلق ، والسرور والأسف ، والندم والبسط والقبض ، وهذه الأحوال يهيجها السماع ويقويها ، فإن ضعف بحيث لم يؤثر فى تحريك الظاهر ، أو تسكينه ، أو تغيير حاله حتى يتحرك على خلاف عادته ، أو يطرق أو يسكن عن النظر ، والنطق والحركة على خلاف عادته لم يسم وجدا وإن ظهر على الظاهر سمى وجدا ، إما ضعيفا ، وإما قويا ، بحسب ظهوره وتغييره للظاهر وتحريكه بحسب قوة وروده ، وحفظ الظاهر عن التغيير بحسب قوة الواجد وقدرته على ضبط جوارحه ، فقد يقوى الوجد فى الباطن ، ولا يتغير الظاهر لقوة صاحبه ، وقد لايظهر الضعف الوارد وقصوره عن التحريك ، وحل عقد التماسك ، وإلى معنى الأول أشار أبو سعيد بن الأعرابى حيث قال فى الوجد : إنه مشاهدة الرقيب ، وحضور الفهم

وملاحظة الغيب ، ولا يبعد أن يكون السماع سببا لكشف ما لم يكن مكشوفا قبله فإن الكشف يحصل بأسباب

منها التنبيه والسماع منبه

ومنها تغير الأحوال ومشاهدتها وإدراكها ، فإن إدراكها نوع علم يفيد إيضاح أمور لم تكن معلومة قبل الورود

ومنها صفاء القلب ، والسماع يؤثر فى تصفية القلب ، والصفاء يسبب الكشف

ومنها انبعاث نشاط القلب بقوة السماع ، فيقوى به على مشاهدة ما كان تقصر عنه قبل ذلك قوته ، كما يقوى البعير على حمل ما كان لا يقوى عليه قبله ، وعمل القلب الاستكشاف وملاحظة أسرار الملكوت ، كما أن عمل البعير حمل الأثقال

فبواسطة هذه الأسباب يكون سببا للكشف بل القلب إذا صفا ، ربما يتمثل له الحق فى صورة مشاهدة ، أو فى لفظ منظوم يقرع سمعه ، يعبر عنه بصوت الهاتف ، إذا كان فى اليقظة ، وبالرؤيا إذا كان فى المنام ، وذلك جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة

وعلمُ تحقيق ذلك خارج عن علم المعاملة ، وذلك كما روى عن محمد بن مسروق البغدادى أنه قال : خرجت ليلة فى أيام جهالتي وأنا نشوان ، وكنت أغنى هذا البيت :

بطور سيناء كرم ما مررت به ألا تعجبت ممن يشرب الماء

فسمعت قائلا يقول :

وفى جهنم ماء ما تجرعه خلق فأبقى له فى الجوف إمعاء

قال فكان ذلك سبب توبتى ، واشتغالى بالعلم والعبادة ، فانظر كيف أثر الغناء فى تصفية قلبه ، حتى تمثل له حقيقة الحق فى صفة جهنم فى لفظ مفهوم موزون وقرع ذلك سمعه الظاهر

وروى عن مسلم العباداني أنه قال : قدم علينا مرة صالح المرى ، وعتبة الغلام وعبد الواحد بن زيد ، ومسلم الأسوارى ، فنزلوا على الساحل قال فهيأت لهم ذات ليلة طعاما فدعوتهم إليه فجاءوا ، فلما وضعت الطعام بين أيديهم إذا بقائل يقول رافعاً صوته هذا البيت :

وتلهيك عن دار الخلود مطاعم ولذة نفس غيها غير نافع

قال : فصاح عتبة الغلام صيحة ، وخرّ مغشيا عليه ، وبقي القوم فرفعت الطعام ، وما ذاقوا والله منه لقمة ؛ وكما يسمع صوت الهاتف عند صفاء القلب فيشاهد أيضا بالبصر صورة الخضر عليه السلام ، فإنه يتمثل لأرباب القلوب بصور مختلفة ، وفي مثل هذه الحالة تتمثل الملائكة للأنبياء عليهم السلام ، إما على حقيقة صورتها ، وأما على مثال يحاكي صورتها بعض المحاكاة وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] جبريل عليه السلام مرتين في صورته ، وأخبر عنه بأنه سد الأفق وهو المراد بقوله تعالى (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى [1]) إلى آخر هذه الآيات .

وفي مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطلاع على ضمائر القلوب ، وقد يعبر عن ذلك الاطلاع بالتفرس ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [2] « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ »

وقد حكي أن رجلا من المجوس ، كان يدور على المسلمين ويقول : ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ » فكان يذكر له تفسيره فلا يقنعه ذلك ، حتى انتهى إلى بعض المشايخ من الصوفية ، فسأله فقال له معناه : أن تقطع الزنار الذي على وسطك تحت ثوبك ، فقال صدقت هذا معناه وأسلم ، وقال الآن عرفت أنك مؤمن ، وأن إيمانك حق

وكما حكي عن إبراهيم الخواص ، قال كنت ببغداد في جماعة من الفقراء في الجامع ، فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه ، فقلت لأصحابي يقع لي أنه يهودي ، فكلهم كرهوا ذلك ، فخرجت وخرج الشاب ثم رجع إليهم ، وقال أي شيء قال الشيخ فيّ ، فاحتشموه فألح عليهم ، فقالوا له : قال إنك يهودي ، قال فجاءني وأكب على يدي ، وقبل رأسي وأسلم وقال نجد في كتبنا أن الصدّيق لا تخطىء فراسته ، فقلت أمتحن المسلمين فتأملتهم ، فقلت إن كان فيهم صديق ففي هذه الطائفة ، لأنهم يقولون حديثه سبحانه ، ويقرؤن كلامه فلبست عليكم ، فلما اطلع على الشيخ وتفرس فيّ علمت أنه صديق ، قال وصار الشاب من كبار الصوفية

---

(١) حديث رأى جبريل عليه السلام مرتين في صورته فأخبر أنه سد الأفق : متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله تعالى : الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حديث غريب

(١) النجم : ٥ ، ٦ ، ٧

وإلى مثل هذا الكشف الإشارة بقوله عليه السلام [١] « لَوْلاَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاء » وإنما تحوم الشياطين على القلوب إذا كانت مشحونة بالصفات المذمومة ، فإنها مرعى الشيطان وجنده ، ومن خلّص قلبه من تلك الصفات وصفّاه ، لم يطف الشيطان حول قلبه ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [١]) وبقوله تعالى (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ [٢]) والسماع سبب لصفاء القلب ، وهو شبكة للحق بواسطة الصفاء ، وعلى هذا يدل ماروي أن ذا النون المصرى رحمه الله دخل بغداد ، فاجتمع إليه قوم من الصوفية ومعهم قوال ، فاستأذنوه فى أن يقول لهم شيئا فأذن لهم فى ذلك فأنشأ يقول :

صغير هواك عذبنى ... فكيف به إذا احتنكا
وأنت جمعت فى قلبى ... هوى قدكان مشتركا
أما ترثى لمكتئب ... إذا أضحك الخلي بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه ، ثم قام رجل آخر ، فقال ذو النون الذى يراك حين تقوم ، فجلس ذلك الرجل وكان ذلك اطلاعا من ذى النون على قلبه أنه متكلف متواجد فعرّفه أن الذى يراه حين يقوم هو الخصم فى قيامه لغير الله تعالى ، ولو كان الرجل صادقا لما جلس فإذا قد رجع حاصل الوجد إلى مكاشفات وإلى حالات

واعلم أن كل واحد منهما ينقسم إلى مايمكن التعبير عنه عند الإفاقة منه ، وإلى مالا تمكن العبارة عنه أصلا ، ولعلك تستبعد حالة أو علما لاتعلم حقيقته ، ولا يمكن التعبير عن حقيقته ، فلا تستبعد ذلك ، فإنك تجد فى أحوالك القريبة لذلك شواهد

أما العلم : فكم من فقيه تعرض عليه مسألتان متشابهتان فى الصورة ، ويدرك الفقيه بذوقه أن بينهما فرقا فى الحكم ، وإذا كلف ذكر وجه الفرق لم يساعده اللسان على التعبير وإن كان من أفصح الناس فيدرك بذوقه الفرق ولا يمكنه التعبير عنه ، وإدراكه الفرق

---

(١) حديث لولا ان الشياطين يحومون على بنى آدم لنظروا إلي ملكوت السماء : تقدم فى الصوم

(١) الحجر : ٤٠ ، ٤٢

علم يصادفه فى قلبه بالذوق ، ولا يشك فى أن لوقوعه فى قلبه سببا ، وله عند الله تعالى حقيقة ، ولا يمكنه الإخبار عنه لا لقصور فى لسانه ، بل لدقة المعنى فى نفسه عن أن تناله العبارة ، وهذا مما قد تفطن له المواظبون على النظر فى المشكلات

وأما الحال : فكم من إنسان يدرك فى قلبه فى الوقت الذى يصبح فيه قبضاً أو بسطاً ولا يعلم سببه ، وقد يتفكر إنسان فى شىء فيؤثر فى نفسه أثرا فينسى ذلك السبب ، ويبقى الأثر فى نفسه وهو يحس به ، وقد تكون الحالة التى يحسها سرورا ثبت فى نفسه، بتفكره فى سبب موجب للسرور ، أو حزنا فينسى المتفكَّر فيه ، ويحس بالأثر عقيبه ، وقد تكون تلك الحالة حالة غريبة لا يعرب عنها لفظ السرور والحزن : ولا يصادف لها عبارة مطابقة مفصحة عن المقصود ؛ بل ذوق الشعر الموزون، والفرق بينه وبين غير الموزون يختص به بعض الناس دون بعض ، وهى حالة يدركها صاحب الذوق ، بحيث لا يشك فيها ، أعنى التفرقة بين الموزون والمزحف ، فلا يمكنه التعبير عنها بما يتضح مقصوده به لمن لا ذوق له ، وفى النفس أحوال غريبة هذا وصفها ، بل المعانى المشهورة من الخوف والحزن والسرور ، إنما تحصل فى السماع عن غناء مفهوم ، وأما الأوتار وسائر النغمات التى ليست مفهومة ، فإنها تؤثر فى النفس تأثيرا عجيبا ، ولا يمكن التعبير عن عجائب تلك الآثار ، وقد يعبر عنها بالشوق ولكن شوقٌ لا يعرف صاحبه المشتاقَ إليه فهو عجيب ، والذى اضطرب قلبه بسماع الأوتار أو الشاهين وما أشبهه ، ليس يدرى إلى ماذا يشتاق ويجد فى نفسه حالة كأنها تتقاضى أمرا ليس يدرى ما هو ، حتى يقع ذلك للعوام ؛ ومن لا يغلب على قلبه لا حب آدمي ولا حب الله تعالى ، وهذا له سر ، وهو أن كل شوق فله ركنان

أحدها : صفة المشتاق وهو نوع مناسبة مع المشتاق إليه

والثانى : معرفة المشتاق إليه، ومعرفة صورة الوصول إليه ، فإن وجدت الصفة التى بها الشوق ؛ ووجد العلم بصورة المشتاق إليه ، كان الأمر ظاهرا، وإن لم يوجد العلم بالمشتاق ووجدت الصفة المشوقة وحركت قلبك الصفة واشتعلت نارها ، أورث ذلك دهشة وحيرة لا محالة، ولو نشأ آدمي وحده بحيث لم ير صورة النساء ، ولا عرف صورة الوقاع، ثم راهق الحلم

وغلبت عليه الشهوة ، لكان يحس من نفسه بنار الشهوة ، ولكن لا يدرى أنه يشتاق إلى الوقاع ، لأنه ليس يدرى صورة الوقاع ، ولا يعرف صورة النساء ، فكذلك فى نفس الآدمى مناسبة مع العالم الأعلى ، واللذات التى وُعد بها فى سدرة المنتهى ، والفراديس العلا إلا أنه لم يتخيل من هذه الأمور إلا الصفات والأسماء ، كالذى سمع لفظ الوقاع واسم النساء ولم يشاهد صورة امرأة قط ، ولا صورة رجل ، ولا صورة نفسه فى المرآة ليعرف بالمقايسة فالسماع يحرك منه الشوق . والجهل المفرط ، والاشتغال بالدنيا قد أنساه نفسه،وأنساه ربه وأنساه مستقره الذى إليه حنينه واشتياقه بالطبع ، فيتقاضاه قلبه أمرا ليس يدرى ماهو فيدهش ويتحير ويضطرب ، ويكون كالمختنق الذى لا يعرف طريق الخلاص

فهذا وأمثاله من الأحوال التى لايدرك تمام حقائقها . ولايمكن المتصف بها أن يعبر عنها ، فقد ظهر انقسام الوجد إلى مايمكن إظهاره ، وإلى مالايمكن إظهاره

واعلم أيضا أن الوجد ينقسم إلى هاجم ، وإلى متكلف ويسمى التواجد ،وهذا التواجد المتكلف ، فمنه مذموم ، وهو الذى يقصد به الرياء ، وإظهار الأحوال الشريفة مع الإفلاس منها ، ومنه ما هو محمود ، وهو التوصل إلى استدعاء الأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالحيلة ، فإن للكسب مدخلا فى جلب الأحوال الشريفة

ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] من لم يحضره البكاء فى قراءة القرءان أن يتباكى ويتحازن ، فإن هذه الأحوال قد تتكلف مباديها ، ثم تتحقق أواخرها ، وكيف لايكون التكلف سببا فى أن يصير المتكلف فى الآخرة طبعا ، وكل من يتعلم القرءان أولا يحفظه تكلفا ، ويقرؤه تكلفا مع تمام التأمل ، وإحضار الذهن ، ثم يصير ذلك ديدنا للسان مطرداً ، حتى يجرى به لسانه فى الصلاة وغيرها وهو غافل ، فيقرأ تمام السورة وتثوب نفسه إليه بعد انتهائه إلى آخرها ، ويعلم أنه قرأها فى حال غفلته، وكذلك الكاتب يكتب فى الابتداء بجهدشديد ، ثم تتمرن على الكتابة يده ، فيصير الكتب له طبعا، فيكتب أوراقا كثيرة ، وهو مستغرق القلب بفكر آخر ، فجميع ما تحتمله النفس والجوارح

---

(١) حديث البكاء عند قراءة القرءان فان لم تبكوا فتباكوا: تقدم فى تلاوة القرءان فى الباب الثانى :

من الصفات ، لا سبيل إلى اكتسابه إلا بالتكلف والتصنع أولا ، ثم يصير بالعادة طبعا وهو المراد بقول بعضهم . العادة طبيعة خامسة ، فكذلك الأحوال الشريفة لاينبغى أن يقع اليأس منها عند فقدها ، بل ينبغى أن يتكلف اجتلابها بالسماع وغيره ، فلقد شوهد فى العادات من اشتهى أن يعشق شخصا ولم يكن يعشقه ، فلم يزل يردد ذكره على نفسه ويديم النظر إليه ، ويقرر على نفسه الأوصاف المحبوبة ، والأخلاق المحمودة فيه حتى عشقه ورسخ ذلك فى قلبه رسوخا خرج عن حد اختياره فاشتهى بعد ذلك الخلاص منه فلم يتخلص ، فكذلك حب الله تعالى والشوق إلى لقائه ، والخوف من سخطه ، وغير ذلك من الأحوال الشريفة ، إذا فقدها الإنسان فينبغى أن يتكلف اجتلابها بمجالسة الموصوفين بها ومشاهدة أحوالهم ، وتحسين صفاتهم فى النفس ، وبالجلوس معهم فى السماع ، وبالدعاء والتضرع إلى الله تعالى ، فى أن يرزقه تلك الحالة بأن ييسر له أسبابها ، ومن أسبابها السماع ، ومجالسة الصالحين ، والخائفين ، والمحسنين ، والمشتاقين ، والخاشعين ، فمن جالس شخصا سرت إليه صفاته من حيث لايدرى ، ويدل على إمكان تحصيل الحب وغيره من الأحوال بالأسباب ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] فى دعائه « اَللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ » فقد فزع عليه السلام إلى الدعاء فى طلب الحب

فهذا بيان انقسام الوجد إلى مكاشفات ، وإلى أحوال ، وانقسامه إلى مايمكن الإفصاح عنه ، وإلى مالا يمكن ، وانقسامه إلى المتكلف ، وإلى المطبوع

فإن قلت : فما بال هؤلاء لايظهر وجدهم عند سماع القرءان ، وهو كلام الله ، ويظهر عند الغناء ، وهو كلام الشعراء ، فلو كان ذلك حقا من لطف الله تعالى ، ولم يكن باطلا من غرور الشيطان ، لكان القرءان أولى به من الغناء

فنقول : الوجد الحق هو ماينشأ من فرط حب الله تعالى : وصدق إرادته ، والشوق إلى لقائه وذلك يهيج بسماع القرءان أيضا وإنما الذى لايهيج بسماع القرءان حب الخلق وعشق المخلوق

---

(١) حديث اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك ـ الحديث : تقدم فى الدعوات

ويدل على ذلك قوله تعالى (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [١]) وقوله تعالى (مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ [٢]) وكل مايوجد عقيب السماع بسبب السماع فى النفس فهو وجد ، فالطمأنينة والاقشعرار والخشية ولين القلب ، كل ذلك وجد ، وقد قال الله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ [٣]) وقال تعالى: (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ [٤]) فالوجل والخشوع وجد من قبيل الأحوال ، وإن لم يكن من قبيل المكاشفات، ولكن قديصير سببا للمكاشفات والتنبيهات ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم [٢] « زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ » وقال لأبى موسى الأشعرى [٣] « لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ »

وأما الحكايات الدالة على أن أرباب القلوب ظهر عليهم الوجد عند سماع القرءان فكثيرة فقوله صلى الله عليه وسلم [٤] « شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا » خبر عن الوجد ،فإن الشيب يحصل من الحزن والخوف ، وذلك وجد ، وروى أن ابن مسعود رضي الله عنه ، قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] سورة النساء فلما انتهى إلى قوله تعالى (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً [٥]) قال: «حَسْبُكَ» وكانت عيناه تذرفان بالدموع وفى رواية أنه عليه السلام قرأ هذه الآية، أو قرىء عنده [٦] (إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا [٦]) فصعق، وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم [٧] قرأ (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ [٧]) فبكى

---

(٢) حديث زينوا القرآن بأصواتكم: تقدم فى تلاوة القرءان

(٣) حديث لقد أوتى مزمارا من مزامير آل داود : قاله لأبى موسى تقدم فيه

(٤) حديث شيبتنى هود وأخواتها : الترمذى من حديث أبى جحيفة وله وللحاكم من حديث ابن عباس نحوه قال الترمذى حسن وقال الحاكم صحيح على شرط البخارى

(٥) حديث ان ابن مسعود قرأ عليه فلما انتهى إلى قوله (فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال حسبك ـ الحديث : متفق عليه من حديثه

(٦) حديث أنه قرىء عنده (إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما) فصعق : ابن عدى فى الكامل والبيهقى فى الشعب من طريقه من حديث أبى حرب بن أبى الاسود مرسلا

(٧) حديث انه قرأ (إن تعذبهم فانهم عبادك) فبكي : مسلم من حديث عبد الله بن عمرو

---

(١) الرعد : ٢٨ (٢) الزمر: ٢٣ (٣) الأنفال: ٢ (٤) الحشر : ٢١ (٥) النساء : ٤١ (٦) المزمل: ١٢، ١٣

(٧) المائدة : ١١٨

وكان عليه السلام[١] إذا مر بآية رحمة دعا واستبشر، والاستبشار وجد، وقد أثنى الله تعالى على أهل الوجد بالقرءان، فقال تعالى (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ[١]) وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] كان يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل

وأما مانقل من الوجد بالقرءان عن الصحابه رضي الله عنهم، والتابعين فكثير، فمنهم من صعق، ومنهم من بكى، ومنهم من غشي عليه، ومنهم من مات فى غشيته، وروى أن زرارة بن أبى أوفى، وكان من التابعين، كان يؤم الناس بالرقة، فقرأ (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ[٢]) فصعق ومات فى محرابه رحمه الله

وسمع عمر رضي الله عنه رجلا يقرأ (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ[٣]) فصاح صيحة وخر مغشيا عليه، فحمل إلى بيته فلم يزل مريضا فى بيته شهرا، وأبو جرير من التابعين قرأ عليه صالح المرى، فشهق ومات. وسمع الشافعي رحمه الله قارئا يقرأ (هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ[٤]) فغشى عليه، وسمع على بن الفضيل قارئا يقرأ (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[٥]) فسقط مغشيا عليه، فقال الفضيل : شكر الله لك، ماقد علمه منك وكذلك نقل عن جماعة منهم وكذلك الصوفية، فقد كان الشبلى فى مسجده ليلة من رمضان وهو يصلى خلف إمام له فقرأ الإمام (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ[٦]) فزعق الشبلى زعقة ظن الناس أنه قد طارت روحه، واحمر وجهه، وارتعدت فرائصه، وكان يقوم بمثل هذا يخاطب الأحباب يردد ذلك مرارا . وقال الجنيد : دخلت على سري السقطى، فرأيت بين يديه رجلا قد غشي عليه، فقال لى هذا رجل قد سمع آية من القرءان فغشى عليه فقلت اقرؤا عليه تلك الآية بعينها، فقرئت فأفاق، فقال : من أين قلت هذا ؟ فقلت : رأيت يعقوب عليه السلام كان عماه من أجل مخلوق، فبمخلوق أبصر، ولو كان عماه من أجل الحق ما أبصر بمخلوق، فاستحسن ذلك ويشير إلى ماقاله الجنيد قول الشاعر :

وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها

(١) حديث كان إذا مر بآية رحمة دعا واستبشر : تقدم فى تلاوة القرءان دون قوله واستبشر

(٢) حديث انه كان يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل : أبو داود والنسائى والترمذى فى الشمائل من حديث عبدالله بن الشخير وقد تقدم

(١) المائدة : ٨٣ (٢) المدثر : ٨ (٣) الطور : ٧ (٤) المرسلات : ٣٥ ، ٣٦ (٥) التطفيف : ٦ (٦) الاسراء : ٨٦

وقال بعض الصوفية : كنت أقرأ ليلة هذه الآية (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ [١]) فجعلت أرددها ، فإذا هاتف يهتف بى ، كم تردد هذه الآية ، فقد قتلت أربعة من الجن مارفعوا رءوسهم إلى السماء منذ خلقوا

وقال أبو على المغازلى للشبلى ، ربما تطرق سمعى آية من كتاب الله تعالى ، فتجذبنى إلى الإعراض عن الدنيا ، ثم أرجع إلى أحوالى ، وإلى الناس فلا أبقى على ذلك ، فقال ماطرق سمعك من القرءان فاجتذبك به إليه ، فذلك عطف منه عليك ، ولطف منه بك ، وإذا ردك إلى نفسك ، فهو شفقة منه عليك ، فإنه لا يصلح لك إلا التبرى من الحول والقوة فى التوجه إليه

وسمع رجل من أهل التصوف قارئا يقرأ (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً [٢]) فاستعادها من القارىء ، وقال كم أقول لها ارجعى ، وليست ترجع وتواجد ، وزعق زعقة فخرجت روحه وسمع بكر بن معاذ قارئا يقرأ (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ [٣]) الآية فاضطرب ، ثم صاح ارحم من أنذرته ، ولم يقبل إليك بعد الإنذار بطاعتك ثم غشي عليه ، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، إذا سمع أحدا يقرأ (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ [٤]) اضطربت أوصاله حتى كان يرتعد ، وعن محمد بن صبيح ، قال كان رجل يغتسل فى الفرات فمر به رجل على الشاطىء يقرأ (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ [٥]) فلم يزل الرجل يضطرب حتى غرق ومات

وذكر أن سلمان الفارسى أبصر شابا يقرأ ، فأتى على آية فاقشعر جلده ، فأحبه سلمان وفقده فسأل عنه ، فقيل له إنه مريض ، فأتاه يعوده ، فإذا هو فى الموت ، فقال ياعبد الله أرأيت تلك القشعريرة التى كانت بى ، فإنها أتتنى فى أحسن صورة ، فأخبرتنى أن الله قد غفر لى بها كل ذنب

وبالجملة لا يخلو صاحب القلب عن وجد عند سماع القرءان ، فإن كان القرءان لا يؤثر فيه أصلا ، فمثله كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمي فهم لا يعقلون ، بل صاحب القلب تؤثر فيه الكلمة من الحكمة يسمعها ، قال جعفر الخلدى : دخل رجل من أهل خراسان على الجنيد وعنده جماعة ، فقال للجنيد متى يستوى عند العبد حامده وذامه فقال بعض الشيوخ : إذا دخل البيمارستان وقيد بقيدين ، فقال الجنيد : ليس هذا من شأنك ثم أقبل على الرجل ، وقال إذا تحقق أنه مخلوق فشهق الرجل شهقة ومات

---

[١] آل عمران : ١٨٥ [٢] الفجر : ٢٧ ، ٢٨ [٣] غافر : ١٨ [٤] الانشقاق : ١ [٥] يس : ٥٩

فإن قلت : فإن كان سماع القرءان مفيداً للوجد ، فما بالهم يجتمعون على سماع الغناء من القوالين دون القارئين ، فكان ينبغي أن يكون اجتماعهم وتواجدهم فى حلق القراء لاحلق المغنين ، وكان ينبغي أن يطلب عند كل اجتماع فى كل دعوة قارىء لاقوال ، فإن كلام الله تعالى أفضل من الغناء لامحالة .

فاعلم أن الغناء أشد تهييجا للوجد من القرءان من سبعة أوجه

الوجه الأول : أن جميع آيات القرءان لاتناسب حال المستمع ولاتصلح لفهمه وتنزيله على ما هو ملابس له ، فمن استولى عليه حزن أو شوق أو ندم ، فمن أين يناسب حاله قوله تعالى : (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ [١]) وقوله تعالى :(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ [٢]) وكذلك جميع الآيات التى فيها بيان أحكام الميراث ، والطلاق والحدود ، وغيرها ، وإنما المحرك لما فى القلب ما يناسبه ، والأبيات إنما يضعها الشعراء إعرابا بها عن أحوال القلب ، فلا يحتاج فى فهم الحال منها إلى تكلف ، نعم من يستولى عليه حالة غالبة قاهرة لم تبق فيه متسعا لغيرها ، ومعه تيقظ وذكاء ثاقب يتفطن به للمعانى البعيدة من الألفاظ ، فقد يخرج وجده على كل مسموع ، كمن يخطر له عند ذكر قوله تعالى (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ) حالة الموت المحوج إلى الوصية ، وأن كل إنسان لابد أن يخلف ماله وولده ، وهما محبوباه من الدنيا فيترك أحد المحبوبين للثانى ويهجرهما جميعا ، فيغلب عليه الخوف والجزع ، أو يسمع ذكر الله فى قوله (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ) فيدهش بمجرد الاسم عما قبله وبعده ، أو يخطر له رحمة الله على عباده وشفقته ، بأن تولى قسم مواريثهم بنفسه نظرلهم فى حياتهم وموتهم ، فيقول : إذا نظر لأولادنا بعد موتنا فلا نشك بأنه ينظر لنا ، فيهيج منه حال الرجاء ويورثه ذلك ، استبشاراً وسروراً ، أو يخطر له من قوله تعالى : (لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ) تفضيل الذكر بكونه رجلا على الأنثى ، وأن الفضل فى الآخرة لرجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وأن من ألهاه غير الله تعالى عن الله تعالى فهو من الإناث لامن الرجال تحقيقا ، فيخشى أن يحجب أو يؤخر فى نعيم الآخرة كما أخرت الأنثى فى أموال الدنيا ، فأمثال هذا قد يحرك الوجد ولكن لمن فيه وصفان :

(١) النساء : ١١ (٢) النور : ٤

أحدهما : حالة غالبة مستغرقة قاهرة ، والآخر : تفطن بليغ وتيقظ بالغ كامل ، للتنبيه بالأمور القريبة على المعاني البعيدة ، وذلك مما يعز فلأجل ذلك يفزع إلى الغناء الذي هو ألفاظ مناسبة للأحوال ، حتى يتسارع هيجانها ، وروى أن أبا الحسين النوري كان مع جماعة فى دعوى فجرى بينهم مسألة فى العلم ، وأبو الحسين ساكت ثم رفع رأسه ، وأنشدهم :

رب ورقاء هتوف فى الضحى ذات شجو صدحت فى فنن
ذكرت إلفاً ودهراً صالحا وبكت حزنا فهاجت حزنى
فبكائى ربما أرقها وبكاها ربما أرقنى
ولقد أشكو فما أفهمها ولقد تشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها وهي أيضا بالجوى تعرفني

قال فما بقى أحد من القوم إلا قام وتواجد ، ولم يحصل لهم هذا الوجد من العلم الذى خاضوا فيه ، وإن كان العلم جدّا وحقا

الوجه الثانى : أن القرءان محفوظ للأكثرين ، ومتكرر على الأسماع والقلوب ، وكلما سمع أولا عظم أثره فى القلوب وفى الكرة الثانية يضعف أثره ، وفى الثالثة يكاد يسقط أثره ، ولو كلف صاحب الوجد الغالب أن يحضر وجده على بيت واحد على الدوام ، فى مرات متقاربة فى الزمان ، فى يوم أو أسبوع لم يمكنه ذلك ، ولو أبدل ببيت آخر لتجدد له أثر فى قلبه ، وإن كان معربا عن عين ذلك المعنى ، ولكن كون النظم واللفظ غريبا بالإضافة إلى الأول يحرك النفس ، وإن كان المعنى واحداً وليس يقدر القارىء على أن يقرأ قرءانا غريبا فى كل وقت ، ودعوة ، فإن القرءان محصور لا يمكن الزيادة عليه ، وكله محفوظ متكرر

وإلى ماذكرناه أشار الصديق رضي الله عنه ، حيث رأى الأعراب يقدمون فيسمعون القرءان ويبكون ، فقال : كنا كما كنتم ، ولكن قست قلوبنا ، ولا تظنن أن قلب الصدّيق رضي الله عنه كان أقسى من قلوب الأجلاف من العرب ، وأنه كان أخلى عن حب الله تعالى وحب كلامه من قلوبهم ، ولكن التكرار على قلبه اقتضى المرون عليه ، وقلة التأثر به ، لما حصل له من الأنس بكثرة استماعه ، إذ محال فى العادات أن يسمع السامع آية لم يسمعها قبل فيبكى ، ثم يدوم على بكائه عليها عشرين سنة ثم يرددها ويبكى ولا يفارق الأول الآخر

إلا فى كونه غريبا جديدا ، ولكل جديد لذة ، ولكل طارىء صدمة ، ومع كل مألوف أنس يناقض الصدمة ، ولذا هم عمر رضي الله عنه أن يمنع الناس من كثرة الطواف ، وقال قد خشيت أن يتهاون الناس بهذا البيت ، أي يأنسوا به ، ومن قدم حاجا فرأى البيت أولا بكى وزعق وربما غشى عليه إذ وقع عليه بصره وقد يقيم بمكة شهرا ، ولا يحس من ذلك فى نفسه بأثر ، فإذا المغنى يقدر على الأبيات الغريبة فى كل وقت، ولا يقدر فى كل وقت على آية غريبة

الوجه الثالث : أن لوزن الكلام بذوق الشعر تأثيرا فى النفس ، فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذى ليس بموزون ، وإنما يوجد الوزن فى الشعر دون الآيات ولو زحف المغنى البيت الذى ينشده ، أو لحن فيه ، أو مال عن حد تلك الطريقة فى اللحن لاضطرب قلب المستمع ، وبطل وجده وسماعه ، ونفر طبعه لعدم المناسبة، وإذا نفر الطبع اضطرب القلب وتشوش ، فالوزن إذاً مؤثر ، فلذلك طاب الشعر

الوجه الرابع : أن الشعر الموزون يختلف تأثيره فى النفس بالألحان التى تسمى الطرق والدستانات ، وإنما اختلاف تلك الطرق بمد المقصور وقصر الممدود ، والوقف فى أثناء الكلمات ، والقطع والوصل فى بعضها ، وهذا التصرف جائز فى الشعر، ولا يجوز فى القرءان إلا التلاوة كما أنزل، فقصره ومده والوقف والوصل والقطع فيه على خلاف ما تقتضيه التلاوة حرام أو مكروه ، وإذا رتل القرءان كما أنزل سقط عنه الأثر الذى سببه وزن الألحان وهو سبب مستقل بالتأثير ، وإن لم يكن مفهوما كما فى الأوتار والمزمار والشاهين وسائر الأصوات التى لا تفهم

الوجه الخامس : أن الألحان الموزونة تعضد وتؤكد بإيقاعات وأصوات أخر موزونة خارج الحلق كالضرب بالقضيب والدف وغيره ، لأن الوجد الضعيف لا يستثار إلا بسبب قوي ، وإنما يقوى بمجموع هذه الأسباب ولكل واحد منها حظ فى التأثير ، وواجب أن يصان القرءان عن مثل هذه القرائن ، لأن صورتها عند عامة الخلق صورة اللهو واللعب والقرءان جد كله عند كافة الخلق ، فلا يجوز أن يمزج بالحق المحض ما هو لهو عند العامة وصورته صورة اللهو عند الخاصة ، وإن كانوا لا ينظرون إليها من حيث إنها لهو ، بل ينبغى أن يوقر القرءان فلا يقرأ على شوارع الطرق ، بل فى مجلس ساكن ، ولا فى حال الجنابة ولا على غير طهارة ، ولا يقدر على الوفاء بحق حرمة القرءان فى كل حال ، إلا المراقبون لأحوالهم.

فيعدل إلى الغناء الذى لا يستحق هذه المراقبة والمراعاة ، ولذلك لا يجوز الضرب بالدف مع قراءة القرءان ليلة العرس ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] بضرب الدف فى العرس ، فقال « أَظْهِرُوا النِّكَاحَ وَلَوْ بِضَرْبِ الْغِرْبَالِ » أو بلفظ هذا معناه وذلك جائز مع الشعر دون القرءان ، ولذلك لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] بيت الربيع بنت معوذ ، وعندها جوار يغنين ، فسمع إحداهن تقول : وفينا نبي يعلم ما فى غد ، على وجه الغناء ، فقال صلى الله عليه وسلم « دَعِي هَذَا وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ » وهذه شهادة بالنبوة ، فزجرها عنها وردها إلى الغناء الذى هو لهو ، لأن هذا جد محض ، فلا يقرن بصورة اللهو ، فإذا يتعذر بسببه تقوية الأسباب التى بها يصير السماع محركا للقلب فواجب فى الاحترام العدول إلى الغناء عن القرءان ، كما وجب على تلك الجارية العدول عن شهادة النبوة إلى الغناء

الوجه السادس : أن المغنى قد يغنى ببيت لا يوافق حال السامع فيكرهه ، وينهاه عنه ويستدعى غيره ، فليس كل كلام موافقا لكل حال ، فلو اجتمعوا فى الدعوات على القارىء فربما يقرأ آية لا توافق حالهم ، إذ القرءان شفاء للناس كلهم على اختلاف الأحوال ، فآيات الرحمة شفاء الخائف ، وآيات العذاب شفاء المغرور الآمن ، وتفصيل ذلك مما يطول ، فإذا لا يؤمن أن لا يوافق المقروء الحال ، وتكرهه النفس ، فيتعرض به لخطر كراهة كلام الله تعالى من حيث لا يجد سبيلا إلى دفعه ، فالاحتراز عن خطر ذلك حزم بالغ وحتم واجب إذ لا يجد الخلاص عنه إلا بتنزيله على وفق حاله ، ولا يجوز تنزيل كلام الله تعالى إلا على ما أراد الله تعالى ، وأما قول الشاعر فيجوز تنزيله على غير مراده ، ففيه خطر الكراهة . أو خطر التأويل الخطأ ، لموافقة الحال فيجب توقير كلام الله وصيانته عن ذلك ، هذا ما ينقدح لى فى علل انصراف الشيوخ إلى سماع الغناء عن سماع القرءان

وههنا وجه سابع ذكره أبو نصر السراج الطوسى فى الاعتذار عن ذلك ، فقال : القرءان كلام الله وصفة من صفاته ، وهو حق لا تطيقه البشرية ، لأنه غير مخلوق . فلا تطيقه الصفات المخلوقة ، ولو كشف للقلوب ذرة من معناه وهيبته لتصدعت ودهشت وتحيرت ، والألحان

---

(١) حديث الأمر بضرب الدف فى العرس : تقدم فى النكاح

(٢) حديث دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار يغنين ـ الحديث البخارى من حديثها وقد تقدم فى النكاح

الطيبة مناسبة للطباع ، ونسبتها نسبة الحظوظ لا نسبة الحقوق ، والشعر نسبته نسبة الحظوظ فإذا علقت الألحان والأصوات بما فى الأبيات من الإشارات واللطائف شاكل بعضها بعضا ، كان أقرب إلى الحظوظ وأخف على القلوب ، لمشاكلة المخلوق المخلوق ، فما دامت البشرية باقية ، ونحن بصفاتنا وحظوظنا تتنعم بالنغمات الشجية، والأصوات الطيبة ، فانبساطنا لمشاهدة بقاء هذه الحظوظ إلى القصائد أولى من انبساطنا إلى كلام الله تعالى ، الذى هو صفته وكلامه ، الذى منه بدأ وإليه يعود ، هذا حاصل المقصود من كلامه واعتذاره

وقد حكي عن أبى الحسن الدرّاج أنه قال : قصدت يوسف بن الحسين الرازى من بغداد للزيارة والسلام عليه ، فلما دخلت الريّ كنت أسأل عنه ، فكل من سألته عنه قال أيش تعمل بذلك الزنديق ؟ فضيقوا صدرى حتى عزمت على الانصراف ، ثم قلت فى نفسى قد جبت هذا الطريق كله فلا أقل من أن أراه، فلم أزل أسأل عنه حتى دخلت عليه فى مسجد وهو قاعد فى المحراب ، وبين يديه رجل وبيده مصحف وهو يقرأ ، فإذا هو شيخ بهيّ ، حسن الوجه واللحية ، فسلمت عليه ، فأقبل عليّ وقال : من أين أقبلت ؟ فقلت : من بغداد فقال : وما الذى جاء بك ؟ فقلت : قصدتك للسلام عليك، فقال : لو أن فى بعض هذه البلدان قال لك إنسان أقم عندنا حتى نشترى لك دارا أو جارية أكان يقعدك ذلك عن المجىء؟ فقلت: ما امتحنى الله بشىء من ذلك ، ولو امتحننى ما كنت أدرى كيف أكون ، ثم قال لى أتحسن أن تقول شيئا ؟ فقلت نعم . فقال : هات فانشأت أقول

رأيتك تبنى دائما فى قطيعتى ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبنى

كأنى بكم والليت أفضل قولكم ألا ليتنا كنا إذ الليت لا يغنى

قال : فأطبق المصحف ، ولم يزل يبكى حتى ابتلت لحيته وابتل ثوبه حتى رحمته من كثرة بكائه ، ثم قال يا بنيّ تلوم أهل الريّ يقولون : يوسف زنديق ، هذا أنا من صلاة الغداة أقرأ فى المصحف لم تقطر من عينى قطرة ، وقد قامت القيامة على لهذين البيتين، فإذا القلوب وإن كانت محترقة فى حب الله تعالى ، فإن البيت الغريب يهيج منها مالا تهيج تلاوة القرءان وذلك لوزن الشعر ومشاكلته للطباع ، ولكونه مشاكلا للطبع اقتدر البشر على نظم الشعر ، وأما القرءان فنظمه خارج عن أساليب الكلام ومنهاجه ،وهو لذلك معجز لا يدخل فى قوة البشر، لعدم مشاكلته لطبعه

وروي أن إسرافيل أستاذ ذى النون المصرى ، دخل عليه رجل فرآه وهو ينكت فى الأرض بأصبعه ويترنم ببيت ، فقال : هل تحسن أن تترنم بشىء ؟ فقال: لا، قال: فأنت بلا قلب ، إشارة إلى أن من له قلب ، وعرف طباعـه ، علم أنه تحركه الأبيات والنغمات تحريكا لايصادف فى غيرها ، فيتكلف طريق التحريك إما بصوت نفسه أو بغيره.

وقد ذكرنا حكم المقام الأول فى فهم المسموع وتنزيله ، وحكم المقام الثانى فى الوجد الذى يصادف فى القلب ، فلنذكر الآن أثر الوجد أعنى مايترشح منه إلى الظاهر من صعقة وبكاء ، وحركة ، وتمزيق ثوب وغيره فنقول :

المقام الثالث من السماع

نذكر فيه آداب السماع ظاهرا وباطنا، وما يحمد من آثار الوجد وما يذم، فأما الآداب فهى خمس جمل

الأول : مراعاة الزمان والمكان والإخوان ، قال الجنيد السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فلا تسمع ، الزمان ، والمكان، والإخوان، ومعناه أن الاشتغال به فى وقت حضور طعام أو خصام ، أو صلاة، أو صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه ، فهذا معنى مراعاة الزمان ، فيراعى حالة فراغ القلب له ، وأما المكان : فقد يكون شارعا مطروقا ، أو موضعا كريه الصورة ، أو فيه سبب يشغل القلب فيجتنب ذلك ، وأما الإخوان: فسببه أنه إذا حضر غير الجنس من منكر السماع متزهد الظاهر مفلس من لطائف القلوب كان مستثقلا فى المجلس واشتغل القلب به ، وكذلك إذا حضر متكبر من أهل الدنيا يحتاج إلى مراقبته وإلى مراعاته أو متكلف متواجد من أهل التصوّف يرائى بالوجد والرقص وتمزيق الثياب ، فكل ذلك مشوّشات ، فترك السماع عند فقد هذه الشروط أولى ، ففى هذه الشروط نظر للمستمع

الأدب الثانى: هو نظر الحاضرين أن الشيخ إذا كان حوله مريدون يضرهم السماع فلا ينبغى أن يسمع فى حضورهم ، فإن سمع فليشغلهم بشغل آخر، والمريد الذى يستضر بالسماع أحد ثلاثة أقلهم درجة هو الذى لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة، ولم يكن له ذوق السماع فاشتغاله بالسماع اشتغال بما لا يعنيه ، فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو ، ولا من أهل الذوق فيتنعم بذوق السماع ، فليشتغل بذكر أو خدمة ، وإلا فهو تضييع لزمانه

الثانى : هو الذى له ذوق السماع ، ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات إلى الشهوات والصفات البشرية ، ولم ينكسر بعدُ انكسارا تؤمن غوائله ، فربما يهيج السماع منه داعية اللهو والشهوة ، فيقطع عليه طريقه ، ويصده عن الاستكمال

الثالث : أن يكون قد انكسرت شهوته ، وأمنت غائلته، وانفتحت بصيرته، واستولى على قلبه حب الله تعالى ، ولكنه لم يحكم ظاهر العلم ، ولم يعرف أسماء الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما يستحيل ، فإذا فتح له باب السماع نزّل المسموع فى حق الله تعالى على مايجوز وما لايجوز ، فيكون ضرره من تلك الخواطر التى هى كفر أعظم من نفع السماع

قال سهل رحمه الله : كل وجد لايشهد له الكتاب والسنة فهو باطل، فلايصلح السماع لمثل هذا ، ولا لمن قلبه بعد ملوث بحب الدنيا ، وحب المحمدة والثناء ، ولا لمن يسمع لأجل التلذذ والاستطابة بالطبع ، فيصير ذلك عادة له ، ويشغله ذلك عن عباداته ومراعاة قلبه ، وينقطع عليه طريقه ، فالسماع مزلة قدم يجب حفظ الضعفاء عنه

قال الجنيد : رأيت إبليس فى النوم ، فقلت له هل تظفر من أصحابنا بشىء ؟ قال : نعم فى وقتين ، وقت السماع ، ووقت النظر ، فإنى أدخل عليهم به ، فقال بعض الشيوخ لو رأيته أنا لقلت له ما أحمقك، من سمع منه إذا سمع، ونظر إليه إذا نظر، كيف تظفر به؟ فقال الجنيد: صدقت

الأدب الثالث : أن يكون مصغيا إلى مايقول القائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفات إلى الجوانب ، متحرزا عن النظر إلى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من أحوال الوجد مشتغلا بنفسه ومراعاة قلبه ، ومراقبة ما يفتح الله تعالى له من رحمته فى سره ، متحفظا عن حركة تشوش على أصحابه قلوبهم ، بل يكون ساكن الظاهر هادىء الأطراف ، متحفظا عن التنحنح والتثاؤب ، ويجلس مطرقا رأسه ، كجلوسه فى فكر مستغرق لقلبه ، متماسكا عن التصفيق والرقص ، وسائر الحركات على وجه التصنع والتكلف والمراآة ، ساكتا عن النطق فى أثناء القول بكل ما عنه بد ، فإن غلبه الوجد وحركه بغير اختيار فهو فيه معذور غير ملوم ، ومهما رجع إليه الاختيار فليعد إلى هدوئه وسكونه ، ولا ينبغى أن يستديمه حياء من أن يقال انقطع وجده على القرب ، ولا أن يتواجد خوفا من أن يقال هو قاسى القلب عديم الصفاء والرقة .

حكي أن شابا كان يصحب الجنيد، فكان إذا سمع شيئاً من الذكر يزعق، فقال له الجنيد يوماً إن فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبني، فكان بعد ذلك يضبط نفسه حتى يقطر من كل شعرة منه قطرة ماء ولا يزعق، فحكي أنه اختنق يوما لشدة ضبطه لنفسه، فشهق شهقة فانشق قلبه وتلفت نفسه

وروي أن موسى عليه السلام قص في بني اسرائيل فزق واحد منهم ثوبه أو قميصه فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ' قل له مزق لي قلبك ولا تمزق ثوبك ، قال أبو القاسم النصراباذى لأبي عمرو بن عبيد ، أنا أقول إذا اجتمع القوم فيكون معهم قوال يقول خير لهم من أن يغتابوا ، فقال أبو عمرو الرياء في السماع ، وهو أن ترى من نفسك حالا ليست فيك شر من أن تغتاب ثلاثين سنة ' أو نحو ذلك

فإن قلت : الأفضل هو الذى لا يحركه السماع ولا يؤثر في ظاهره ، أو الذى يظهر عليه

فاعلم : أن عدم الظهور تارة يكون لضعف الوارد من الوجد فهو نقصان ، وتارة يكون مع قوة الوجد في الباطن ، ولكن لا يظهر لكمال القوة على ضبط الجوارح ، فهو كمال ، وتارة يكون لكون حال الوجد ملازما ومصاحبا في الأحوال كلها ، فلا يتبين للسماع مزيد تأثير وهو غاية الكمال ، فإن صاحب الوجد في غالب الأحوال لا يدوم وجده ، فمن هو في وجد دائم فهو المرابط للحق والملازم لعين الشهود، فهذا لا تغيره طوارق الأحوال، ولا يبعد أن تكون الإشارة بقول الصديق رضي الله عنه ، كنا كما كنتم ثم قست قلوبنا ، معناه قويت قلوبنا واشتدت فصارت تطيق ملازمة الوجد في كل الأحوال ، فنحن في سماع معاني القرءان على الدوام ، فلا يكون القرءان جديدا في حقنا طارئا علينا حتى نتأثر به ، فإذاً قوة الوجد تحرك ، وقوة العقل والتماسك تضبط الظاهر ، وقد يغلب أحدهما الآخر إما لشدة قوته ، وإما لضعف مايقابله ، ويكون النقصان والكمال بحسب ذلك ، فلا تظنن أن الذى يضطرب بنفسه على الأرض أتم وجدا من الساكن باضطرابه ، بل رب ساكن أتم وجدا من المضطرب ، فقد كان الجنيد يتحرك في السماع في بدايته ثم صار لا يتحرك ، فقيل له في ذلك فقال (وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ[1]) إشارة إلى أن القلب مضطرب جائل في الملكوت والجوارح متأدبة في الظاهر ساكنة

---

(١) النمل : ٨٨

وقال أبو الحسن محمد بن أحمد وكان بالبصرة ، صحبت سهل بن عبد الله ستين سنة ، فما رأيته تغير عند شيء كان يسمعه من الذكر أو القرءان ، فلما كان فى آخر عمره قرأ رجل بين يديه (فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ[١]) الآية ، فرأيته قد ارتعد وكاد يسقط ، فلما عاد إلى حاله سألته عن ذلك ، فقال نعم ياحبيبي قد ضعفنا ، وكذلك سمع مرة قوله تعالى(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ[٢]) فاضطرب فسأله ابن سالم وكان من أصحابه ، فقال قد ضعفت فقيل له ، فإن كان هذا من الضعف فما قوة الحال ، فقال : أن لا يرد عليه وارد إلا وهو يلتقيه بقوة حاله ، فلا تغيره الواردات وإن كانت قوية ، وسبب القدرة على ضبط الظاهر مع وجود الوجد استواء الأحوال بملازمة الشهود ، كما حكي عن سهل رحمه الله تعالى أنه قال : حالتى قبل الصلاة وبعدها واحدة ، لأنه كان مراعيا للقلب حاضر الذكر مع الله تعالى فى كل حال فكذلك يكون قبل السماع وبعده ، إذ يكون وجده دائما ، وعطشه متصلا ،وشربه مستمرا بحيث لا يؤثر السماع فى زيادته ، كما روى أن ممشاد الدينورى أشرف على جماعة فيهم قوال فسكتوا ،فقال ارجعوا إلى ما كنتم فيه،فلو جمعت ملاهى الدنيا فى أذنى ماشغل همى ولاشفي بعض ما بي

وقال الجنيد رحمه الله تعالى لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم .وفضل العلم أتم من فضل الوجد

فإن قلت : فمثل هذا لم يحضر السماع

فاعلم: أن من هؤلاء من ترك السماع فى كبره ، وكان لا يحضر إلا نادرا لمساعدة أخ من الإخوان ، وإدخالا للسرور على قلبه وربما حضر ليعرف القوم كمال قوته ، فيعلمون أنه ليس الكمال بالوجد الظاهر ، فيتعلمون منه ضبط الظاهر عن التكلف ، وإن لم يقدروا على الاقتداء به فى صيرورته طبعا لهم ، وإن اتفق حضورهم مع غير أبناء جنسهم ، فيكونون معهم بأبدانهم نائين عنهم بقلوبهم وبواطنهم ، كما يجلسون من غير سماع مع غير جنسهم ، بأسباب عارضة تقتضى الجلوس معهم ، وبعضهم نقل عنه ترك السماع ، ويظن أنه كان سبب تركه استغناءه عن السماع بما ذكرناه ، وبعضهم كان من الزهاد ولم يكن له حظ روحانى فى السماع ، ولا كان من أهل اللهو ، فتركه لئلا يكون مشغولا بما لا يعنيه ، وبعضهم تركه لفقد الإخوان قيل : لبعضهم لم لا تسمع ؟ فقال : ممن ومع من ؟

(١) الحديد : ١٥ (٢) الفرقان : ٢٦

الأدب الرابع . أن لا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه ، ولكن إن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المراآة ، لأن التباكي استجلاب للحزن، والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط ، فكل سرور مباح فيجوز تحريكه، ولو كان ذلك حراما لما نظرت عائشة رضي الله عنها إلى الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] وهم يزفِنُون هذا لفظ عائشة رضي الله عنها في بعض الروايات ، وقد روي عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، أنهم حجلوا لما ورد عليهم سرور أوجب ذلك ، وذلك في قصة ابنة حمزة[٢] لما اختصم فيها علىّ بن أبي طالب ، وأخوه جعفر ، وزيد بن حارثة رضي الله عنهم ، فتشاحوا في تربيتها ، فقال صلى الله عليه وسلم لعلي « أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ » فحجل علي، وقال لجعفر « أَشْبَهْتَ خَلْقِي وخُلُقِي » فحجل وراء حجل علي، وقال لزيد « أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلاَنَا » فحجل زيد وراء حجل جعفر ، ثم قال عليه السلام « هِيَ لِجَعْفَرَ » لأن خالتها تحته ، والخالة والدة وفي رواية أنه قال لعائشة رضي الله عنها « أَتُحِبِّينَ أَنْ تَنْظُرِي إِلَى زَفْنِ الْحَبَشَةِ » والزفن والحجل هو الرقص ، وذلك يكون لفرح أو شوق ، فحكمه حكم مهيجه إن كان فرحه محمودا ، والرقص يزيده ويؤكده فهو محمود ، وإن كان مباحا فهو مباح ، وإن كان مذموما فهو مذموم

نعم لا يليق اعتياد ذلك بمناصب الأكابر وأهل القدوة ، لأنه في الأكثر يكون عن لهو ولعب ، وماله صورة اللعب واللهو في أعين الناس فينبغي أن يجتنبه المقتدى به، لئلا يصغر في أعين الناس فيترك الاقتداء به ، وأما تمزيق الثياب فلا رخصة فيه إلا عند خروج الأمر عن الاختيار ، ولا يبعد أن يغلب الوجد بحيث يمزق ثوبه ، وهو لا يدري لغلبة سكر الوجد عليه ، أو يدري ولكن يكون كالمضطر الذي لا يقدر على ضبط نفسه ، وتكون صورته صورة المكره، إذ يكون له في الحركة أو التمزيق متنفس ، فيضطر إليه اضطرار المريض إلى الأنين ، ولو كلف الصبر عنه لم يقدر عليه ، مع أنه فعل اختياري فليس كل فعل حصوله بالإرادة يقدر الإنسان على تركه ، فالتنفس فعل يحصل بالإرادة ، ولو كلف الإنسان أن يمسك النفس ساعة لاضطر من باطنه إلى أن يختار التنفس ، فكذلك الزعقة وتمزيق

---

(١) حديث نظر عائشة إلى رقص الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يزفنون : تقدم في الباب قبله

(٢) حديث اختصم علي وجعفر وزيد بن حارثه في ابنة حمزة فقال لعلي أنت مني وأنا منك فحجل وقال لجعفر أشبهت خلقي وخلقي فحجل وقال لزيد أنت أخونا ومولانا فحجل ـ الحديث : أبوداود من حديث علي باسناد حسن وهو عند البخاري دون فحجل

الثياب ، قد يكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم ، فقد ذكر عند السرى حديث الوجد الحادّ الغالب، فقال نعم يضرب وجهه بالسيف وهو لا يدرى، فروجع فيه، واستبعد أن ينتهى إلى هذا الحد فأصر عليه ولم يرجع، ومعناه أنه فى بعض الأحوال قد ينتهى إلى هذا الحد فى بعض الأشخاص

فإن قلت : فما تقول فى تمزيق الصوفية الثياب الجديدة بعد سكون الوجد والفراغ من السماع ، فإنهم يمزقونها قطعا صغارا ويفرقونها على القوم ، ويسمونها الخرقة

فاعلم أن ذلك مباح إذا قطع قطعا مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات ، فإن الكرباس يمزق حتى يخاط منه القميص ، ولا يكون ذلك تضييعا لأنه تمزيق لغرض ، وكذلك ترقيع الثياب لا يمكن إلا بالقطع الصغار ، وذلك مقصود ، والتفرقة على الجميع ليعم ذلك الخير مقصود مباح ، ولكل مالك أن يقطع كرباسه مائة قطعة ، ويعطيها لمائة مسكين ، ولكن ينبغى أن تكون القطع بحيث يمكن أن ينتفع بها فى الرقاع ، وإنما منعنا فى السماع التمزيق المفسد للثوب الذى يهلك بعضه ، بحيث لا يبقى منتفعا به فهو تضييع محض لا يجوز بالاختيار

الأدب الخامس: موافقة القوم فى القيام إذا قام واحد منهم فى وجد صادق من غير رياء وتكلف، أو قام باختيار من غير إظهار وجد وقامت له الجماعة. فلا بد من الموافقة فذلك من آداب الصحبة، وكذلك إن جرت عادة طائفة بتنحيه العمامة على موافقة صاحب الوجد إذا سقطت عمامته، أو خلع الثياب إذا سقط عنه ثوبه بالتمزيق، فالموافقة فى هذه الأمور من حسن الصحبة والعشرة، إذ المخالفة موحشة ولكل قوم رسم، ولا بد من [1] مخالفة الناس بأخلاقهم، كما ورد فى الخبر، لا سيما إذا كانت أخلاقا فيها حسن العشرة والمجاملة وتطييب القلب بالمساعدة، وقول القائل إن ذلك بدعة لم يكن فى الصحابة فليس كل ما يحكم بإباحته منقولا عن الصحابة رضي الله عنهم، وإنما المحذور ارتكاب بدعة تراغم سنة مأثورة ، ولم ينقل النهي عن شيء من هذا، والقيام عند الدخول للداخل لم يكن من عادة العرب بل كان الصحابة رضي الله عنهم لا يقومون لرسول الله صلى الله عليه وسلم [2] فى بعض الأحوال كما رواه أنس رضي الله عنه، ولكن إذا لم يثبت فيه نهي عام فلا نرى به بأسا فى البلاد التى جرت العادة فيها بإكرام الداخل بالقيام ، فإن المقصود منه الاحترام والإكرام ، وتطييب القلب به

---

(١) حديث مخالفة الناس بأخلاقهم : الحاكم من حديث أبى ذر خالقوا الناس بأخلاقهم ـ الحديث : قال صحيح على شرط الشيخين

(٢) حديث كانوا لا يقومون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الأحوال: كما رواه أنس تقدم فى آداب الصحبة

وكذلك سائر أنواع المساعدات إذا قصد بها تطييب القلب واصطلح عليها جماعة فلا بأس بمساعدتهم عليها ، بل الأحسن المساعدة إلا فيما ورد فيه نهي لا يقبل التأويل ، ومن الأدب أن لا يقوم للرقص مع القوم إن كان يستثقل رقصه ، ولا يشوش عليهم أحوالهم ، إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح ، والمتواجد هو الذي يلوح للجمع منه أثر التكلف ، ومن يقوم عن صدق لا تستثقله الطباع ، فقلوب الحاضرين إذا كانوا من أرباب القلوب محك للصدق والتكلف ، سئل بعضهم عن الوجد الصحيح ، فقال ، صحته قبول قلوب الحاضرين له إذا كانوا أشكالا غير أضداد

فإن قلت : فما بال الطباع تنفر عن الرقص ، ويسبق إلى الأوهام أنه باطل ولهو ومخالف للدين ، فلا يراه ذو جد في الدين إلا وينكره

فاعلم : أن الجد لا يزيد على جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد رأى الحبشة يزفنون في المسجد وما أنكره ، لما كان في وقت لائق به وهو العيد ومن شخص لائق به وهم الحبشة ، نعم : نفرة الطباع عنه لأنه يُرى غالبا مقرونا باللهو واللعب ، واللهو واللعب مباح ، ولكن للعوام من الزنوج والحبشة ومن أشبههم ، وهو مكروه لذوى المناصب لأنه لا يليق بهم ، وما كره لكونه غير لائق بمنصب ذى المنصب ، فلا يجوز أن يوصف بالتحريم ، فمن سأل فقيرا شيئا فأعطاه رغيفا كان ذلك طاعة مستحسنة ، ولو سأل ملكا فأعطاه رغيفا أو رغيفين لكان ذلك منكرا عند الناس كافة ومكتوبا في تواريخ الأخبار من جملة مساويه ، ويعير به أعقابه وأشياعه ومع هذا فلا يجوز أن يقال ما فعله حرام ، لأنه من حيث إنه أعطى خبزا للفقير حسن ، ومن حيث إنه بالإضافة إلى منصبه كالمنع بالإضافة إلى الفقير مستقبح ، فكذلك الرقص وما يجرى مجراه من المباحات ، ومباحات العوام سيئات الأبرار ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ولكن هذا من حيث الالتفات إلى المناصب وأما إذا نظر إليه في نفسه وجب الحكم بأنه هو في نفسه لا تحريم فيه والله أعلم

فقد خرج من جملة التفصيل السابق : أن السماع قد يكون حراما محضا ، وقد يكون مباحا ، وقد يكون مكروها ، وقد يكون مستحبا ، أما الحرام . فهو لأكثر الناس من الشبان ، ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا ، فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة

وأما المكروه : فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ، ولكنه يتخذه عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو وأما المباح فهو لمن لا حظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن ، وأما المستحب فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ولم يحرك السماع منه إلا الصفات المحموده والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله ؟

فهرست الجزء السادس

كتاب آداب العزلة

الصفحة

كتاب آداب السماع والوجد

الصفحة